عوائق النهضة الإسلامية

سلسلة مقالات لـ

علي عزت بيجوفيتش

الطبـعة الأولى

رمضان ١٤١٧هـ / يناير ١٩٩٧م

٢١٠,٤

بيغوفيتش ،علي عزت

عوائق النهضة الإسلامية : مقالات / تاليف علي عزت بيغوفيتش ،
ترجمة حسين عمر سباهيتش : - الدوحة : جمعية قطر الخيرية ، ١٩٩٦
١٦٠ ، ٢٤ سم

ايداع : ٤٦٥/١٩٩٦

الرقم الدولي (ردمك) : ٤ - ٤ - ٧١٩ - ٩٩٩٢١

أ. سباهيتش ، حسين عمر ، مترجم ب - العنوان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ، ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ .

أما بعد فإن جمعية قطر الخيرية تقدم لعامة المسلمين مجموعة مقالات تنشر لأول مرة باللغة العربية في كتاب وهي لسيادة الرئيس علي عزت بيغوفيتش رئيس جمهورية البوسنة والهرسك حفظه الله من كل شر ومكروه وأيّده ونصره وجعله شوكة في حلوق طواغيت الأرض أعداء الله ورسالاته الذين لا يريدون أن تقوم للإسلام قائمة بل يريدون أن يمحي اسم الإسلام من الوجود . وخابوا وخسروا ولن تفلح جهودهم إن شاء الله وإن الله ناصر دينه ولابد طال الزمن أو قصر . ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ .

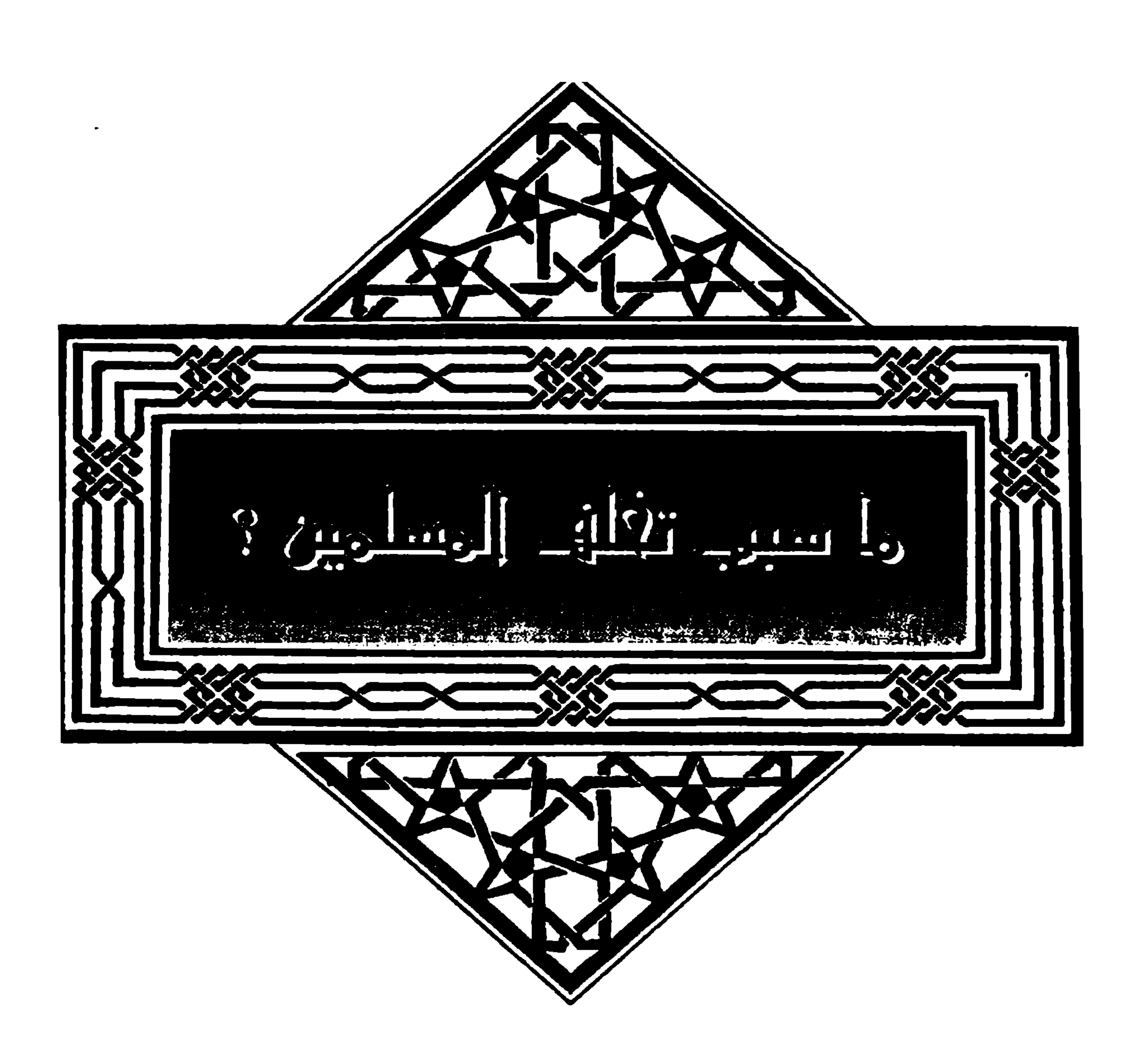
وإن من حق القارىء العربي المسلم أن يقرأ فكر هذا الرجل الذي جاهد ودخل أعماق السجون لتصل كلماته إلى آذان الناس . ونحن إذ نقدم هذه المقالات للقراء الكرام نذكّر بقول الامام مالك رحمه الله (ما منا أحد إلا ردّ وردّ عليه إلا صاحب هذا القبر وأشار إلى قبر رسول الله ﷺ) ، فالعصمة للوحي ولإجماع الأمة ويبقى فكر كل انسان مهما سما وعلا محكوماً بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة رضي الله عنهم .

والمسلمون الآن بحاجة أن يقرأ بعضهم فكر بعض وأن يتناصحوا وأن يتعاونوا لما فيه خير الإسلام والمسلمين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الأمين العام

عبد الله محمد عبد الله الدباغ


ما سبب تخلف المسلمين ؟

ما سبب تخلف المسلمين؟

ليست هذه المشكلة من قبيل المشكلات المختلقة، كما أنها ليست من نسيج الترف الفكري، لأنّ هذه المشكلةَ تفرضها صورةُ السبات والركود التي هيمنت منذ زمن طويل على مناطق شاسعة تمتدّ من جبل طارق غربًا إلى أندونيسيًا شرقًا، ولكن أبرز صورة لهذه الظاهرة التي يُسميها البعض بـ "ليل أو غروب الإسلام" ظهرت ابتداءً من مرحلة الاستعمار الإنجليزي للهند وامتدّت إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، إلاّ أن جذور وبداية الأسباب الحقيقية لها تعود إلى ما هو أبعد من ذلك، كما أن آثارها ما زالت قائمة إلى درجة كبيرة حتى يومنا هذا.

إن أسباب نهضة أو انحطاط أمّة ما تكون دائمًا معقّدةً ومتعدّدة الأبعاد، ومع ذلك فلا يكون هناك إلا جانب منها له نصيب من الأسباب الموضوعية مايجعله يخضع للتحليل والمنطق والإدراك، بينما يظل جانبها الآخر غير خاضع لذلك لأنه يكمن في قلوب وإرادة البشر.

ما الأسباب الكامنة التي جعلت ينابيع الحياة والإرادة والعلوم تنبع من أرض مصر القديمة واليونان وروما والجزيرة العربية والهند والصين ومكسيك؟ وفي أوربا وأمريكا، كما نشهدها اليوم؛ في الوقت الذي تعيش وتموت أجيال لا حصر لها من "الفلاحين" في مناطق شاسعة خارج هذا النطاق الأول، سائرة دومًا في الدائرة نفسها لتستقر في مجاهيل التاريخ؟ ما الأمر الذي يجعل شعبًا يكتشف هويته فجأة ويتحول إلى مهد العمالقة الشجعان والرجال المبجّلين وفطاحل الشعراء، بينما تظل شعوب أخرى تطلع وتغرب عليهم الشمس نفسها، تعيش في ظروف مشابهة، ومع ذلك لا تشكل إلاّ مستنقع المجاهيل؟

وعادة ما يدور التوضيح المعتاد للأمر المطروح حول ما يلي:إنّ العلة في ذلك تُعزىَ

إلى الحكام والمؤسسات والظروف الاقتصادية وأمية الشعوب، وهلمّ جراً. أو إن الشعوب غير متعلمة، ولذلك تحتمل طغيان الحكام؛ وهؤلاء الحكام أنانيون، لذلك لا يعملون لتعليم شعوبهم. والمؤسسات التعليمية انعكاس مباشر لمستوى المجتمع الثقافي بالإضافة إلى تحكم النظام القائم فيها! إذن، أين السبب وأين النتيجة؟

إن علم التاريخ ليس علماً من العلوم التطبيقية، كالرياضيات مثلاً. لا شكّ في أن للتاريخ قواعد وقوانين، ولكنها ليست في شكل القواعد التي تضمن لنا صحة افتراض وتوقع مجريات أحداث ما، أو تضمن صحة تحليل ما قد جرى فعلاً. إن التاريخ قصة حياة، والحياة انعكاس للحرية والعفوية وعدم الخضوع للتوقعات؛ ولكن التعريف الحقيقيّ للحياة يظل سراً. لذلك لن تقوم - ولا يمكن أن تقوم - إجابة علمية عن سؤال: ما سبب تخلّف أمة ما؟

ومع أن غرض هذه المقالة ليس في بحث أو تعداد - على الأقلّ - أسباب تخلف الشعوب الإسلاميّة، فإنني سأعرض هنا لذكر السببين الاثنين اللذين يبرزان أكثر من غيرهما، نظراً إلى أهمّيّتهما: الأول - خارجيّ - وهو هجوم المغول؛ والآخر - داخليّ - وهو التفسير الديني المحض للإسلام.

أظنّ أنّ الوعي البشري ما زال لا يدرك إلى الآن كلّ الآثار المدمرة لكارثة الاجتياح المغولي، مهما كتبنا وتحدّثنا عنها! لقد تمّ تدمير مئات المدن وكل ما صنعته يد الإنسان في مساحة مترامية الأطراف، في منطقة حيوية بالنسبة للإسلام، في شكل لا مثيل له في تاريخ البشرية القديم والحديث! إنه لمن قبيل المعجزات أن تنهض من جديد تلك الشعوب التي اجتاحتها جيوش المغول وأفنت بعضَها عن آخرها؟

ومن جانب آخر كان التفسير الديني المحض للإسلام، الذي حصر الإسلام في دائرة رسالة دينية، مهملاً ومنكراً دورَه في تنظيم وتغيير العالم الخارجي، عاملَ إضعاف داخلي لقوة ومناعة الأمة الإسلامية، وجعلها غنيمة سهلة للجيوش البربرية.

ولنعد الآن إلى الغرض الأصلي من هذا المقال، وهو محصور في محاولة استخلاص الإجابة عن السؤال – من خلال سلسلة من الأسباب: هل كان الإسلام – باعتباره دينًا وفكرًا وغطًا وفلسفةً حياة لملايين البشر الذين يُسمَّوْن بالمسلمين –أحدَ عوامل تخلّف الشعوب الإسلامية؟

لم تكن الشعوب الإسلامية – أو غالبُها – متخلفة في الماضي. وأما اليوم فإنها متخلفة، ولكنها لا تتبع الإسلام بالمفهوم العملي. إن التاريخ شاهدي لما قلته في الشق الأول، وأنا وأنتم ونحن جميعًا شهود على الشقّ الثاني.

إن الإسلام مجموعة تعاليمَ حواها القرآن الكريم والحديث الشريف والمصادر الأخرى المعروفة. ولكن الإسلام أيضًا عنوان لظاهرة تاريخية في العالم الواقعي، وعنوان للحركة التي أقامت نظام القضاء وأنشأت المدن والدول والحضارات. إنّ الإسلام، سواء باعتباره رسالة أو ظاهرة تاريخية، ليرفض الركود والتخلف.

ولنتذكر أن الإسلام قد اتُّهِم بأنّه "دين السيف"، ودين أولئك "الذين لا يخشعون حتى في صلاتهم"، "وأن هدفه السيطرة على العالم، وليس تهيئة الإنسانية للمملكة الإلهية" و "أن الصوم في الإسلام أقرب إلى نظام صارم منه إلى زهد وخشوع" و "أنه دين اختلطت فيه القسوة بالرأفة والعبادة بالانغماس في ملاذّ الدنيا"!

إن هذا الهجوم، بغض النظر عن بواعثه، فيه جانب من الحق، لأن الإسلام يسعى دائمًا إلى تحقيق عالمين: خارجي وداخلي، أخلاقي وتاريخيّ، هذه الدنيا والآخرة. لذلك يمكن تعريف الإسلام بهذه الثنائية. يطالب الإسلام بالامتثال لله وللعمل الصالح، ولكن رسالته الوحيدة لمجابهة الشر والبغي والأعداء والأمراض وقلّة النظافة والخرافة – هي الجهاد.

ويذهب الباحث الفرنسي جاك ريسلر Jacques Risler إلى أن الإسلام بُني على ستة أركان – وليس على خمسة – ويضيف الجهاد. ولا شك في أنّ أوثق من فسر روحَ الإسلام هم المسلمون في القرون المفضلة. من هنا ستوضّح الحقائق التي سنسردها أنهم أدركوا أن الإسلام يفرض على أتباعه تحرير وتغيير العالم، وأن الإسلام ليس دعوة إلى مجرّد الاستسلام للمصير.

ظهر الإسلام سنة ٦١٠ م بين قبائل جاهلة بعيداً عن حواضر شعوب الحضارات القائمة آنذاك، وانتقل النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الرفيق الأعلى سنة ٦٣٢ م، ولكن بعد مرور مئة سنة فقط وقفت الجيوش الإسلامية تحت أسوار باريس في معركة بويتيرسا سنة ٧٣٢م! فلنتأمل بركان الحياة هذا ولننظر إلى ما جرى في هذه الوثبة العملاقة في غضون مئة عام فقط.

لقد قامت حضارة متكاملة مغايرة لجميع الحضارات المعروفة ووُضعت أسسُها على مدى مئة عام من الحركة الدؤوب والهدم والبناء، وتمّ احتواء شعوب متحضرة كاملة في هذه الرقعة الشاسعة بقوة الدين والعلم فقط!

فُتحت سوريا سنة ٦٣٤م وفُتحت دمشق ٦٣٥م، وكتيسيفون ٦٣٦ والهند ومصر سنة ٦٤١ وقرطاجنة ٦٤٧ وسمرقند ٦٧٦ والأندلس ٧١٠، وأوقفت الجيوش الإسلامية في فرنسا سنة ٧٢٠م. ووصل الدعاة المسلمون إلى الصين سنة ٦٢٩م وسلموا رسالة الخليفة إلى القيصر تاي شونغ، وحصلوا على إذن بنشر الإسلام، ثمّ أقاموا مسجداً في مقاطعة كانتون الذي ما زال قائمًا للآن ويُعَدّ أقدم مسجد في هذا الجزء من العالم.

هذه النهضة أو "تحرير للقدرات البشرية لا مثيل له" (الفيلسوف سبنغلر O.Spengler) تظل فريدة من نوعها في تاريخ البشرية. "بذلك أصبحت الجزيرة العربية نبع دين وإرادة" كما يصف تلك الأيام هـ. غ. ويلز H.G. Wels في كتابه "تاريخ العالم". هزمت البحرية الإسلامية بحرية البيزنطيين في معركة قرب اللاذقية سنة ٦٥٥م، ويظل إلى الآن غير واضح من أين حصل العرب على تلك السفن؟ ويحاصر الخليفة معاوية بن أبي سفيان مدينة القسطنطينية سنة ٦٦٢ و ٦٦٧م، بينما تمتدّ الخلافة الإسلامية في عهد الخليفة عبد الملك وابنه الوليد (٦٨٥ - ٧١٥م) من جبال بيريني غربًا حتى الصين شرقًا. ثمّ إنّ الدول الإسلامية في الأندلس والشرق الأوسط والهند، مع مراكزها في قرطبة وبغداد ودلهي تمتدّ مدّة ألف عام! وعندما أخذ الإسلام يتراجع من الأندلس التي حكمها أزيد من ٧٠٠ عام و أزهر بأجمل أزهار حضارته، منسحبًا أمام الضربات الموجعة على يد محاكم التفتيش، فاضت ينابيعه الجديدة في آسيا الوسطى، ثم غمرت القسطنطينيّة وعبر البلقان فاضت في أوروبا.

حاصر العثمانيون مدينة فينا آخر مرّة سنة ١٦٨٢م (أي قبل نحو ٣٠٠ عام)، بينما سقط الحكم الإسلامي في الهند قبل نحو ٢٥٠ عام، بعد عهدٍ وُصف بأنه "أجمل وأزهر عهد عاشته الهند في تاريخها" (هـ. غ. ويلز)، أي في عهد أسرة المغول العظام من (١٥٢٦ - ١٧٠٧م).

وأسرد هنا بعض الحقائق التاريخية لتقريب الصورة. كان أكبر شاه - أحدُ ملوك أسرة المغول العظام - "أحدَ أكبر عظماء ملوك الهند، كما كان قد تبوأ مكانة بين عظماء الملوك في تاريخ الإنسانية الذين كانوا عظماء بالمعنى التام للكلمة. إن أغلب جوانب النظام الذي أقامه في الهند ما زال قائمًا إلى الآن. كان أشجع الشجعان في القتال، ولكن بمجرد تحقيق الانتصار يظهر في معاملة الأسرى المهزومين في منتهى الإنسانية، وكان عدواً لدوداً لجميع ألوان الظلم والوحشية. سخر قوته لأعمال عظام وقت السلم، وأقام المدارس في أنحاء الهند، ومع أنه لم يدرك أهميةَ ذلك بقدر ما أدركه الإنجليز الذين قضوا على حكمه في الهند، إلاّ أنه عمل أكثر بكثير منهم لسعادة شعب بلده." (الدكتور شْميت Dr Schmidt في "تاريخ العالم" للهيلمْهولْتوفْ)

وكان حفيد أكبر شاه أورانْغزْيب (١٦٥٨ - ١٧٠٧م) حاكمًا فعليًا في كافة أراضي شبه الجزيرة الهندية، وعلى القارئ الكريم أن يلاحظ أن ذلك لم يكن قبل زمن طويل جداً!

لم يهدم المسلمون شيئًا في الأراضي الخاضعة لسلطانهم، بل استوعبوا العلوم التي ازدهرت بين الشعوب الواقعة تحت حكمهم، وأثروها ونقلوها إلى الشعوب الأخرى. ولا شكّ أن الفضل في هذا التصرف العام يعود إلى روح وتعاليم الإسلام. إن أحد قياصرة بيزنطة لم ينقطع عجبه أمام إصرار "القائد الهمجيّ" على إدخال بند يضمن له "حقّ شراء المخطوطات اليونانية" من ضمن بند اتفاقيّة السلام. وكان هذا "القائد الهمجيّ" قائداً عربيًا مسلمًا.

لقد استوعب الإسلام إبداعَ الفينيقيين في مجال معالجة الزجاج، ومن المصريين في مجال النسيج، ومن السوريين في مجال القطن، ومن الفرس في مجال الحرير. يقول

ريسلير: لقد كان نسيج البيزنطيين والأقباط والساسانيين ذائع الصيت في ذلك الوقت، ولكنّ المسلمين استطاعوا الحفاظ على مستوى روعته."

وهناك نماذج من الأقمشة المصنوعة في ذلك الوقت تُحْفظ في متحف لوفر في فرنسا والمتحف القيصري في اليابان. لم يُدرك أحد حتى الآن مهارة وهندسة العرب في معالجة الزجاج. يحتفظ متحف لوفر والمتحف البريطاني بقطع من روائع المصنوعات الزجاجية من سامراء والفسطاط. وكان الكيميائيون العرب أول من اخترع الصابون وأقاموا مصانع لإنتاجه. وكان للوزير الفضل البرمكي قصب السبق في إنشاء مصنع الورق في بغداد، ولكن صناعة الورق الذي اختُرع في الصين تطوّرت وانتقلت بسرعة فائقة عن طريق المسلمين في الأندلس إلى أنحاء أوربا، بينما ظلت مدينة سمرقند تنتج أجود أنواع الورق في العالم مدة طويلة من الزمن.

اختط العرب مدينة بغداد - المدينة السحرية من قصص ألف ليلة وليلة - بعد أن فتحوا بلاد العراق. وعندما حكمها الخليفة هارون الرشيد لم يكن قد مضى على تأسيس بغداد أكثر من خمسين سنة، ولكنها كانت حاضرة العالم في الثقافة والرخاء. وتشير بعض التقديرات إلى أن عدد سكان بغداد في القرن الحادي عشر بلغ أكثر من مليونين، وكانت أكبر مدينة في العالم في ذلك الوقت. وعند حديثه عن هارون الرشيد راعي الحضارة الإسلامية، يقول ي. ريسلر: "كانت عظمته تجذب نوابغ الرجال إليه مثل المغنطيس، فجمع حوله برلمانًا غير مألوف تكوّن من الشعراء والفقهاء والأطباء واللغويين والموسيقيين والفنانين، ولم يسجّل التاريخ أن قصر حاكم ما اجتمع فيه هذا العدد من العلماء الفطاحل، مثلما حصل في عهد هارون الرشيد، لأن عهدَه كان عهد حضارة راقية وتسامح.

وفي عهد ابنه الخليفة المأمون كان في أنحاء الخلافة الإسلامية أكثر من أحد عشر ألف كنيسة، ومئات المعابد اليهودية ومعابد عبدة النار؛ وأصبحت الجامعة النظامية التي أسّست سنة ١٠٦٥م أنموذجًا اتّبعته أغلب المراكز العلمية في كبرى مدن الخلافة، وكانت تدرّس علوم القرآن والحديث والفقه - خاصة فقه المذهب الشافعي - وعلم اللغة

والأدب والتاريخ وعلم حضارات الشعوب والآثار والفلك والرياضيات والكيمياء والفيزياء والموسيقى والهندسة. بعد قيام النظامية بمدة وجيزة أسّست في بغداد الجامعة المستنصرية وكانت بحق مركز العالم الإسلامي يرعى علوم الفقه والعلوم التطبيقية والأدب والفنون وغيرها. وهذا النظام الحقيقي لتدريس العلوم هو النظام ذاتُه الذي قلده الغرب بعد ذلك بتوحيد علوم المذاهب النصرانية الأربعة في جامعة باريس.

كانت الدراسة في المراحل الابتدائية -أو ما يُعرف اليوم بالمدارس الابتدائية والثانوية - بدون مقابل. ومن أجل السماع من أعلام عصرهم والأخذ عنهم رحل آلاف طلبة العلم إلى مكة والمدينة والقاهرة ودمشق وبغداد؛ وأثناء رحلتهم العلمية قُدّمت لهم خدمات المبيت والطعام والدراسة بدون مقابل في جميع المدن التي مرّوا بها. وبعبارة أخرى يمكن أن نستخلص مما ذكرنا: إننا نرى في العالم الإسلامي في القرنين العاشر والحادي عشر ظاهرة لم نسمع بها قط في أي حضارة أخرى: أينما يمّمت وجهَك ترى الشغف بالكتاب والعلم، تدوّي أصوات أفصح العلماء في آلاف المساجد، تعجّ قصور الحكام والأمراء بحلقات الشعراء والفلاسفة، تقابل في الطرقات علماء جغرافيا وتاريخ وشريعة يبحثون عن العلم. إن هذه المرحلة لهي أهمّ مرحلة في تاريخ الفكر الإسلامي." (ي. ريسلر)

وكان الإسلام يحكم العالم خمسمائة سنة (من ٧٠٠ - ١٢٠٠م) بمحض تفوّقه الحضاريّ على الأمم الأخرى: "كان الخليفة الناصر في مدينة مراكش يتباحث مع الفيلسوف ابن رشد في فكر أرسطو وأفلاطون، في وقت كان أمراء ونبلاء الدول الغربية يتفاخرون بأنهم لا يعرفون القراءة أو الكتابة."

كان الخليفة الحاكم الأموي يملك مكتبة تحتضن ٤٠٠ ألف مجلد، وكان ملك فرنسا كارلو الخامس الملقّب بـ "المعلم" يفتخر بعد ذلك بأربعمائة سنة بمكتبته التي تكوّنت من "أكثر من ألف مجلّد". ويذكر اليعقوبي أنّه أحصى سنة ٨٩١ م أكثر من مئة مكتبة في بغداد وحدَها. ويضيف ي. ريسلر: "لم يجرؤ أحد من أغنياء المسلمين على إمساك ماله عن الإنفاق في العلم والأدب والفنون."

وحوت خزانة مكتبة مدينة النجف الصغيرة في العراق ما يزيد على ٤٠ ألف مجلد،

ومكتبة أبي الفداء - أحد الأمراء الأكراد من حماة - ٧٠ ألف مجلد، ومكتبة المؤيد من جنوب الجزيرة العربية أكثر من ١٠٠ ألف مجلد، ومكتبة مراغة ٤٠٠ ألف مجلد، وكانت أسماء الكتب الموجودة في مكتبة مدينة الريّ مدوّنة في عشرة سجلات (فهارس) ضخمة؛ ولكن أضخم مكتبة وقتئذ وُجدت في العالم كانت مكتبة العزيز في مدينة القاهرة، وحوت مليون وستمائة ألف (١.٦٠٠.٠٠٠) مجلد، منها ٦.٥٠٠ مجلد في الرياضيات، و ١.٨٠٠ مجلد في الفلسفة؛ وأمّا مكتبة مدينة بخارى فقد وصفها الفيلسوف الشهير ابن سينا بقوله: "رأيت فيها كتبًا لا وجود لها في أي مكان في العالم!" وفي معرض ذكره للحاكم الإسلامي العظيم في الأندلس الإسلامية عبد الرحمن الأول، ومحاولته جمع كل العلماء من مختلف الأجناس في الجزء الغربي من الخلافة، مثل العرب والبربر والمرابطين والأندلسيين، يقول ي. ريسلر: "إن هذا الهدف كان في حقيقة أمره حركة استطاعت عبر القرون القادمة النهوض بالأندلس الإسلامية إلى ذروة الحضارة البشرية. وعند وفاة الخليفة عبد الرحمن الأول سنة ٧٨٨ م كانت الأندلس الإسلامية أضاءت عالم الغرب بأنوار علوم الشعر والفنون والهندسة."

ويذكر العالم الهولندي دوزي أن جميع سكان الأندلس الإسلامية كانوا يحسنون القراءة والكتابة، في وقت كانت الكتابة حكرًا على عدد من رجال الكنيسة، ويضيف: "لقد جذبت هذه الحضارة المزدهرة رجال الكنيسة وعامة الناس في الغرب النصرانيّ ورحلوا بكل حرية إلى قرطبة وإشبيلية وطليطلة ليحضروا محاضرات مشاهير العلماء المسلمين في الجامعات الإسلامية."

وكانت الزراعة بلغت مستوى عاليًا من التقدم في أرجاء بلاد الخلافة لأنها كانت تحت تأثير مباشر لمعطيات العلوم. ونظراً إلى ضيق الوقت للاسترسال في هذا الموضوع، فإننا سنسرد بعض الحقائق الموجودة في متناول يدنا: "عيّنت الدولة موظفًا رسميًا مسؤولا عن شبكة الريّ في جميع أقاليم الدولة الإسلامية... وقد ظهرت بحوث علمية في مدينة إشبيلية تناولت تفاصيل زراعة ما يزيد على خمسين نوعًا من الفواكه وذكرت أمراض النباتات وأساليب علاجها... وكان إنتاج الحرير في بلاد فارس قد ارتقى إلى مستوى الإنتاج وفق الحقائق العلمية، لذلك استطاعت فارس تغطية

احتياجات الأسواق الأوربية في الحرير لمدة تزيد على مئة عام. ويصف الإدريسي وصفًا دقيقًا ٣٦٠ عقارًا من العقاقير المستخدمة في استخراج الأدوية، بينما قام ابن العباس من إشبيلية بإجراء أبحاث في نباتات البحار، وبذلك استحقّ لقب "النباتي"... وفي سنة ١١٩٠م اشتُهر ابن العوام بكتابه "كتاب الفلاحة" في إشبيلية أيضًا، وصف فيه أنواعًا من نبات وفواكه وذكر أنواعًا رئيسة من الأسمدة... إن هذا التطوّر الكبير في علوم الزراعة يُعد أحد المنافع المستمرّة التي استفادتها دولة إسبانيا الحديثة من حضارة العرب. وكانت حالة الرخاء قد عمّت أودية دجلة والفرات والنيل، كما عمّت سكان هضاب الفرس وسوريا بقدر ما عمّت الحواضر والموانئ على سواحل البحار." (ي. ريسلر)

وصل الطبّ والصحة إلى مراحل متقدّمة جداً، وهذا ما يهمّنا بشكل خاصّ، لأن هذا الجانب - بدون شكّ - يدخل ضمن النتائج المباشرة لأوامر وفروض الإسلام. يزيد عدد الأحاديث التي تتحدّث عن الطب والصحّة عن ٣٠٠ حديث، وقد جُمعت في كتاب " الطبّ النبويّ." والنتيجة المباشرة لهذا إنّنا نجد في كافة المناطق التي خضعت يومًا ما للسلطة الإسلامية عناية خاصة بشبكة المياه والحمّامات والمستشفيات. هذه هي الوظيفة العامة للحكومة الإسلامية. نجد أربعة وثلاثين مستشفىً في أنحاء الدولة الإسلامية سنة ٨٥٠م، وقد كان مستشفى (بيمارستان) دمشق يدار من تبرعات الدولة السخية، وكان مجهّزًا تجهيزًا فائقًا ومفتوحًا أمام الأغنياء والفقراء، ويديره فريق مكوّن من أربعة وعشرين طبيبًا مختصًا. يقول نيوبورغر Neuburger - أستاذ تاريخ الطبّ: "إن جميع الرحّالين في القرون الوسطى - وهم جمّ غفير- متّفقون في إعجابهم بمستشفيات الشرق، وكان تنظيم وإدارة المستشفيات يمثل أحد أروع منجزات الحضارة الإسلامية."

وقد أقيمت شبكة المياه في سراييفو قبل لندن بـ ١٤٨ سنة، و٣٧٨ سنة قبل فينّا! كما كانت الحمّامات العامّة ظاهرة مألوفة وخاصية من خصائص الإسلام، وكان الاهتمام بالنظافة الشخصيّة شيئًا اعتياديًا في بيوت المسلمين، أغنيائهم وفقرائهم على حدّ سواء، تدلّ على ذلك حمّامات في غرف مفردة داخل البيوت. ولمجرّد المقارنة

نضرب مثلا بصورة واقعية عن حيّ هارلم المخصص للسود في نيو يورك - في النصف الثاني من القرن العشرين - حيث تنتشر في شوارعه الروائح الكريهة والقمامة ورائحة أنواع الخمر الرخيصة وبيوت الدعارة. ولنأخذ حالة مدينة باريس. أعتبر نفسي جريئًا جدًا إذا استطعت أن أنقل على لساني ما ذكرته صحيفة "كورييرا ديلا سيرا" Corierre della Sera الإيطالية عن مدينة باريس سنة ١٩٦٥م: "إن ٦٦٪ من مساكن باريس - وترتفع هذه النسبة لتصل إلى ٨٠٪ في قلب المدينة - لا يوجد فيها حمام إطلاقًا، بينما ينتظر ١٠٪ من سكان باريس تحقيق أمنيّة الفيلسوف فولتير Voltaire. بأن تمتدّ شبكة المياه إلى جميع سكان باريس."

أمر الخليفة المنصور سنة ٧٧٣م بترجمة كتب علم الفلك التي كُتِبَت حول سنة ٤٢٥ قبل الميلاد باللغة الساسانية. كان إبراهيم الزركلي قد وضع "جداول طليطلة" في ضبط دوران الكواكب، وظلت أساس علم الفلك في أوربا مدة طويلة. وقد فتح البيروني الطريق أمام كوبيرنيك بدحض نظرية انحراف الكواكب عن مراكزها التي وضعها بطليموس في تفسير دوران الكواكب. وتمكن عمر الخيام (المشهور في الغرب بشعره أكثر من علومه) من وضع تقويم أدقّ من التقويم الغربي الذي نستخدمه اليوم، لأنه يخطئ في حساب يوم واحد كلّ خمسة آلاف سنة، بينما التقويم الغربي المستخدم يخطئ في حساب يوم واحد كلّ ثلاثة آلاف وثلاثمائة سنة.

وكانت كتب ابن الهيثم، العالِم المسلم من الأندلس، في علم البصريّات أساسًا لبحوث علماء أوربا، مثل بيكون وكابلير، بينما قال عالم الرياضيات شاسليس Chasles (في القرن التاسع عشر) عن بحوث ابن الهيثم: "إنها كانت أساسَ وجوهرَ ما توصّلنا إليه في مجال علم البصريات"؛ ويضيف عالم الفلك بايغودواين Bigourdain : "كانت بحوثه أدقّ بكثير من نظرية بطليموس." إن النتيجة العامة التي يخرج بها سايديلوت Sedilot في دراسة علم الفلك عند العرب هي: "وصلت مدرسة علم الفلك في بغداد في نهاية القرن العاشر إلى أقاصي حدود المعرفة التي كان يمكن للإنسان الوصول إليها دون استعمال العدسات والمرقب (التلسكوب)."

ونجد أثر الشعر العربي واضحًا في "ملحمة رونالد"، أول ملحمة كبيرة في الأدب

الغربي (كتبت سنة ١٠٨٠م تقريبًا)، كما لا يُنكر أحد تأثير الشعر العربي في الشعراء مثل بوكاشو G.Boccaccio, وشانسير Chancer، وتنيسون A.Tennyson، وبراونينغ R.Browning، وكان الشاعر دانتي، كاتب "الكوميديا الإلهية" تحت تأثير قويّ للشعر الإسلامي. "حفلت فصول هذه الملحمة الرائعة بأوصاف عربية أصيلة لرحلة في أسرار ملكوت السماء والجحيم" -كما يقول أحد نقاد الأدب، ويعزو باروخ كالمي Baruh Kalmy هذا التأثير إلى تأثير مباشر للقرآن الكريم والإسراء والمعراج، بينما يعزوه آخرون إلى الأدب العربي، وخاصة إلى كتب الفيلسوف ابن عربي من القرن الثالث عشر. (ي. ريسلر)

إن فكرة رواية "دون كيشوت" Don Quijote مقتبسة في أصلها من العرب، لأن المؤلف سيرفانتس Miguel de Cervantes عاش مدة طويلة أسيراً في الجزائر، واعترف بأنه كتب روايته هذه باللغة العربية أولا، كما أن الأديب دانيال ديفو Daniel Defoe استلهم فكرة روايته الشهيرة روبينسون كروزو Robinson Crusoe من كتاب "حيّ بن يقظان" للفيلسوف العربي ابن طفيل، إلخ...

ولا بدّ لي في هذا المقام من الاعتذار إلى القارئ الكريم لأنّني أمطرته بوابل من الحقائق التي كان لا مفرّ من إيرادها، لأفسح أمامَه مجالاً كي يجيب بنفسه وفي نفسه عن السؤال: هل الإسلام يخدّر ويثبّط قوّة وإرادة شعب ما؟ وهل يمكننا قبول رأي يرى أن الإسلام الذي كان مصدرَ إلهام وحركة إبداعيّة أقامت مدنًا ودولاً في عهوده السالفة، يأتي اليوم - أو في أي زمان مستقبلي - بنتائج مخالفة كليًا لما كان عليه؟

يجب أن أنبّه إلى أنّ هذا العرض لبعض معطيات الحضارة الإسلامية هو عرض مقتضب وغير كامل. ولم أورد هنا شيئًا من نماذج الفلسفة الإسلامية، وإن حُقّ لها أن تفتخر بعشرات الأسماء اللامعة. إن أشدّ العروض إيجازاً لتاريخ الفلسفة الإسلامية ليتطلب عدّة مجلدات، كما نجد ذلك في كتاب "مفكرو الإسلام" - Les penseurs de l'Islam باللغة الفرنسية، الذي يقع في عشرة مجلدات؛ ولم نعرض أيضًا لذكر فنّ العمارة الإسلامية التي لا يمثل تاج محلّ في الهند وقصر الحمراء في

الأندلس سوى جوهرتين منظومتين في طرفي عقد جواهر العمارة الإسلامية. وسعيًا وراء تحقيق الهدف المحدّد الذي وضعناه في بداية المقال، من بحر الحقائق المرتبطة بظاهرة معروفة باسم "الحضارة الإسلامية" مررنا مرور الكرام على بعض الحقائق المعروضة دونما انتظام وإتقان، وشأننا في ذلك شأن عالم الجيولوجيا الذي يقبض حفنةً من رمل أو حصى ليبني عليها تصورّه عن تركيبة الجبال الشامخة الممتدّة أمامَه.

ويحقّ لبعضنا أن يتساءل: مع وجود كل هذه الحقائق التاريخيّة، كيف أمكن الحفاظ على الأساطير التي تقدّم الإسلام في صورة دين التطرّف والجهل والطغيان؟

إنّ التشبّث بهذه الصورة الكاذبة المغرضة عن الإسلام، التي كُوّنت عنه في القرون الوسطى، كان وما زال إلى اليوم من أولويات مصالح اتّجاهات فكريّة وسياسيّة مختلفة في أوربا؛ وهذه الاتجاهات – مع خلاف دائم ومستميت في جميع المسائل فيما بينها– متّفقة تمامًا إذا احتاج الأمر إلى النيل من الإسلام والمسلمين. ولكلّ طرف كانت مصالح في ذلك: "العناصر المتقدّمة" لها أهداف، والكنيسة لها أهداف، وللدول الاستعماريّة التي استطاعت أن تقدّم حروبَها ضدّ دول الشرق بسبب النهب والسلب والسرقة والقرصنة في صورة "إرساليات التنوير بين الشعوب الهمجيّة والبربريّة." وساعد ذلك التوجّهَ جهلُ أجيال المسلمين المتعاقبة لحقائق التاريخ الثابتة، إضافة إلى أن حالات مستشرية من الفقر المدقع وقلة النظافة في العالم الإسلامي في عصر الانحطاط جعلت هذه الصورة المزوّرة تترسّخ أكثر.

ويمكن، كذلك، تحقيق النتائج نفسها باستخدام أسلوب مجرّب في تقديم أنصاف الحقّ. وتكمن حقيقة هذا الأسلوب في رصد منتظم ومتقَن لجميع السلبيات الظاهرة وتكرار ذكرها بصورة مستمرّة، وبالسكوت المطبق المتعمّد عن كل المنجزات والمظاهر الإيجابية في تاريخ وحاضر العالم الإسلاميّ.

ولنضرب مثالا على ذلك بـ "مؤامرة السكوت" عن مساهمة الإسلام في ازدهار العلوم. لا يمكن أبداً تصورّ التطوّر التاريخيّ لعلم الرياضيات بدون معرفة مساهمة الإسلام في مجال هذا العلم. ومع ذلك فقد انبرى عدد من "المؤرّخين المَهَرة" لتحقيق هذا الهدف مستحيل البلوغ. ففي عرض تاريخ علم الرياضيات إنّهم يقفزون بكل سهولة

ووقاحة من إقليدس Euclidius (توفي سنة ٢٧٥ قبل الميلاد) إلى بدايات علم الرياضيات في أوربا، متجاهلين بذلك مدّة ألف سنة من تاريخ هذا العلم. ولن يلاحظ القارئ العابر هذه "القفزة القاتلة"، وحتّى لو انتبه إلى الخدعة فإنه لن يعبأ بها لأنّ ذهنه مهيّأ مسبقًا للفراغ التاريخيّ المسمّى بـ" القرون الوسطى". ولا يعرف القارئ بأنّ عصور الظلام في القرون الوسطى لا وجود لها في مناطق شاسعة تمتدّ من الأندلس إلى الهند، بينما في حقيقة الأمر أهملَتْ عهود تطوّر وازدهار علم الرياضيات. اخترع عالم الرياضيات المسلم ابن أحمد رقمَ الـ"صفر" واقترح استخدامه في كتابه الشهير "مفاتيح العلوم"؛ ويمكن للقارئ المطلع فقط أن يدرك أهمّيّة هذا الاكتشاف الذي يُعَدّ ثورة حقيقيّة في علم الرياضيات.

وقد تَرجَم غيرارْد دي كريموني Gerard de Cremone في القرن الثاني عشر للميلاد كتاب محمد بن موسى بن شاكر "حساب الدوائر والمعادلات" إلى اللغة اللاتينية، وظل الكتاب مرجعًا أساسيًّا في الجامعات الغربية حتى القرن السادس عشر. لقد انتقد عمر الخيام Omar Al-Khayyam مبادئ علم الهندسة لدى إقليدس، وتُعتَبَر نظرية المعادلة التكعيبيّة cubic equation التي وضعها أعلى ذروة علم الرياضيات في العصور الوسطى على الإطلاق.

يُعَدّ محمد بن جابر البتاني(القرن العاشر)Albategnius واضعَ علم حساب المثلّثات الحديث trigonometry وأمّا القواعد التي أرساها وقتئذٍ فما زالت معمولاً بها إلى وقتنا الحاضر. إن مصطلحات جيب الزاوية sine، ومنحنى جيب التمام co-sine، وظلّ الزاوية tangent، وظل التمام cotangent، ونظرية ذات الحدّين bino-mial theorem، ونظام ثلاثي التماثل trigonometric system، كانت من وضع المسلمين العرب، وقد وضع أولَ جداول النسب المثلثية trigonometric tables حسن المراكشي سنة ١٢٢٩م. يقول ي. ريسلر: "لم يكن كل ذلك من وضع اليونانيين، بل كان من وضع العرب الذين يُعدّون بحقّ أساتذة الرياضيات في عصر النهضة الغربيّة."

وهذا مجرّد مثال بين أمثلة كثيرة تكاد تكون متطابقة عن كافة العلوم. ولنا حقّ في الحفاظ على ماضينا، ويجب أن نشقّ الطريق إليه، لكي نعلم علم اليقين من نحن،

ومن أين ننحدر وإلى أين يتعيّن المسير. ونرى رأي العين من هذا المنظور التاريخيّ كم كانت طويلة عهود التاريخ التي شارك المسلمون فيها مشاركة فعّالة في تاريخ البشرية السياسيّ والحضاري، وكم يتقاصر أمامها عصر تخلفنا!

إنّ أعمق نقطة الانحطاط التي تردّى فيها العالم الإسلامي -أعني بها اللحظة المأساوية في خريف سنة ١٩١٨م - عندما لم تكن دولة إسلاميّة واحدة مستقلّةً، قد ولّت في ماض سحيق؛ ونأمل أن تكون قد اصطحبت معها ذلك الاعتقاد بأن كلمات "الذل والاحتقار والفقر والبؤس و الجهل" تلازم كلمة "الإسلام والمسلمون".

إنّنا لنرى الآن في كافة أنحاء العالم الإسلاميّ علامات الصحوة وانبعاث الإرادة الجديدة. هناك شيء قد تحرك، وهذا الشيء الذي تحرك لا يمكن لأحد أن يوقفه أبداً!!! وكل ذلك لا يمكن اعتباره نهضة حقيقية، ولكنه وعد مؤكد بقدوم تلك النهضة.

إن السؤال المطروح في مفتتح مقالنا هذا "هل الإسلام سبب تخلّف الشعوب الإسلامية؟" قد أصبح - على ما يبدو - سؤالا مقلوبًا: أليس غياب الإسلام عن الفرد والمجتمع سببًا مباشراً للتخلّف الذي نتحدّث عنه؟

وهذا السؤال يقودنا إلى أن نسلط الضوءَ على الشرط الثاني الذي أشرنا إليه في أول هذا المقال: هل يتبع المسلمون الإسلامَ فعلاً؟

إن الإسلام يطالبنا بالشجاعة ومدافعة الظلم. ومن الآية التاسعة والثلاثين من سورة الشورى «والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون» نستنتج أن من يستسلم أمام الظلم لا يتّبع الإسلامَ اتّباعًا سليمًا، لأنّ هذا هو الذي يدعو إليه القرآن وتؤكده آلاف الأمثلة عبر التاريخ الإسلاميّ. ورغم ذلك كله، فإنّ المجتمعات الإسلامية مليئة بالأذلاّء والجبناء، والمتزلّفين إلى الحكام. إنّ آلاف سكان بغداد توجّهت بمنتهى الاستسلام - مثل قطيع الغنم - إلى سلخانات المغول! هل يبقى أمامنا، بعد ذلك، مجال للإقرار بأنهم كانوا من أتباع الإسلام على وجهه الصحيح؟

إن الإسلام يحرّم شربَ الخمر، ولكنّنا لا نكاد نجد دولة إسلامية إلا وتُصنَع الخمر فيها وتُقدّم وتُشرب، مخلّفة بذلك الدمار والكارثة في الأسرة والمجتمع!

وجعل الإسلامُ الأخوة بين المسلمين فرضًا، ولا يزال المسلمون يختلفون ويقتتلون لصالح المستعمر الأجنبيّ. لقد أعطى الإسلامُ المرأةَ مكانة رفيعة من الاحترام وجعل لها قدراً كبيراً من الاستقلال، وجعلها متساوية مع الرجل في الحقوق والواجبات في كثير من نواحي الحياة. ألم يكن النساء يرافقن أزواجهنّ في الغزوات في صدر الإسلام، وشجّعنهم على الإقدام بالتكبير والأشعار، كما وقع في معركة اليرموك سنة ٦٣٤م؟ إن إحدى أقدم جامعات العالم - جامعة القيروان بمدينة فاس في المغرب التي احتفلت عام ١٩٦٠م بمرور ألف ومائة سنة عن تأسيسها - لهي من وقف امرأتين مسلمتين! وعلى نقيض ذلك، فإن وضع المرأة المسلمة في بعض الدول الإسلامية ليعتبَر نموذجًا لاستعباد المرأة وسلب حقوقها. أعلن الإسلام صراحة أن ملكية الأرض تعود إلى المجتمع (أو الشعب)، أي أن لجميع المسلمين حقًا فيها. ولكن الأقلية من الأثرياء والوجهاء سطت على غالبيّة أراضي الدول، تاركة ملايين الفلاحين لا يملكون قيد شبر من الأرض؟

كانت الأحوال في العراق قبل إعلان الإصلاحات الزراعية سنة ١٩٥٨م على هذا النحو: مَلك الإقطاعيون ١٨ مليون فدّان من مجموع ٢٢ مليون فدّان من الأراضي العراقية الصالحة للزراعة، أو ما يعادل ٨٢٪ منها، وكان عددهم ٣,٦١٩ رجلا! بينما كان مليون ونصف مليون فلاح لا يملك شيئًا إطلاقًا! وكانت الأوضاع في غالب دول المسلمين مشابهة لوضع العراق.

يقرّر الإسلام مبدأ «إنما المؤمنون إخوة» ولكننا نعلم علم اليقين أن إقطاعيًا ليس أخًا للفلاّح. لقد قرّر الإسلام وجود حق الفقراء في أموال الأغنياء، ولو طُبق هذا المبدأ لأدى بكل تأكيد إلى إزالة الفوارق الاجتماعية في مجتمعات المسلمين. ولكننا نجد في مدن إسلامية كثيرة مظاهر ثراء مفرط وفقر مدقع!

ويقرّر الإسلام أنه «لا يؤمن من بات شبعانَ وجاره جائع» ولكن الإحصائيات تشير إلى أن نسبة المسلمين الذين يعانون من سوء التغذية تصل في بعض الدول الإسلامية إلى ٢٠٪ من مجموع سكانها، وفي الوقت نفسه ينام "إخوانهم في الدين" على حرير وقطيفة واستبرق، من غير أن يؤرّق نومَهم - على الأقل - وخز الضمير من أجل أحوال إخوانهم - أي جيرانهم!

وَضع الإسلام نظام الخلافة، ولكن الخليفة انقلب إلى "ملك الملوك"! حاولوا أن تتصوَّروا بأي حكم يمكن أن يحاكم أبو بكر وعمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - "ورثتَهم" في الخلافة الذين يلهون في قصورهم بـ "الحرم والخدم" خلف أسوار منيعة، وبدلاً من رفع راية الجهاد يخططون للمداهمات والقرصنة وحروب السلب والنهب. إن الرسالة التي وجّهها عمر بن الخطاب إلى عامله على الكوفة (هـ. غ. ويلز، "تاريخ العالم" ص٣٤٥) - الذي يُشبه إلى حدّ كبير بعضَ حكام الدول الإسلامية - لا يضع أدنى شك حول الحكم الذي يمكن أن يصدره أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما، في حقّ "ورثتهم" في الخلافة.

ولكن أمور الشعوب تنبني على "كما تكونوا يُولّ عليكم". إن طريقة حكم بعض الرؤساء والملوك والأمراء وأعوانهم من الذين عشّش فيهم جميع أنواع الفساد، لتؤكد أن شيئًا ما قد "تعفّن جداً" داخل الشعب نفسه، لأن السعادة حليفة الشجعان، ويكون فقط من نصيب الشعوب الصالحة والطاهرة أن تنعم بالحكام الصالحين.

يذكّرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلّم - أن الحكم العام على نظام القضاء هو: «قاضيان في النار وقاض في الجنّة»؛ وليس هناك شيء يمكنه مقاومة فساد الحكم وتأثيره التدميريّ في الشعب غير الإيمان بالله والإحياء المتواصل للأخلاق الإسلامية السامية، لذلك يجب على الشعب أن يملك وسائل التمييز ليفكّ الأغلالَ ويضرب على يد القاضيين من أهل النار!

لقد أقام الإسلام حربًا على الشرك وقضى عليه بحركة واحدة في مناطق شاسعة من العالم آنذاك، لأنه وضع حداً فاصلا بيّنًا بين الإيمان والخرافة. ولكنّ الخرافة وجدت لها مرتعًا في قلوب وبيوت كثير من المسلمين، ثمّ ظهرت في صورة التمائم والطلاسم وما شابه ذلك، لتمهّد الطريق للتجارة الرابحة بالدين، لأنّه إذا لم يقض الدين على الخرافة قضت الخرافة على الدين. وكان النبيّ محمد - صلىّ الله عليه وسلم - يهتمّ بتعليم المسلمين حتى في أيام الحرب الضروس، إذ يجعل تعليمَ عشرة من المسلمين فدية للأسير من أسره بعد معركة بدر.

إنّ المسلمين الأوائل قد عملوا جاهدين على ترجمة مكتبات كاملة من اللغتين اليونانية واللاتينيّة، دونما خوف من كون هذه الكتب أصولَ الحضارة الوثنيّة، لأنّ قاعدتهم في ذلك هي الحديث « الحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها فهو أولى بها »، بينما ينادي أحد حكام المسلمين في هذا العصر - وباسم الإسلام؟ - بوضع الحد لتعليم شعبه. إنّه يريد خدمة الإسلام بنشر الجهل بين أبنائه؟

لنترك هذه الفكرة الغريبة عن فرض القيود على التعليم، ولنذكر أن غالب الدول الإسلامية لا تنفق على التعليم أكثر من ١٪ من ميزانيتها، ولكن الدولة التي تسعى إلى القضاء على أميّة شعبها في زمن معقول إلى حدّ ما، فإنه لا بدّ لها من زيادة الإنفاق خمسة أضعاف ذلك. (أخذت كلتا المعلومتين من تقرير منظمة "يونسكو" سنة ١٩٦٤م عن الأقاليم التي تسكنها شعوب إسلامية)

يهدف الإسلام إلى إقامة جماعة تضامن من خلال العبادات، مثل الإيمان بالله والصلاة والصوم والزكاة والحجّ، ليكون أفراد الجماعة يتقاسمون الجهاد والفرحة والآلام، ويكون تحقيق الأخوّة بين جميع الناس هدفًا دائمًا يسعون إليه، وإنْ ظهر أحيانًا أنّه بعيدُ المنال. وعلى نقيض ذلك تقول الصورة الواقعية إن أغلب مجتمعات الدول الإسلامية خليط من فقراء الفلاحين وقلّة الأغنياء، والمثقّفين الغرباء الذين أضحوا أجانبَ في أوطانهم! إن الفلاح الجاهل الفقير يحبّ الإسلام -وقد لا يفهمه -، والغنيّ يُظهر ولاءه للإسلام نفاقًا، ويظل المثقف معاديًا له أو غير مبال به.

وقد صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - حين يقول: «إنّ أخوفَ ما أخاف على أمتي عابد جاهل وعالم فاجر».

نعم، هناك بين المسلمين أمور كثيرة تقشعر لها الجلود، وحتى غير المسلمين يدركون ويلاحظون ذلك: "لو قام محمد - صلى الله عليه وسلم - من قبره ورأى كم بدّل أتباعه دينَه، لاحمرّ وجهه غضبًا ولعن كلّ من شارك في تلك البدع". (لوثروب ستودارْدْ Lothrop Stodard في كتابه "حاضر العالم الإسلامي" الذي نُشر غداة الحرب العالمية الثانية).

تشكلت في البرلمان الباكستاني، قبل عدّة سنوات، لجنة خاصة لدراسة التدابير

التي تهدف إلى علاج المجتمع من الأمراض الاجتماعية التي يعاني منها شعب الباكستان، وأوصت اللجنة بمحاربة الخمور وبيوت الدعارة والربا وبعض العادات الجاهلية، لأنّ هذه الأوبئة تفتك بالمجتمع وتعود عليه بأضرار اقتصادية وأخلاقية بالغة. وقد نشرت وسائل الإعلام أن أصحاب بيوت الدعارة نظموا مظاهرات مع مكفولاتهم في مدينة كاراتشي احتجاجًا على توصيات اللجنة، مطالبين بحرية "العمل" في دولة تعلن تطبيق الشريعة الإسلاميّة؟

وهكذا دواليك!

إن صورة واقع الشعوب الإسلامية قد لا تكون شاملة بما ذكرناه هنا، ولكنها قائمة بما فيه الكفاية. ويمكننا سرد هذه المظاهر المحزنة، التي تستصرخ بمن سيهدمها، إلى ما لا نهاية. ومع ذلك فإنّ المسلمين المخلصين يجدون السلوىَ في إدراكهم بأن الوضع القائم ليس نتيجة لتطبيق الإسلام، بل بالعكس، إنه نتيجة لرفضه واستبعاده؛ وليس نتيجة حضوره، بل نتيجة غيابه!

إنّ هذا السلوان مبني على المنطق التالي: إذا كان قد ترتّبت على غياب الإسلام مرحلة التخلّف والفوضى والفساد، فهل عودة الإسلام تعني إشراقَ روح جديدة وبداية عهد مشرق في حياة الشعوب الإسلامية؟

كلما طرحنا هذا السؤال، كلما جرّ وراءه هذا السؤال الثاني عن صلاحيّة الإسلام للزمن المعاصر وقدرته على إلهام وتوجيه حياة الإنسان في ظروف جديدة ومتغيّرة. إننا كثيراً ما نسمع الاعتراض من قبيل: كان الإسلام عامل تطوّر وكان ملائمًا للعصور القديمة التي أصبحت في حكم ماض سحيق، ولكنّنا نعيش عصر الذرّة... إلخ. إن الاعتماد على "عصر الذرّة" بات حُجةً دامغة في الحديث عن موضوعنا هذا.

إن الحديث عن صلاحية الإسلام لعصرنا الحاضر لا يمكن إجراؤه بعمومه، لأنه قبل الحديث عن عدم صلاحيّة الإسلام أو صلاحيته يجب أن نتحدّث أولاً عن الأمور التي يأمر بها أو ينهى عنها. لذلك يمكننا أن نتساءل: هل نهي الإسلام عن شرب الخمر وأمره المسلمَ بالحفاظ على طهارة البدن صالح أو غير صالح لهذا العصر؟ أو: هل

كانت أركان الإسلام خارجة وبعيدة عن التوجّه الحضاريّ الذي يحدّد اتّجاه تطوّر الإنسانيّة؟

وإذا ذُكر غرس الإسلام الأساسيّ في الإنسان، فإنّ الذهن ينصرف تلقائيًا إلى أوامره الخمسة المعروفة باسم "أركان الإسلام". تعالوا بنا نبحث بإيجاز في صلاحيّة أركان الإسلام الخمسة فيما يُسمّىَ بـ "عصر الذرّة".

إن ركن الإسلام الأوّل هو "شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً رسول الله". يمكننا أن نذكّر دعاة "التنوير" الذين يشكّكون في مستقبل الدين في "عصر الذرّة" بأن أعظم رائد نهضة في العصر الحديث، ألبرت أينشتين Albert Einstein، كان يؤمن بالله. وكان يرى أنّ إيمانه بالله لا يتعارض أبداً مع ما توصّل إليه في علم الفيزياء والفلك، رغم كل ما تعنيه هذه العلوم لحياة الإنسان. فلنورد هنا ما يراه في هذه المسألة: "إن أساس كل دين معرفةٌ وشعورٌ بأن ما لا يمكن إدراكه وإحاطته أبداً موجود فعلاً، ويتّصف بأكمل حكمة وجمال، ولكنّ حواسّنا الضعيفة لا تقوىَ على إدراكه إلاّ في أبسط صوره. لذلك أنا متديّن جداً. إنّ قلبي يرتضي بقبول سرّ الحياة الخالدة، وبمعرفة وتخيّل الهندسة البديعة للكون، فأحاول، متذلّلاً، إدراكَ - ولو بجزئه الصغير - ذلك العقل البديع الذي يتجلّى في الطبيعة."

إذن، ليس الدين خاصيّة من خصائص بدايات التاريخ الإنسانيّ، والإلحادُ والإنكار خاصّيّة من خصائص "عصر الذرّة". وكان الدين والإلحاد يتصارعان عبر جميع عصور الإنسانية.

ليست الصلاة عبادة محضة. إنها كانت - ويجب أن تكون من جديد - مدرسة الانضباط والتآخي والتضامن. إنّ الصلاة طهارة وعمل ومشاركة. لقد اطلع قائد جيوش الفرس الوثنية على صفوف المسلمين المتراصّة أثناء أداء الصلاة قبل معركة القادسيّة، فصاح: "هذا جيش عمر في حصة التدريبات العسكرية!"

إنّ الصوم تربية شاقّة تسعى لتحقيق أهداف متنوّعة. إضافة إلى أنّه عبادة، فإنّه يُحيي معانٍ تربويّة وطبّيّة واجتماعيّة كثيرة، لذلك لم تكن المجتمعات

الإسلاميّة ترى في الصوم مجرّد مسألة خاصة بالفرد، بل كانت تثور ثائرتها أمام كلّ مجاهرة بانتهاك حرمة هذه العبادة، لأنها كانت ترى في ذلك هجومًا سافراً على تماسكها الداخليّ الذي يبنيه الصوم. إنّ الصومَ تهيئة نفسيّة لفريضة الزكاة تعاطفًا مع الفقراء، لأن كل المسلمين يعلمون جيّداً معنى الجوع، ولكن كثيراً منهم يعيش ويموت من غير أن يشعر بوطأته.

إنّ الزكاة ليست صدقة، بل هي أشبه بضريبة، أو إلزام بإخراج جزء من المال لصالح المحتاجين. إنّ مؤسّسة الزكاة في الإسلام تتضمّن مقوّمات راسخة ليس لمحاربة الفقر فقط، بل ولتنمية شعور التفاهم والاحترام في المجتمع الذي يعيش أزمة هذه المبادئ.

إنّ الحجّ أكبر تجمّع معروف يشهده العالم. بناءً على معلومات رسميّة عن موسم الحجّ لعام ١٩٦٢م، لقد وقف في صعيد عرفات ١٫١٨٥٫٩٤٨ حاجّ قادمين من ٦٨ دولة. إنّ المسلمين لا يستفيدون - أو لا يكادون - من الإمكانات الروحية والسياسيّة لهذا الملتقى الفريد من نوعه، لأن الحج يجب أن يتحوّل إلى أقوى عامل لتقارب وتعارف الشعوب الإسلامية في زمن هذه الفرقة المحزنة. إن الجوّ العامّ في الحجّ هو المساواة. يقف مليون رجل مرتدين ملابس واحدة، يقودهم فكر واحد، مُلْغين بذلك جميع الفوارق بينهم، التي لا يمكن إلغاؤها في أيّ مكان آخر من العالم. هذه هي الصورة التي لا تتكرّر من المساواة والأخوّة، الصورة التي ستظل حداً فاصلا بين الواقع والحُلم.

لقد قال النبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - في خطبته الشهيرة أثناء حجّة الوداع: «أيّها الناس، كلكم من آدم وآدم من تراب. لا فضل لعربي على عجميّ، ولا فضل لأبيض على أسود، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم!»

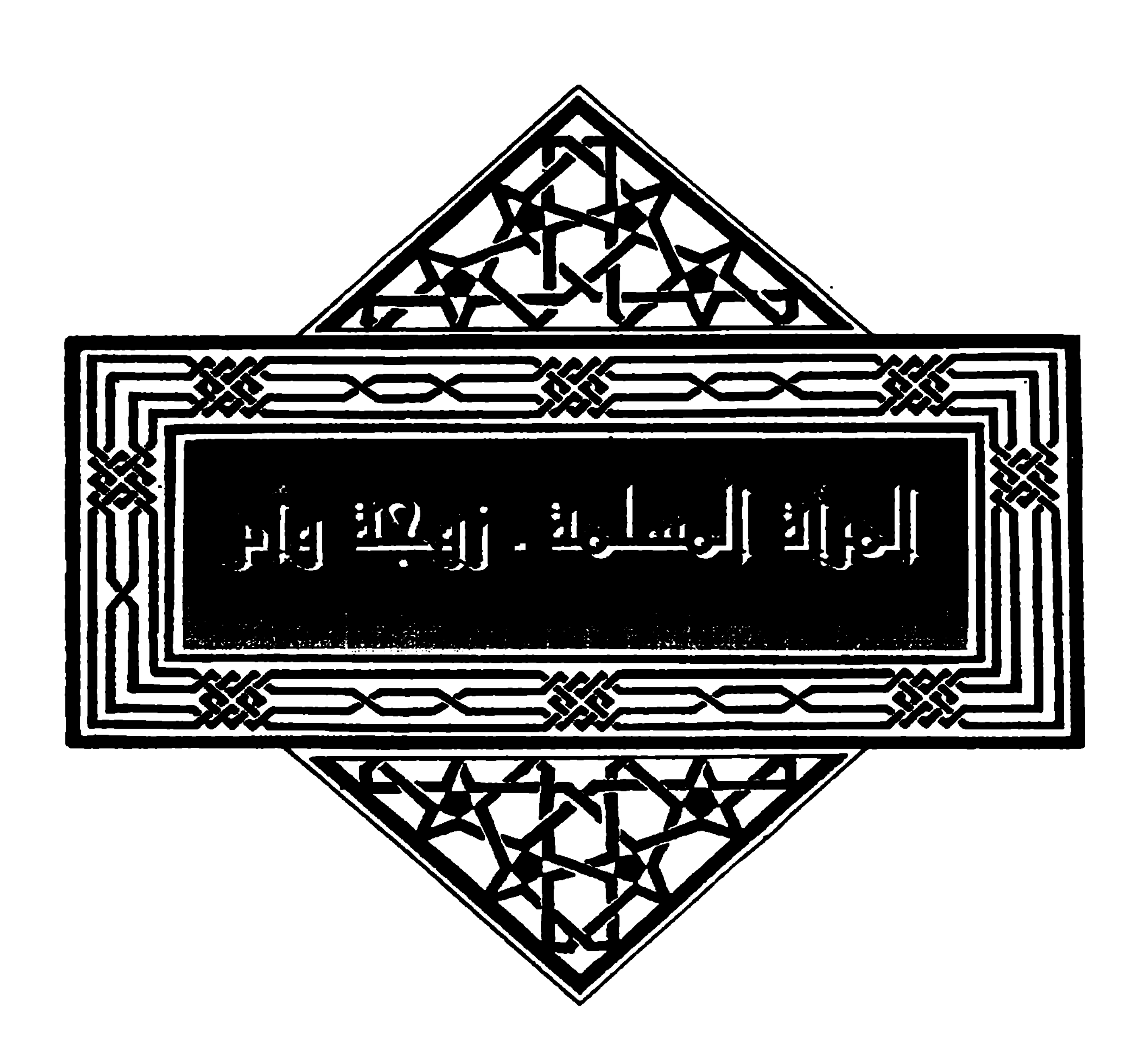
هل هناك أفضل مكان وأحسن لحظة من تلك التي اختارها رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - ليوجّه هذه الكلمات العظيمة إلى أمته، هذه الكلمات التي هي أبسط وأخلص وأروع ميثاق في حقوق ومساواة الإنسان، الكلمات التي ما زالت غاية منشودة في النصف الثاني من القرن العشرين؟

إنّـه لا يمكن مجرّد تصوّر عصر قادم يعتقد فيه المسلمون أن هذه الرسالة النبويّة وأمثَالها قد عفا عليها الزمن، لأنّ الشعوب بحاجة إليها اليوم بقدر ما احتاجتها بالأمس.

إنّنا لنشاهد اليوم ظهور حركة وإرادة جديدة في بلاد العالم الإسلامي، لأنّ حالتَنا اليوم هي حالة حركة وبحث، بغضّ النظر عن الحيرة المؤقتة والانحراف والهزائم والعوارض الناجمة عن طول عهد الأزمة والركود، لكن هذه المرحلة تُشبه كلّ شيئ ما عدا النوم والسكون. إنّ هذه الإرادة الجديدة التي سيوجّهها الفكر الإسلاميّ، وستقويّ عودَها الخيراتُ الطبيعيّة التي يزخر بها العالم الإسلامي، قادرةٌ على أن تُبْهر العالم من جديد بالنهضة الإسلامية في الأيام القادمة. إنّ كلّ مسلم مطالَب بأن يكون مشاركًا فعّالاً في هذه النهضة! أ. هـ.

كتبت المقالة في شهر أيلول (سبتمبر) ١٩٦٧م




المرأة المسلمة . زوجة وأم

المرأة المسلمة - زوجة و أمّ ؟

هناك افتراءات كثيرة على الإسلام، ومن ضمن هذه الافتراءات أمور تتعلق بالمرأة المسلمة ومكانتها ومنزلتها في المجتمع الإسلامي. وإذا حاورتم رجلا أوربيًا، فإنه سيعترض على تحجيم وتحديد دور المرأة المسلمة على نطاق البيت، وعلى عدم تحرّرها بما فيه الكفاية (وتحرير المرأة عنده يعني - قبل كل شيء - استقلال المرأة بناءً على حريّة عملها خارج البيت)، وتعدّد الزوجات، وما شابه ذلك. وإنْ كان هذا الأوربي من ذوي التوجّه النصراني، فإنّه سيستنكر نظرةَ الإسلام إلى الحياة الجنسيّة وأحكام الطلاق التي يَعترف بها النظام الإسلامي.

إنّنا في هذا الموقف لا ندافع عن الإسلام بتفنيد هذا الانتقاد، لأن معنى هذا الانتقاد - مثل الانتقادات الأخرى - أنّ النظرة الإسلاميّة إلى جوانب الحياة المهمّة - بكل بساطة - تختلف عن النظرة الأوربيّة. عليكم أنْ توضّحوا لمحدّثكم الأوربي أنّنا لسنا نرضى عن وضع المرأة المسلمة في الأسرة والمجتمع، لا لأنّه ليس مثل وضعها في أوربا، ولكن لأنّه لا يطابق الوضع الذي يمنحها الإسلام إياه!

لا أظنّ أننا نرتكب خطأ أكبر من اعتقادنا بأنّ كل ما نشاهده في العالم الإسلامي يسير وفق طريقة الحياة الإسلاميّة، ومن ثم فإنّه مطابق ومتوافق مع مبادئ القرآن الكريم. وما ذهبنا إليه ينطبق على وضع المرأة المسلمة أكثر من أمور أخرى. وعلى الرغم من أنّ أحكام الشريعة هي هي، فإنّ وضع المرأة المسلمة كان متفاوتًا عبر العصور، كما أنّه مختلف جداً من بلد إلى بلد إسلامي آخر اليوم، ابتداءً من المغرب العربي، عبر الشرق الأوسط وباكستان، وانتهاءً باندونيسيا. نجد أنّ المرأة المسلمة في فلسطين وسوريا، مثلاً، تسعى للحصول على أبسط حقوقها كالخروج إلى المسجد لأداء الفرائض، وفي الوقت نفسه نجد المرأة المسلمة في باكستان تُرَشَّح لمنصب رئيس

الجمهوريّة (فاطمة جناح رُشّحت في انتخابات سنة ١٩٦٥م)، بينما يجاهد آلاف النساء في الجزائر تحت راية الإسلام لتحرير الوطن من الاستعمار الأوربي السياسي والروحي.

. إنّ وضع المرأة المسلمة اليوم يأتي نتيجة تأثير مشترك للشريعة الإسلامية من جهة، والعرف والذوق والمستوى الأخلاقي لتلك البيئة التي تعيش فيها من جهة أخرى.

نجد أنّ تغطية وجه المرأة أمر غير معروف في بعض البلدان، في حين ترقى هذه المسألة في بلدان أخرى إلى مستوى الواجب الديني، ويُدافَع عنها بالأدلة الشرعيّة.

إنّ الاهتمام بفصل صارم بين الرجال والنساء قد ظهر بصورة واسعة في القرن العاشر الميلادي، أي ٢٥٠ سنة من نزول الوحي، ويغلب على الظنّ بأنّه عادة اقتبسها المسلمون من البيزنطيين في عهد الخليفة الوليد الثاني. (انظر فيليب حتّي، تاريخ العرب، ص ٣٠٧).

وعلى أي حال، فإنّ العلاقة بين الرجل والمرأة كانت طبيعيّة وعاديّة جداً في صدر الإسلام بفعل تأثير قويّ ومباشر لمصادر الأحكام الإسلاميّة، لذلك اتّسمت بالسموّ الخلقيّ. يقول فيليب حتّي: "كانت المرأة في أوائل العهد العباسيّ تتمتّع بالقدر نفسه من الحريّة مثل المرأة في العهد الأمويّ... ويمكننا أن نقرأ عن النساء - ليس فقط عن النساء في الطبقات العليا من المجتمع اللواتي برزن في إدارة الدولة - ولكن أيضًا عن فتيات البادية اللاتي شاركن في الحروب وتولّيْن قيادة بعض فرق الجيش، ونظّمن الشعر وجارينَ الرجالَ في فنون الأدب."

إن وضع المرأة بشكل عامّ، ليس في المجتمعات الإسلاميّة فقط، بل وفي العالم عمومًا، يتعلق جزئيًا بالقوانين المنظمة لشؤونها، ولكن التأثير الرئيسيّ يأتي من قبل التراث والمستوى الثقافي والتربويّ، ومستوى المرأة التعليمي. وعلى الرغم من القوانين المتشابهة فإنّنا نجد اختلافًا بيّنًا لوضع المرأة في المجتمع البريطانيّ والأمريكي والإسكنديناڤيّ بسبب ما يُعْرَف بـ "النمط البريطاني" أو "النمط الأمريكي" أو "النمط

الإسكنديناڤي" في الحياة.

إنّ الإسلام واحد، ولكنّ الاختلاف في تطبيق أحكامه سيظلّ قائمًا بناءً على البيئة التي تطبقه، هل هي بيئة متعلّمة أو متخلّفة، هل هو جيل سليم أو جيل استوفى عناصر الانحطاط! لقد تمّ ضبط أحكام الإسلام في مصادره الأصليّة، ولكن الإسلام باعتباره نمط الحياة قد يدخل فيه ما نريد نحن أن يكون عليه، وما تصبو عقولنا وقلوبنا لتحقيقه منقادة لأحكام الإسلام. لذلك وانطلاقًا من مقاصد الأحكام الشرعيّة، يمكننا في المستقبل تحقيق وضع المرأة المسلمة بشكل يستجيب لاحترام إنسانيّتها ويتناسب ومتطلبات النهضة الإسلاميّة.

إنّ ما يميّز الإسلام عن الأديان الأخرى - وخاصّة عن النصرانيّة - هو ما يُعرَف بـغياب "معاداة الجنس". يحدّثنا القرآن الكريم في آيات متفرّقة بصورة مباشرة - قد نُفَجأ بها - عن العلاقة بين الرجل والمرأة، مؤكداً ضرورة النظافة والتدابير الصحّيّة والاعتدال، إلى درجة أننا نخرج أحيانًا بانطباع أن القرآن دليل الإرشادات الطبية للناس، وذلك لأن القرآن لا يسلك طريق النفاق المنمّق، بل يحفل بالحقائق المجرّدة والمبسّطة.

وهذا هو السبب المباشر للهجوم على الاسلام والرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أجل فهم الحياة الجنسية ، وعمد أولئك الى ذكر بعض الآيات أو الأمثلة من حياة النبي الخاصة ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

لا أرى ضرورة لدحض هذه الاتهامات ، بل على عكس ذلك علينا أن نقول بكل صراحة ووضوح : إن الإسلام لا يرفض الحياة الجنسيّة لأنّه يدعو إلى حياة طبيعيّة وسعادة الحبّ بقدر ما يدعو إلى صحة البدن والقوّة والشجاعة والجهاد وكسب المال، لأنّه يعارض الإعراض عن الدنيا كما يعارض الإسراف فيها. يطالبنا الإسلام بجني "الثمار السماويّة" إضافة إلى "الثمار الأرضيّة"، ويسمح للإنسان أن تمتدّ يداه - اللتان رُفعتا إلى الله متذلّلة بالدعاء قبل قليل - نحو مسرات الدنيا. ولا تعلمّنا الآدابُ الإسلاميّة الإلحاحَ في ذكر المحرّمات، لأن الإسلام لا يسعى لإقامة "جدار يحوط

جميع الأنهر التي يمكنها إرواء العطش".

إنّ كل ما يطالبنا به الإسلام هو ألاّ نتعدّى حدود اللـه (كما ترد هذه الجملة في القرآن الكريم مراراً) ، وأن تكون هذه المسرّات طاهرة سليمة، وأنّ نكون بالنسبة للزوجات «محصِنين غيرَ مسافحين» (النساء ٢٤).

لا يطالب الإسلام بالقضاء على الشهوات، بل يطالب بالسيطرة عليها ، لا يسعى لقطع الشهوة الجنسيّة لأنه يضع لها الضوابط والحدود ، وذلك من منطلق إدراكه بأنّ طبيعة الحياة لا تعنى سيطرة الشيطان، بل تعني التقرّب إلى اللـه وروعة صنعه.

لم ينحصر اهتمام الإسلام في أمور العبادات، مثل الصلاة والنحر والتوبة والزهد والصلاح والمحبّة، بل كان لا بدّ من الاهتمام بأمور الدنيا ، مثل البدن والسلطة والجهاد والعدالة والصحة والعلم والمعرفة والجزاء والملك. ولكن الفهم الحقيقي للإسلام يتطلب فهم الأمور المذكورة بطريقة أخرى غير تلك التي يفهمها بها أو يسمع عنها رجال الحضارة الغربية. كما أن الوضوء ليس طهارة محضة أو تنظيفًا ، والزكاة ليست صدقةً - كما يُترجَم في الغرب - كذلك ليس قبول الإسلام بأمور هذه الدنيا نظرةً ماديّة من قبيل ماديّة الغرب، لأنّ أيّ دين يدعو إلى تنظيم الحياة الدنيا لا بدّ أن تكتسب فيه المعاني مثل الجهاد والرخاء والسلطة لونًا من الروح الأخلاقيّة التي هي عبارة عن شيء سامٍ ومطلق في ذلك الدين.

سلك الإسلام طريق تجنّب الصدام مع الحياة وتمكن بذلك من وضع قيود على الاستمتاع بالغريزة الجنسية، وكان هذا الحل وما زال حقيقة الحياة المجرّدة لملايين من المسلمين. إنّ التعدّي لحدود اللـه والفساد الأخلاقي كانا محصورين في قصور عدد من الحكام ورجال من الطبقة العليا في المجتمع، ولكن الاهتمام بأولئك في الأدب والتاريخ أخذ حجمًا أكبر بكثير من نسبتهم المئوية في المجتمع، لذلك قد يخرج القارئ العابر بانطباع خاطئ عن صورة الحياة الأخلاقية في المجتمعات الإسلاميّة. كثيراً ما نقرأ في وقت واحد عن خلوّ المجتمع الإسلامي من هذه الرذائل وعن الفساد المستشري فيه عبر التاريخ الإسلامي، ولا تناقض في ذلك، إذ كانت عامّة وغالبية المسلمين ملتزمة

بأحكام الشريعة، بينما انحصر الفساد في الطبقة التي أشرنا إليها.

إن مطالبة الإنسان بأمور تتنافى مع طبيعته وتخرج عن دائرة طاقته، مثل إتلاف البدن، والإعراض عن الجنس وقطع الشهوة يمكن أن تأتي بنتائج عكسيّة، كانتشار الزنا بالطريقة التي نشاهدها في دول الغرب. يؤكد الفيلسوف كيركيغارد S.Kierkegaard أن موقف النصرانية المعادي للحياة الجنسيّة أنشأ مشكلة الجنس، ويضيفديني دي روزمون في كتابه "أساطير الحب": "إن المشكلة الجنسية تظهر فقط في أوربا في صورتها المعقّدة، لأنّ التعاليم والأخلاق النصرانية هزت أوربا لكون النصرانية في صدام أبديّ مع متطلبات حياة عامّة الناس."

وفي حقيقة الأمر تكوّن المجتمع الأوربّيّ تحت تأثير متزامن لفلسفتين متناقضتين، الفلسفة النصرانية المعادية كليًا للحياة الجنسيّة؛ والفلسفة الماديّة الداعية إلى "التمتّع بكل ما في هذه الحياة التي لن تتكرّر". وبما أن الخيار النصرانيّ ظهر مستحيل البلوغ في واقع الحياة - بغضّ النظر اعترف هؤلاء بذلك أم لا - فإنّ الغلبة كانت من نصيب الفلسفة الثانية. وظل الإسلام أبداً يبحث ويجد طريقَ الوسطيّة في الحياة الجنسيّة، شأنه في بقية أمور الحياة، لأنّ الإسلام كان وبقي فلسفة الممكن في الحياة.

السؤال: هل يقرّر الإسلام مساواة الرجل والمرأة؟

الجواب: نعم و لا.

نعم، إذا تحدّث عن المرأة باعتبارها شخصيّة إنسانيّة ذات قيمةٍ شخصيةٍ مساويةٍ تتحمّل واجبات أخلاقيّة وجماليّة وإنسانيّة.

لا، إذا كان الأمر يتعلّق بالتساوي في الوظائف والدور في الأسرة والمجتمع، كما يُفهم معنى المساواة في أوربّا عادةً.

ويمكن تصوّر قضيّة التفوّق أو الدونيّة فقط بين أشياء من جنس واحد، والمرأة ليست أعلى ولا أدنى لأنها - بكلّ بساطة - مختلفة عن الرجل، لذلك تسقط المقارنة، ومن ثم يسقط تحديد الأعلى أو الأدنى. لا معنى للسؤال: أيّهما أهمّ: قلب أم

رئة؟، لأن كلا من العضوين لا يمكن أن يقوم بوظيفة الآخر، بل إن الاختلاف بينهما يعطي قيمة خاصة لأحدهما بالنسبة للآخر.

ولننتبه هنا إلى الحقيقة التاليّة: إنّ الواجبات التي يفرضها القرآن متساوية تمامًا في حق الرجل والمرأة، ولا فرق بين الرجل والمرأة في أداء الواجب وتحمّل المسؤوليّة عن أداء أركان الإسلام الخمسة: النطق بالشهادتين، الصلاة، الصوم، الزكاة والحجّ. وكذلك الأمر بالنسبة للواجبات الأخلاقيّة التي يطالب بها القرآن الكريم صراحة أو بطريق غير مباشر. إذن، فالمسؤولية متساوية بناءً على أنّ القيمة متساوية، لأنّ كل قانون يجعل القيمة أساسَ المسؤوليّة.

إنّ اختبار الفوارق في مستوى الذكاء عند الرجل والمرأة أظهر أنّ الفوارق تتعلق بكيفيّة الذكاء وليس بمستوى الذكاء. تحقّق المرأة نتائج أفضل في أمور لها علاقة باهتمام وحفظ مباشر، بينما يحقّق الرجل التفوّق في اختبارات لها علاقة بالأرقام والمسائل الميكانيكيّة. إنّ حالات الذكاء المفرط قد سُجلت لدى الرجال أكثر، ولكنّ نسبة التخلف العقليّ لدى الرجال أكبر منها لدى النساء. ذكاء الرجال يتّصف بحرية أكبر ويتّجه نحو العالم الخارجي، وذكاء النساء أقلّ حريّة ويتّجه نحو الحياة والشخصيّة والعواطف، ويرجع سبب ذلك إلى اختلاف دور كل منهما في نشوء واستمرار الحياة على الأرض. إنّ المرأة رمز للخصوبة والولادة وتَعاقب الأجيال، وفي كل هذه الأحداث فائقة الأهميّة لمظاهر الحياة – عند حدّ فاصل بين الغريزة والإدراك – تقوم المرأة بدور مباشر، وأما الرجل فلا يعدو دوره أن يكون أكثر من مشاهد حائر، أو أكثر من ذلك بقليل. فالعلاقة هنا ليست علاقة بين الرجل والمرأة، بل هي علاقة الأمّ بوالد أطفالها، لأنّ الأمور هنا تأخذ الشكل الذي يجب أن تكون عليه كما تفرضه طبيعة الجنسين. إذن، فالعلاقة التي أشرنا إليها هنا تجعل السؤال عن المساواة بين الجنسين بلا معنى، أو تجعله سؤالاً مضحكا على الأقلّ.

وإذا كان في الإسلام سؤال عن قضية المرأة فإنّ الجواب الصحيح عنه هو: الأمّ! وجوابنا الوحيد لأولئك الذين يعارضون رأينا في المسألة بسبب الدعوة إلى تحرير

ومساواة المرأة هو: إنّ الإسلام لا يحطّ من قدر المرأة، ولكنكم أنتم تحطون من قدر الأمّ!

إنّ غريزة الأمومة، باعتبارها وظيفة سامية وأساسيّة في حياة المرأة، تفرضها قوانين الفطرة قبل أيّ قانون من وضع بشري، ومن ثم هو مطلب الإسلام، لأنّ الإسلام امتداد للفطرة على أعلى مستوى تطوّر الحياة.

إذن، فوظيفة الأمّ ليست دنيئة، بل على عكس من ذلك، إنها وظيفة شريفة مقدّسة، ولكن الرجال جعلوها دنيئة. ويمكننا الوقوف على أمثلة التناقض في معاملة المرأة، فبينما تجد امرأة تقوم بخدمة في خمّارة أو تربية الأرانب أجرة المعاش مقابل عملها، ليس لامرأة أنجبت وربّت ثلاثة أو أربعة أطفال حقّ في ذلك؟

كان نبلاء روما ينحنون لامرأة حامل أثناء مرورهم بها، معربين بذلك عن احترامهم لامرأة ستصبح أمّا، ونحن نرى أنّ إحصائيات القرن العشرين تُصنّف المرأة ضمن "عنصر غير عامل"، أي أدرجت المرأة مع العناصر الأخرى "غير المنتجة"! تُقام المدارس للخياطة والعناية بالأزهار والباليه وعارضات الأزياء، ولم نسمع بمدرسة واحدة تقام للأمومة. إن العقلية المعاصرة بلغت مبلغاً لو نحن أدخلنا مادة "الأمومة" في المناهج الدراسيّة للبنات، لوُصِفَ ذلك بهجوم سافر على قوانين المساواة بين الجنسين في المناهج الدراسيّة! يمكننا القول، بلا أدنى تحفّظ، بأنّ وظيفة الأمومة في العصر الحديث غير معترف بها، لأنّها "أمر شخصيّ لأطراف الاهتمام المباشر بذلك." وهذا ذنب وضلال بيّنان. كلنا يشاهد ويدرك ذلك، ولكنّ الأمر يستمرّ كأنّ أحداً لم يَرَ شيئاً أصلاً، لذلك يحق لنا أن نتساءل: ما سبب هذه الحالة؟

إنّ الجواب، هذه المرّة، يكمن في اقتصاديات المجتمع المعاصر، فالتطوّر الصناعي، الذي ظلّ ينتشر في أنحاء العالم مثل الفيضانات على مدى القرنين الماضيين، بحاجة متزايدة إلى أيدٍ عاملة رخيصة، ولم تجد المصانع أرخص أيدٍ عاملة من جيوش النساء اللاتي يمثّلن نصفَ الجنس البشري اليوم. إن نسبة النساء، من بين جميع العاملين، تبلغ في الولايات الأمريكيّة المتحدة ٣٢٪ (٢٢.٥ مليون)، وفي ألمانيا الغربية ٣٧٪، وفي اليابان ٤٠٪، وفي الاتحاد السوفييتي ٤٥٪؟

إذن، لم يكن الأمر يتعلّق بالمساواة، بل بالمصلحة وروح وفلسفة الحضارة الصناعيّة.

ظلّ الغرب يفهَم المرأة هكذا: ليس عليكِ أن تنجبي وتربي الأطفال، بل عليكِ أن تكوني طبيبةً أو صحافيّةً أو مديرة الأعمال أو عضواً في مجلس كذا وكذا! ولكنّ نسبة الطبيبات والفنّانات والصحافيات لا تتعدّى ٢٪ من مجموع النساء العاملات في أمريكا (٢٢.٥ مليون امرأة عاملة)، وألمانيا (١٥ مليونا)، وروسيا (٣٠ مليونا)؛ بينما الغالبية العظمى من النساء (أكثر من ٩٥٪) يعملن في المزارع والمصانع، ويكرّرن أعمالاً واحدة لمدّة ٧-٨ ساعات يوميًا؛ أو يؤدّين بشكل يوميّ في إدارات بعض الدوائر والشركات أعمالاً لامعنى لها. وأمّا المرأة في بيتها فهي، بالإضافة لكونها أمًّا، زوجة وطبيبة ومربّية واقتصاديّة ميزانيّة البيت وطبّاخة وخيّاطة ومصمّمة الأزياء ومستنبتة أزهار. لذلك يسمّيها بعضهم بـ "مهندس شؤون البيت."

وسيظل غيرَ واضح كيف استطاع أولئك الذين دَعوا إلى تحرير المرأة بأيّ ثمن الحفاظَ على تلك الأكذوبة الكبرى بأنّ عمل المرأة في المصانع أكثر إبداعًا وأقلّ مللاً من عملها في البيت! لذلك كان يصدّق بعضهم بأنّ تربية أطفال أناسٍ آخرين مجالُ إبداع المرأة (مثل عمل المدرسات والمربّيات)، بينما تربيتها لأطفالها هي عمل دنيء وهامشيّ ضمن أعمال البيت المملّة وغير المناسبة.

وهكذا كان نصيب المرأة في الحياة السياسية أيضًا. يجلس اليوم في الكونغرس الأمريكي ١٧ امرأة فقط، وفي الانتخابات البريطانية سنة ١٩٦٤م كانت هناك أربع نساء بين جميع المرشّحين في حزب المحافظين، و٥٪ في حزب العمال؛ وفي الانتخابات سنة ١٩٦٦م كانت ٨٠ امرأة من بين مجموع ١.٧٠٧ مرشّحين، أي أقلّ من ٥٪.

إنّ وضع المرأة في مجال الصناعة والدوائر الخاصة والحكومية أبرز مثال على عدم المساواة، ويمثّل معدّل أجور النساء ٥٩٪ في بريطانيا، و٦٣٪ في ألمانيا الغربية، و٤٣٪ في اليابان من معدّل أجور الرجال.

وتقول إحدى النساء العاملات: "أستيقظ الساعة السادسة صباحًا، وأوقظ أطفالي

وأطعمهم ثم أجهّزهم جميعًا وأوصّلهم إلى روضة الأطفال وأذهب إلى المكتب. أغادر المكتب الساعة الثانية ظهراً وأذهب مسرعة لأخذ الأطفال من الروضة، وأحضّر الغداء، ثمّ أغسّل الأواني وأغيّر ملابس الأطفال وأغسلها، ثمّ أعيد العملية في وقت العشاء. لم أزُرْ دار السينما منذ سنة كاملة، وأمنيتي الوحيدة هي أن أشبع من النوم. أما حياتي الخاصة فأشعر بأنّني غير موجودة أصلاً."

فقط إذا اعتبرنا المرأة أمّا تبقى لها قيمتها المطلقة التي لا بديل عنها. إنّ كل من يهدم للمرأة دورَ الأمّ لا يمكن أن يرفع من قدرها ويزيد من احترامها وأهمّيّتها، لا لأنّ حقّ الأمومة لا نزاع حوله، بل لأنّ حقّ الأمومة أقدم حقّ عرفته البشريّة في تاريخها.

إنّ تفوّق المرأة المطلق في أداء هذه الوظيفة التي لاتقارَن بوظيفة أخرى قد يقلّل قدرة المرأة على القيام بوظائف أخرى لا تتّصف بأهمّيّة كبيرة، لأنّ وظيفة الأمّ التي تحتاج إلى قلب كبير وغريزة وحبّ أعمى وإصرار قد يتحدّىَ الموت والعقل، لا بدّ وأن تحدّ من قدرة المرأة على أداء بعض الوظائف، وخاصة تلك التي تتطلب برودةَ المعاملة والحسابات المطوّلة والتعامل مع الجمادات. إن أي عمل بلا روح يخالف طبيعة المرأة، لذلك لا يمكن أن نطالب المرأة بأداء دور القاضي والشاهد، لأنّ أطفال المرأة والشخص الذي تحبّه لا يمكن أن تدينهم أبداً.

وإذا كان القرآن الكريم يسجّل هذه الحقيقة، فإنّه لا يحطّ من قدر شخصيّة المرأة، ولكنّه يقرّر أشياء كثيراً ما تغيب عنّا.

فإذا طالبنا باحترام الأمّ فلنطالب الأمّ باحترام نفسها أولاً. أليست المرأة التي أنجبت وربّت طفلين أو ثلاثة أو أكثر، قد ترى أحيانًا أن ما قامت به أقلّ قيمة من عمل مهندسة أو طبيبة أو موظفة بدالّة الهاتف. إن نظرة المجتمع بهذه المقاييس تجعل المرأة تعتقد ذلك. أليس من حقّ كلّ أمّ أن تفخر بكونها امرأة، كما تقول تلك المرأة التي يذكرها المحلل النفساني الأمريكي/ تيودور رايك في كتابه "الاختلافات العاطفية

بين الجنسين": "إننا نعترف بسهولـة بتفوّق الرجال في الذكاء وفي مجالات كثيرة، ولكنّنا معشرَ النساء قد أوتينا شيئًا أهمّ من ذلك بكثير، فبدون دورنا ينقرض الجنس البشريّ. إنّ وظيفتنا هي إنجاب الأطفال، ومن ثمّ استمرار وجود الرجال والنساء في الأجيال القادمة."

ويظهر أنّ كلّ طرف في العلاقة المعروفة "المرأة العاملة - العمل - الطفل" يتضرّر بشكل ما، ولكن الضرر الأكبر يصيب الأطفال، لأنّ تربيتهم أوكلت إلى أناس يقومون بذلك بدافع كسب المال وليس بدافع الحب والعاطفة. إن الطفل شخصيّة مهمّة في نظر والديه فقط، وأما بالنسبة للمربّي - الموظف فإنّه في نظره غالبًا شيء مثل الأشياء الأخرى. فوظيفة رياض الأطفال ودور رعاية الأطفال أن "ترعى وتحافظ عليهم"، وليس أن تُنْشئهم وتربّيهم، مهملةً بذلك الجانب العاطفي لدى الأطفال كليًا. أذكر جيّداً أن الكاتب الكبير روسو J.J.Rousseau قد كتب: "لكي يتمكن أحد من تربية الإنسان فعلا، يجب أن يكون والداً أو شيئًا أكبر من إنسان. وأنتم توكلون هذا الواجب بكل راحة الضمير إلى أناس مستأجَرين!" ويضيف: "هل تريدون إعادة الجميع إلى وظائفهم الأصليّة؟ إذن ابدأوا بالأمّهات. ستفاجئكم التغيّرات التي سوف تحدثونها. إن كل شرّ يولَد من هذا الانحراف الأول!" (كتاب "إميل")

ليس هناك مجتمع أو مؤسّساته المجهّزة بأحدث الأجهزة يمكنهم تعويض هذا المخلوق الصغير عن الدفء الذي يشعر به بجانب الأم والأسرة. وأبرز دليل تجريبي على ذلك هي "مزارع الأطفال" التي أقيمت بناءً على مخطط هتلر لتربية نخبة الشعب الألمانيّ. كانت عناصر الرجال الشقر النورديين تتزاوج مع النساء اللاتي اخْترْن بعناية، ثمّ يتمّ تسليم الأطفال للدولة كي تتولّى تربيتَهم. لم يكن هؤلاء الأطفال يتعرّفون على والديهم لأن الافتراق بينهما كان يتمّ فور الإنجاب. يقول د. تيودور هيلبيغ، أستاذ جامعة ميونخ، الذي فحص عدداً من هؤلاء الأطفال بعد انتهاء الحرب العامّة الثانية مباشرة: "كانت وجوه الأطفال جميلة وكانوا شقرَ الشعور وزرق العيون، ولكن إذا اقترب الإنسان منهم كان يرى بكل وضوح أن نظراتهم الفارغة نظرات البُلْه، وكلهم كانوا متخلّفين عقليًا وجسديًا."

وبناءً على الإحصائيات غير الرسميّة وُلد في ألمانيا وقتئذٍ ١١٠٠٠ طفل بهذه الطريقة.

وقد توصّل العالم النفسيّ الأمريكي/ ريني شبيس إلى نتائج متشابهة حول تأثير الأسرة والرعاية الأبوية في تربية الأطفال. فقد درس وقارن أطفال السجناء المولودين في السجون وأطفال الأثرياء المولودين في قصور الرفاهية والترف. وكانت نتيجة دراسته المقارنة أنّ أطفال الأثرياء الذين نشأوا على أيدي الخدم والمربين المستأجَرين – في ظروف انشغال أبويهم الدائم عنهم – لم يتفوّقوا في شيء على أطفال السجناء بفضل بقائهم إلى جانب أمهاتهم في السجن.

إن غالب مشكلات الشباب المعاصرة تعود بجذورها إلى عدم وجود حل ملائم لوضع المرأة وعدم تقدير دور الأمّ والأسرة في بناء المجتمع. فهل يمكن للمرأة أنْ توفّق بين وظيفة الأمّ وعملها خارج البيت؟

فلنضع المشكلات العاطفية جانبًا، لننظر في الجانب العملي المحض لهذه القضيّة. إنّ الأطباء وعلماء الاجتماع متفقون في مطالبتهم بعدم فصل الأمّ عن طفلها إلى حين إتمامه السنة الثالثة، لأنّ وجودها إلى جانبه ضروريّ في هذه المرحلة ولا يمكنها نقل واجباتها إلى شخص آخر. لذلك نرى تمديد إجازة الولادة للنساء بشكل ملموس بعد انتهاء الحرب العامّة الثانية. ويبدو أن هذه الإجازة اليوم أطول في المجر (سنتان ونصف سنة) وفي أمريكا (سنتان). ويعود قِصَر هذه الإجازة، التي ليست كافية بحال من الأحوال، إلى الضعف الاقتصادي للدول. إنّ الحل الوحيد الصحيح للمشكلة يكمن في إعطاء إجازة الولادة للنساء مدّةً ثلاث سنوات.

إن ثلاثة أطفال أقلّ ما يجب أن تنجب المرأة لتوفير الحدّ الأدنى المعروف لدى العلماء بـ "التجديد الحيويّ البسيط للمجتمع"، ولكن الحدّ الأعلى في الدول المتقدّمة اليوم تعتَبَر الأسرة من أربعة أطفال.

ويقول الأطباء إنّ أنسب وقت للإنجاب هو ما بين ٢٠ إلى ٣٠ من عمر المرأة.

واستناداً إلى المعلومات الثلاث المذكورة نستنتج أنّه بعد مرحلة النضج (في سنّ العشرين) تأتي مرحلة الأمومة التي تتطلب إلغاء أيّ عمل للمرأة خارج البيت، لتمتدّ هذه المرحلة عشر سنوات تقريبًا. فهل على المرأة التي بلغت الثلاثين من عمرها وأنجبت ثلاثة أطفال أنّ تبدأ بمزاولة العمل خارج البيت؟ إنّ واقع الحياة سيقدّم أصحّ وأوضح إجابة في أغلب الحالات.

قد يأتي هنا اعتراض بأنّ اقتصاد أكثر دول العالم اليوم لا يمكن تَصورُه بدون ملايين النساء العاملات اللاتي يؤدين أعمالهنّ بكل نجاح مثل الرجال، وخاصّة في وظائف تتفوّق فيها النساء على الرجال؟ وكيف سيكون حال الاقتصاد الأمريكي إذا غاب ذات صباح ثلث العمال عن أعمالهم ليبقوا في بيوتهم بصورة دائمة؟ ألم يكن لعمل النساء دور كبير في تطوّر مفاجئ للدول المتقدّمة وتحقيق الرفاهيّة؟

إنّ محاولة تقديم إجابة مستفيضة عن هذا السؤال الصعب تخرج عن هدف ومضمون هذه المقالة. وبدلا من ذلك سنكتفي بالتذكير بأنّ الدول المتقدّمة التي توظف أعلى نسبة نساء في العالم هي الدول التي تبذّر بلا حدود. وقد سُمّيت حضارتنا المعاصرة بـ "الحضارة الاستهلاكيّة."

إنّ خبراء الاقتصاد في أمريكا، مثلاً، ينبّهون الشعب باستمرار إلى ظاهرة استهلاك مفرط في الخيرات التي بلغت مدىً خطيراً وتهدّد بانهيار الاقتصاد! بلغ إنفاق الدول المتقدّمة على موادّ التجميل أكثر من ١٥ مليار دولار. وبناءً على تقارير مجلّة "نيوز ويك" الأمريكية بلغت الكماليات خُمسي الإنتاج الإجمالي في أمريكا، بينما تنفق الشركات ١٤ مليار دولار للدعاية لمنتجاتها. ويقول أحد خبراء اقتصاد الدعاية إن ٨٠ منتَجًا من بين ١٠٠ منتج يطرح للدعاية تَطويها صفحات النسيان سريعًا لكونها لا فائدة فيها. تُنفق دول العالم اليومَ ٢٠٠ مليار دولار على التسلّح فقط. ولا شكّ أنّ مجموع المبالغ المذكورة يفوق كثيراً قيمة عمل النساء وإسهامهنّ في اقتصاد دول العالم.

وما من شكّ في أننا سوف نعقد صفقةً رابحة إن نحن قلّلْنا الإنفاق على أمور

لاتعود على المجتمع بفائدة كبيرة، وكسبنا مقابل ذلك جيلاً سليمًا صحيحًا. إنّ الثروة الوطنيّة الحقيقيّة سوف تزداد بذلك كثيراً.

وقد ظهرت فعلاً بوادر التوفير والادّخار والتعقّل في الهيكل الإنتاجيّ لبعض الدول، وهذا يفتح باب الأمل في إيجاد الحلّ. ولكننا نقف الآن على عتبة عهد جديد يتّصف بآلية التصنيع، وستكون نتيجته الاستغناء عن آلاف مؤلفة من العمال، أو سيؤدّي إلى تقليل ساعات العمل بشكل يصعب مجرّد تصوّره من واقع الاقتصاد والصناعة في العالم اليوم.

إنّ كلّ ما ذكرناه لا ينبغي فهمه أبداً كدعوة إلى عزل المرأة عن الحياة العامّة ومجال الاقتصاد الوطنيّ. ليس في مصادر الإسلام حكم يمنع بصورة مباشرة عمل ونشاط المرأة خارج بيتها. إنّ الأحكام الشرعيّة المنظمة لاستقلال ملكيّة المرأة في حالة الزواج، وحريّة تصرّفها فيما ورثته أو كسبته، يمكن اعتمادها في تحديد حقّ المرأة في العمل. أضف إلى ذلك دلائل قاطعة من عصور الإسلام المختلفة التي شاركت فيها المرأة في الجهاد والحياة الأدبيّة، والمرأة التي ردّت على عمر – رضي الله عنه – على محاولته لتحديد المهر.

ويكون عمل المرأة ضروريًا ومناسبًا في الحالات التالية:

– إذا كانت بلا زوج وهي تعول أطفالها أو والديها أو أحد والديها؛

– إذا لم تُرزَق الأطفال أو ربّتهم فكبروا وأصبحوا مستقلّين، فلا ضير من انشغالها بعمل نافع خارج البيت؛

– إذا كانت تلك الأعمال تناسبها وتناسب طبيعتها؛

– في حالات الحرب أو حالات استثنائيّة (لا يمكن أن نتصوّر الحياة في بريطانيا سنة ١٩٤٠م لو لم تقم ثلاثة ملايين امرأة بأداء أعمال أزواجهنّ عندما ذهبوا إلى جبهات القتال).

ومهما يكن تصوّر حلّ هذه المشكلة، فإنّ النظرة الإسلاميّة إليها تشترط ألا

تكون وظيفة الأمّ وأطفالها ضحيّةً عملها خارج البيت.

إنّه ينبغي للعالم الإسلاميّ أن يأخذ من الغرب روحَ العمل والتنظيم والانضباط، وأساليب البحوث العلميّة وتطوير التقنية؛ ولكنّ الغرب ليس قدوة فيما يتعلق بالنظرة إلى الحياة وفلسفة الحياة والمبادئ الأخلاقيّة والحياة الأسريّة، لأن نمط الحياة الغربية في أكثر هذه الأمور مثال كيف يجب ألا نعيش حياتَنا!

في عهد النجاح الفائق للعلوم والتقنية الغربية تسيطر على الغرب فلسفة التشاؤم، التي لا ترى للإنسان هدفًا ولا للحياة معنىً. إنّ ظروف الحياة في أوربا تدفع بالعائلة إلى الانهيار، والعائلة الأوربية المنهارة من جانبها تكوّن جواً روحيًا تبدأ الأشياء فيه تفقد أيَّ معنىً وهدف.

فلنورد هنا بعضَ الحقائق والمعلومات المهمّة:

- زادت حالات الطلاق في السويد أربعة أضعاف منذ عام ١٩٢٠م. وتنتهي كل حالة سابعة من الزواج بالطلاق في الدول الإسكندنافية، وفي ٥٠٪ من حالات الطلاق تكون الخيانة الزوجيّة سببًا مباشراً له.

- بلغت نسبة الطلاق ٥٠٪ من مجموع حالات عقد الزواج في كاليفورنيا سنة ١٩٦٠م. وتقول معلومات آخر تعداد السكان في أمريكا إن عدد النساء غير المتزوّجات (فتيات ومطلقات وأرامل) يزيد على واحد وعشرين مليونًا. ويؤكد العالم النفسي د. آيرين دوسلين أنّ انهيار الرجل الأمريكي نتيجة مباشرة لانشغال وعمل المرأة الأمريكيّة، ويقول: "إنّنا نسير نحو مجتمع ستكون تركيبته من نساء مسترجلات ورجال متأنّثين!"

ويوافق أكثر العلماء المعتَبَرين في العالم على أنّ المجتمع المعاصر يمرّ بمرحلة التقارب وذوبان الفوارق بين الجنسين، ليُمْنىَ كلا الجنسين بخسائر فادحة في نهاية المطاف، لأن ذلك يعني توفر عوامل التخلف المطلق.

لقد أجرى العالمان النفسيان الأمريكيان أبْرام كاردناير وكازمت مانلينغر بحوثًا

مستقلة وتوصّلا إلى نتائج شبه متطابقة، تقول إنّ البرودة الجنسيّة لدى النساء والعجز الجنسيّ لدى الرجال في المجتمع المعاصر اليوم أكثر من أيّ وقت في تاريخ البشريّة. ويقول كاردناير: "إنّ تغيير دور الرجل والمرأة سبب رئيسيّ في حدوث هذه الاضطراب الجنسيّ اليوم."

إنّ زيادة تعرية جسد المرأة من سمات ما يُعرَف بـ "نمط الحياة الأمريكيّة" ينجم عنها التقليل التدريجيّ لقوة الرجال الجنسيّة، ويفتح بذلك الباب على مصراعيه أمام جميع أشكال التفسّخ والانحراف الجنسيّ - كما يقول العالم النفسيّ الأمريكيّ تيودور رايك.

في معرض حديثه عن نتائج الاستبيانات التي أجريت بين طالبات المدارس الثانويّة في فرنسا، يقول الأستاذ ب. جازو B.Jazzo : "كانت هناك إجابات متنوّعة عن السؤال المطروح، ولكن أغلب الطالبات قلن إنّ هدفهن الأوّل هو الاستقلال والاستمتاع بالحياة، بينما أقل نسبة منهنّ يرىَ ذلك في تكوين الأسرة." (من بحثه المقدّم للمؤتمر الدولي لعلم النفس في مدينة بون سنة ١٩٦٠م)

إنّ عدداً كبيراً من الدول دخل في دائرة دول الشيخوخة بسبب هبوط مطرد في عدد المواليد، ومازالت هذه النسبة في انخفاض. وكان عام ١٩٥١م عامَ الكارثة في تشيكوسلوفاكيا بسبب هبوط عدد المواليد، ولكنّ هذا العدد انخفض إلى ٥٠٪ من المواليد سنة ١٩٦٦م. وكان الوضع في فرنسا بين الحربين العالمتين مشابهـًا لهذا، ولا يكاد يكون اليوم أحسن من ذلك.

وقد واجه المجلس الإسكنديناڤي - المؤسّسة المرموقة المكوّنة من أعضاء برلمانات الدول الإسكنديناڤيّة الخمس- مشكلة أزمة العائلة، وناقش الاقتراحات المقدّمة لإجراء تعديلات في الأحوال الشخصيّة. وبناءً على الاقتراح الجديد لا تعطي الخيانة الزوجيّة من قبل أحد الزوجين حقّ الطلاق للشريك الآخر، وأغرب ما في الأمر أن هذا الاقتراح الذي يجازي ويشرّع الخيانة الزوجيّة، يقدّم بهدف إنقاذ الأسرة من التفكّك؟

وفي الوقت نفسه يناقش أبرز علماء ومفكري السويد والنرويج فكرة مطلق الحريّة لفسخ عقد الزواج متى ما رغب أحد الزوجين في ذلك، كما يناقشون إنشاءَ بيوت الدعارة لكلا الجنسين، الرجال والنساء (لممارسة اللواط والسحاق)! إنّهم يبحثون عن المخرج بالنزول من درك جهنّم إلى الدرك الأسفل منها ،ولكن هذا الاتّجاه لا مخرجَ منه!

وينعكس هذا التخبّط الروحيّ بصورة واضحة في أعمالٍ مسرحيّةٍ سخيفة ومنافية للعقل لدى الأدباء، مثل بيكيت وجونسكو وآداموف A.Adamov، وكامو A.Camus التي تُصوّر الضياع الأخلاقي والروحيّ لدى الإنسان المعاصر. وفي مسرحيّة "من يخاف فيرجينيا وولف" يصوّر الكاتب المسرحيّ أولبي مأساة الحياة الزوجيّة المعاصرة التي ينطبق عليها اسم "الجحيم الزوجيّ." و تقول سايمون دي بوفوار: "إنّها أصبحت حالة اعتياديّة وكثيرة بحيث لا نكاد نلتفت إليها، ولكنها تمثّل قاع البؤس في مجتمعنا المعاصر."

إنّ كل الحقائق المذكورة هنا، إذا أخِذَتْ بعمومها، تعطينا صورة عامّة عن الحالة الروحيّة للعالم الغربي التي يقول عنها هـ. ماركوسه H.Marcuse إنّها انتصاف ليل العالم.

إنّ الإسلام يمضي قُدمًا نحو نهضته، لذلك لا يمكن أن يكون قدوتَه هذا العالم الهَرِم الضائع، مهمَا كان قويًا وغنيًا.

بقي أن نشير إلى مسألة تعدّد الزوجات في الإسلام. يبدو أنّ جميع غير المسلمين مهتمّون بانتقاد هذه القضيّة، مع أنّ أهمّيّتها في حياة المجتمع الإسلامي قليلة ومرحليّة. إنّ انتقاد الأوربيين لجواز تعدّد الزوجات في الإسلام أبرز دليل على نفاق الأوربيين. نجد بين آلاف حالات الزواج حالة واحدة من تعدّد الزوجات في العالم الإسلاميّ، بينما تشير الاستبيانات في الغرب إلى عكس ذلك تمامًا في الدول الغربية: من بين ألف زوج هناك زوج واحد فقط لم يخن زوجته! إنّ أوربا اكتفت بأحاديّة الزواج نظريًا فقط!

في روايتـه "سبع وعشـرون امـرأة" يتـحدّث الكاتب الأمـريكي/ إروين واليس E.Walace عن ضخامة حالات التعدّد السـرّيّ للزوجات والأزواج، ومادة الكتاب بكاملها مبنية - قائمة - على المعلومات العلميّة الدقيقة التي قدّمتها دراسات هذه الظاهرة في المجتمع الأمريكيّ.

إنّ اللـه- سبحانه وتعالى- خلق ذكراً واحداً مقابل أنثى واحدة وأودع هذه المعادلـة في قوانين الطبيعة، ولا تتغيّر هذه المعادلـة إلاّ في حالات أستثنائيّة خارجيّة، لذلك تبقى أحاديّة الزواج طبيعةً أصليّة فيه. إذن، لماذا أباح القرآن تعدّد الزوجات إذا كانت هذه الحالة الزوجية أدنى درجة من الحياة المشتركة بين زوج وزوجـة واحدة؟

ولعل الجواب الصحيح عن هذا السؤال هو: لأنّ القرآن حرّم الزنا تحريمًا مؤكداً؛ أو لأنّـه كـان لا يمكن أن يرضى بأحاديّـة شكليّـة وكاذبـة للزواج على النمط الأوربّيّ. فالخيار هنا ليس خياراً بين زوجة واحدة وتعدّد الزوجات، بل هو خيار بين حالات تعدّد معدودة مشروعـة في العالم الإسلاميّ وحالات مستشريـة من التعدّد السرّيّ في الغرب. وإذا كان لابدّ من انقراض تعدّد الزوجات في العالم الإسلاميّ، فإنّ ذلك ممكن التحقيق بإصدار قرار واحد، بينما ليست هناك وسيلة للقضاء على تعدّد الزوجات - غير مشروع وغير معترَف بـه أصلاً - في الغرب، لأن هذا السلوك الزوجيّ أصبح جزءاً من المفهوم الكلي للحياة في الغرب ولن يذهب إلا بذهاب المجتمع نفسـه!

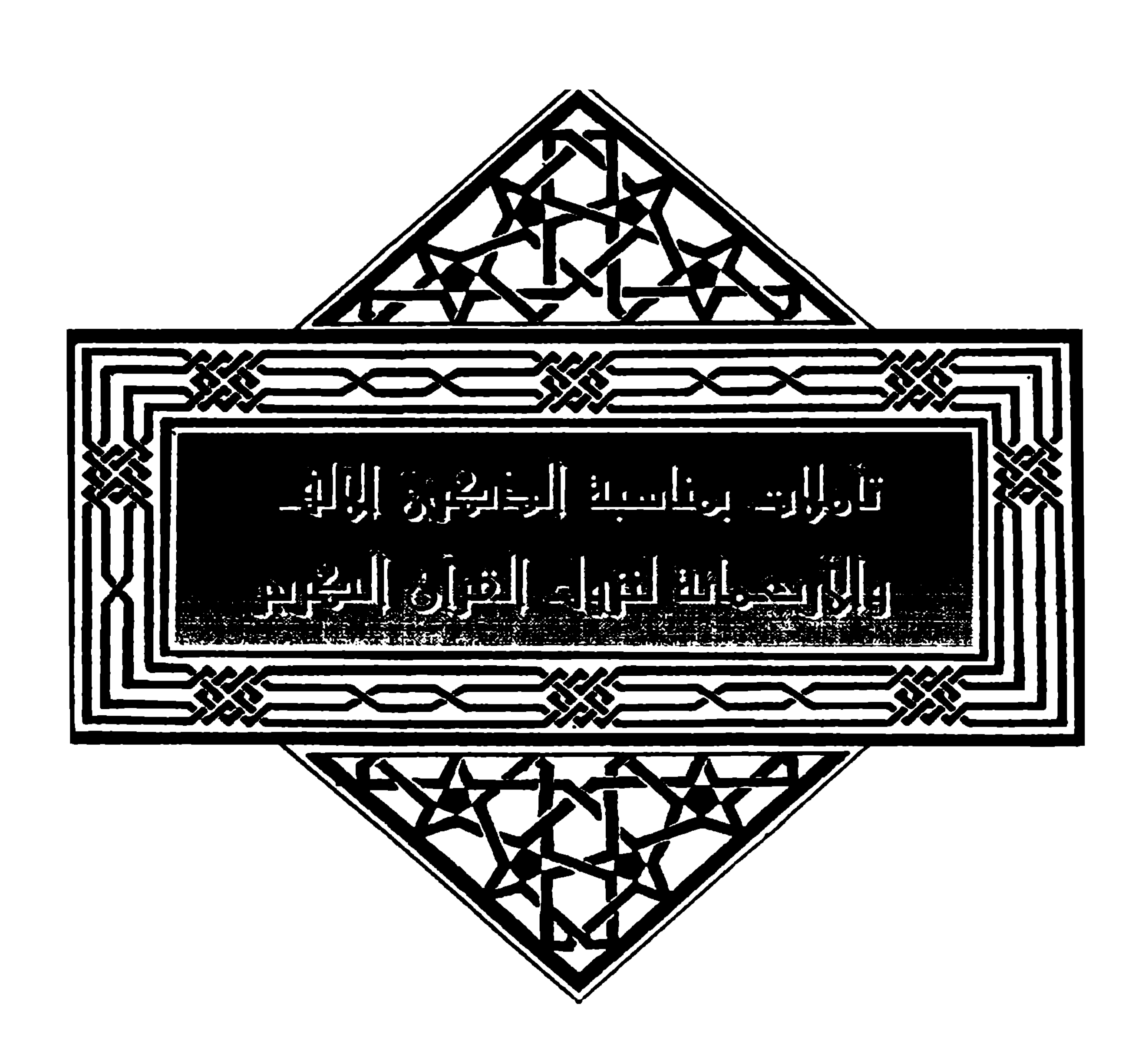
إنّ مشكلة التعدّد، علنية كانت أم سـرّية، مشكلـة معقّـدة، ولكنه من شبه المؤكد بأنّ التـعـدّد سيظل محدوداً وسوف يقلّ مع زيادة النهضـة والتقدّم في العالم الإسلاميّ. وكان قاسم أمين، من روّاد النهضة الإسلاميّـة على رأس هذا القرن وتلميذ الأستاذين الكبيرين جمال الدين الأفغاني ومحمّد عبده، قد هاجم تعدّد الزوجات، وكأنّه أنبأ بنشوء جيل وفهم جديد في العالم الإسلاميّ بالنسبـة لهذه المسألـة. ونجد اليوم في باكستان ومصر وإيران أنّ من حقّ المحكمـة إعطاءَ الإذن للزوج بزواج الثانيـة بعد رضا وموافقـة الزوجـة الأولى. فما يهملـه الرجال في هذا الجانب سوف تُصلحه المرأة المسلمـة المتعلّـمـة.

وعلى المرأة المسلمة أن تُنجب وتنشئ وتربّي جيلاً جديداً وتُرضعَه بالثقة في الإسلام والمستقبل، ويمكنها أداء هذا الواجب فقط إذا كانت متعلّمة وسامية الأخلاق.

إن المرأة المسلمة ستساهم في النهضة الإسلاميّة بقدر ما تساهم هذه النهضة الإسلاميّة في تربيتها وتعليمها.

كتبت هذه المقالة في شهر أكتوبر سنة ١٩٦٨م




تأملات بمناسبة الذكرى الألف
والأربعمائة لنزول القرآن الكريم

تأملات بمناسبة الذكرى الألف والأربعمائة لنزول القرآن الكريم

مع بداية هذه السنة الهجريّة احتفل المسلمون في أنحاء العالم بالذكرىَ الألف والأربعمئة لنزول القرآن الكريم. أمّا أنا شخصيًا فقد استقبلت هذه الذكرىَ بختم القرآن الكريم بهذه المناسبة بإمعان وتدبّر. لذلك أرغب في نقل بعض الملاحظات (أو الانطباعات) عن هذا اللقاء الإيمانيّ المتجدّد إلى القرّاء الكرام، لنتذكر معًا بعضَ المواقف والأسس الفكرية في القرآن التي ملكت عقلي وظهرت لي في غاية الأهمّيّة.

إنّ أحد أكثر الأقوال تردادًا في تحديد مفهوم الإسلام هو "أنّ الإسلام ليس عبادةً فقط، بل هو أكثر من ذلك؛ إنّه دين، أي طريقة شاملة للحياة، وسلوكٌ ينظم شؤون الفرد والمجتمع." وستجدون هذه العبارة السليمة في أساسها في كتب متنوّعة معروضةً ومحتجًا لها بأفكار مختلفة، بحسبِ ما يراها من يتناولها شرحًا وإيضاحًا، وتبعًا لعمقِ تصوّره وقوّة الحجج التي يسوقها ومدىَ أهمّيّتها عنده. ويهمنا من هذا التعريف تأكيد أنّ الإسلامَ ليس مقصورًا علىَ العبادة فقط، بل هو نهج شامل للحياة الإنسانيّة، إلخ ... وقد اكتسب هذا التعريف في العقود الأخيرة التي بدأت فيها الصحوة الإسلاميّة تتنامىَ أهمّيّةً أكثر من كونه حقيقةً علميّة مقرّرةً: اكتسب معنىً جهاديًا، وأضحىَ مطلبًا في سبيل بحث المسلمين عن حلّ مشكلات حياتهم الروحيّة والفرديّة والاجتماعيّة والسياسيّة في نبع الإسلام دون غيره من المذاهب والتيارات الفكريّة الدخيلة على المسلمين.

وعند التأمّل في هذا الأمر المهمّ حول شموليّة الإسلام كنتُ أتساءل: بأيّ شيء أصبح الإسلام - أو بالأحرىَ القرآن، باعتباره مصدر الإسلام الأوّل والأساسيّ - عالميًّا؟ وبأيّ أسلوب استطاع الإسلام أن يأتي، ليس بالعبادة فحسب، بل وبالأخلاق والقانون والسياسة والنظافة والعلم؟

وبحثـًا عن الإجابـة عـن هذا السـؤال كنت أتوقـّف أثنـاء قـراءة القـرآن الكريم في شبابي عند حقائق القرآن الاجتماعيّـة والسياسيّـة والعلميّـة - أي عند الحقائق التي ليس لها ارتباط مباشر بالدين بمفهومه التعبّدي. إنّ إيماني الراسخ بالعثور على الحقائق العلميّـة والأسس الواضحـة للنظام السياسيّ والاجتماعيّ - وحتّىَ الاقتصاديّ - جعلني أستشفّ في القرآن الكريم أموراً لم يشر إليها، على الأقلّ بصورة مباشرة.

وفيمـا بعد، كلّـما مرّت السنون وتقدّم بي العمـر، صححت الحياة بعض مواقفي، فبدأتُ أدرك أنّ الحقائق الدينيّة والأخلاقيّـة هي، في حقيقة الأمر، الحقائق الوحيدة الصحيحـة عن الحياة ومصير الإنسان. وكنت قد فكرت إن أصبحنا نجد لقمةَ عيش وعملاً في يوم من الأيام - وليس من الضروريّ أن يكون ذلك اليوم بعيداً، وقد نحصل على مال وفير مقابل عمل قليل - ورغم ذلك كلّـه قد تتحوّل حياتنا إلى الشقاء وعدم القناعـة. سنعيش من أجل أنفسنا وفي دوّامـة مشاكلنا الخاصّـة لأنّنـا نسينا وضربنا عـرضَ الحائط بالحقيقـة الدينيّـة عن التضامن وحياة الجماعـة مع الناس ولسعادة الناس؛ عندئذ سنكوّن، شئنا أم أبينـا، عـالمًا من التخـاذل وعـدم المبـالاة بالآخرين، لنعيش وحدنا ونموت وحيدين. ستحل في ذلك العالم الكآبـة والسآمة محلّ السعادة، واللعنـة محلّ العبادة والتأمّـل لعدم وجود معنىً وهدف للحياة والموت. وسيؤكّـد لنا مؤسسو جميع الأديان وعلماء الأخلاق عبر تاريخ البشريّـة أنّ التقدم الماديّ والرفاهيـة لايعنيان تحقيق وبلوغَ السعادة الحقيقيّـة. ولكن أيامنا هذه كشفت أنّ الرفاهيـة، حتىَ ولوكانت عامّـة وواسعـة الانتشار، لاتقدر على تحقيق سعادة الإنسان المنشودة. وما قلناه حقيقـةٌ حدثت ووقعت في عصرنا في مجتمعات الرفاهـة في دول غرب أوربا وأمريكا. إذاً، ليس الفرق الحقيقيّ بين مجتمع وأخر في النظام القائم فيـه، بل في الرجال الذين يكوّنونه؛ مثلما أنّ الفرق بين إنسان وآخر ليس فيما يرى كل منهما في نفسـه، بل فيما هو عليـه فعلاً. وحقيقتهما، إذاً، مايتحلّى به كل منهما من الأخلاق، وما يتمتّع به من قدر -أكبر أو أقلّ- من الإنسانيّـة، وما تتميّز به شخصيّـة كل منهما. ليس هناك إجراء سحريّ أو خطـة عبقريّـة تقدر على تحويل عصابة اللصوص والصعاليك المنحطين خُلقيـًا، إلى مجتمع مثاليّ. مثل ذلك المجتمع - بصرف النظر عن

النظام الذي يقوم عليه وما يظنّ في نفسه، سيستغلّ أولَ فرصة أمامه ليظهر خُلقَه الدنيء؛ لذلك تبقىَ مسألة نظام المجتمع الإنسانيّ مسألةَ تربية الإنسان قبلَ كلّ شيء.

هذه التأمّلات دارت في خاطري أثناءَ قراءتي للقرآن الكريم بمناسبة هذه الذكرىَ العطرة لنزوله.

إنّ إدراكي بأنّ جميعَ المشكلات القانونيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة التي سيطرت على تفكيري في الشباب وجعلت منّي مؤيداً محتَمَلاً لكل ثورة في العالم، يمكن حلّها بتربية الإنسان فقط، وأنّ تربية الإنسان هي جوهر كل شيء، أو تكاد تكون كذلك- هو الإدراك الذي أثار في نفسي ذلك السرّ: كيف استطاع القرآن الكريم تقديمَ الإجابة عن جميع قضايا الحياة الإنسانيّة؟

واتّضح لي فجأةً أنّ القرآن الكريم لايتضمّن - ولاينبغي أن يتضمّن - حلولاً جاهزةً لجميع المسائل الواقعيّة في حياة الإنسان الاجتماعيّة والسياسيّة، وخاصّةً فيما يتعلق بالحقائق العلميّة عن الطبيعة وظواهرها.

ويتضمّن القرآن الكريم - وينبغي أن يتضمّن - الحقائق الأساسيّة فقط التي توجّه سلوكَ الإنسان وتحدّد مصيرَه في هذا العالم. وهذه الحقائق هي من القضايا الدينيّة والأخلاقيّة، التي تمثّل ثوابتَ الحياة الإنسانيّة - بخلاف القضايا التي تتعلق تعلقاً مباشراً بالتقدّم - ولايمكن لأيّ تقدّم أن يلغيها أو يتجاوزها.

وتلك الحقائق الثابتة تتعلق بالإيمان بوجود ربّ وخالق العالمين، العليم الكريم؛ وبوجود الإنسان الذي خلقَه الله (إن لم يكن هناك إله، لا يمكن أن يوجد إنسان)؛ وقيمة وكرامة الحياة الإنسانيّة بذاتها - الأمر الذي يلغي أيّ تبرير لاستغلال الإنسان - ويجعل أمام كل إنسان مسؤوليّة متساوية عن تصرّفاته وأعماله، بغضّ النظر عن منزلته وعظمة ملكه على هذه الأرض، ومدىَ تصرّفه في قوانين الأرض؛ ووجود الطريقين أمام كل إنسان: طريق الخير وطريق الشرّ، مع حريّة الاختيار الأخلاقيّ واتّخاذ الموقف؛ وعلاقة الإنسان بالإنسان باعتباره من مخلوقات الله وأخاً إنساناً له حقّ مساوٍ لحقوق بقيّة البشر في الحياة والسعادة.

ليس هناك طريقة أو أي تلاعب بالحجج والمنطق في مقدوره وضع علامة استفهام على أهمّيّة وقيمة موقف الدين والأخلاق من هذه القضايا الأساسيّة. ولكن، على النقيض من ذلك، ليس هناك أيّ قدر من العلم والمعلومات والحجج - سواء أخذت منفردةً أو مجتمعةً - يستطيع أن يشهد شهادةً قاطعةً لصالح النظرة الدينيّة إلى العالم، سوى الوحي! وأمام التساؤل بين البقاء شامخًا، مرفوعَ الرأس واتّباع الصراط المستقيم، رغم التهديد والأذى، وبين الاحتفاظ بالرفاهية والجاه والمصالح الخاصة على حساب إلقاء جزء من العِرض والكرامة تحت الأقدام، أمام هذا التساؤل الذي يتكرّر يوميًا في حياتنا في صور مأساويّة، لايمكن لكل علوم الدنيا ومعاهدها مجتمعةً أن تقرّبنا من الإجابة قيد شبر واحد! وعند مواجهة هذه المسائل وما شابهَهَا، أمام مسألة الإيمان أو الكفر، يقف كل إنسان وَحيداً. إنّ الوحيَ وحدَه قادر على أن يكسّر قيود تلك "الوحدة"، لأنّه وحدَه يتضمّن الإجابة؛ لذلك ليس الوحي علمًا ثمينًا فحسب، بل هو العلم الحقيقيّ الذي لابديلَ عنه.

فما إجابة القرآن الكريم إذاً عن هذه القضايا المصيريّة في الوجود الإنسانيّ؟ مَا مَوقفه تجاه هذه الموضوعات الساميّة التي طرحناهَا آنفًا؟ والتعرّف على مبادئ القرآن في هذا الاتّجاه هو غاية هذه المقالة.

إنّ الإيمان بالله وترسيخَ الإدراك بوجود الخالق الغفور العادل أوّل وأهمّ حقيقة في القرآن الكريم. وفي هذا الاتّجاه يقدّم القرآن أسمىَ وأنقىَ وأعلىَ مثال للوحدانيّة:

(ولله المشرقُ والمغرِبُ فأينما تُولّواُ فثمّ وَجْهُ اللهِ) البقرة ١١٥؛

(قلْ إنْ تُخفواُ ما في صُدوركم أو تُبْدوه يَعلمْه اللهُ ويَعلمُ ما في السماواتِ والأرضِ واللهُ على كل شيء قَديرٌ) آل عمران ٢٩؛

(وأنزل عليك الكتابَ والحكمةَ وعلّمَكَ ما لم تَكنْ تَعلمُ وكان فضلُ اللهِ عليك عظيمًا) النساء ١١٣؛

(ولاتَقولواُ ثلاثةٌ، انتهواُ خيراً لكم، إنّمَا اللهُ إلهٌ واحدٌ) النساء ١٧١؛

(وإذا جاءك الذين يؤمنونَ بآياتنَا فقل سلامٌ عليكم، كتبَ ربُّكم علىَ نفسهِ الرحمةَ أنّه مَن عمل منكم سوءًا بجهالةٍ ثمّ تابَ منْ بَعدهِ وأصلحَ فأنّه غفورٌ رَحيمٌ) الأنعام ٥٤؛

(وإذ قال إبراهيمُ لأبيه آزر أتتّخذ أصنامًا آلهةً إنّي أراك وقومَك في ضلال مُبين. وكذلك نُري إبراهيمَ مَلكوتَ السماواتِ والأرض وليكونَ منَ الموقنينَ. فلمّا جَنّ عليه الليلُ رأىَ كوكبًا قال هذا ربّي فلمّا أفَل قال لاأحبّ الآفلينَ. فلمّا رأىَ القمرَ بازغًا قال هذا ربّي فلمّا أفل قال لَئنْ لم يَهْدني ربّي لأكونَنّ منَ القومِ الضالّينَ. فلمّا رأى الشمسَ بازغةً قال هذا ربّي هذا أكبرُ فلمّا أفلَت قال يَاقومِ إنّي بريءٌ ممّا تُشركون.إني وجّهتُ وَجْهِيَ للذي فَطرَ السماواتِ والأرضَ ومَا أنَا منَ المشركِينَ) الأنعام ٧٤ – ٧٩؛

(إنّ اللهَ فالقُ الحَبّ والنَوى، يُخرج الحيّ من الميّت ومُخرجُ الميّتِ من الحيّ ذلكم اللهُ فأنّىَ تُؤفكون... وهو الذي أنزلَ من السماءِ ماءً فأخرَجْنَا بهِ نَباتَ كل شيءٍ فأخرَجْنَا منه خَضِراً نُخْرِجُ منه حَبّا مُتَراكِبًا، ومن النخل من طلْعهَا قِنْوانٌ دانيَةٌ وجنّاتٍ من أعنابٍ والزيتونَ والرمّانَ مُشْتَبِهًا وغيرَ متشابهٍ أنْظروا إلى ثمره إذا أثمرَ ويَنْعِهِ إنّ في ذلك لآيَاتٍ لقومٍ يُؤمنونَ) الأنعام ٩٥ – ٩٩؛

(قل إنّ صَلاتي ونُسُكي ومَحْيَايَ ومَمَاتي للهِ ربّ العالمين) الأنعام ١٦٢؛

(وإذا فعلوا فاحشةً قالوا وَجدنا عَليها آباءَنا واللهُ أمَرنَا بها قل إنّ اللهَ لا يَأمر بالفَحْشاءِ أتقولون علىَ اللهِ مالا تعلمونَ. قل أمَرَ ربّي بالقِسْطِ وأقيموا وُجُوهَكم عند كلّ مسجدٍ وادْعوهُ مُخْلصينَ لهُ الدينَ) الأعراف ٢٩ . ٣٠؛

(إنّ وَليّيَ اللهُ الذي نَزّل الكتابَ وهو يتولىٌ الصالحينَ. والذين تَدْعونَ من دونهِ لايَستَطيعُون نَصرْكم ولاأنْفسَهم يَنْصرُونَ) الأعراف ١٩٦، ١٩٧؛

(واللهُ أخرَجكم من بُطون أمّهاتكم لا تعلمون شيئًا وجَعل لكمُ السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلكم تَشكرونَ. ألم يَرَوا إلى الطير مُسخّراتٍ في جوّ السماءِ ما يُمْسكهنّ إلاّ اللهُ إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يُؤمنونَ) النحل ٧٨ . ٧٩؛

(إنّ اللهَ يَأمرُ بالعدل والإحسانِ وإيتَاءِ ذي القُربَىَ ويَنْهىَ عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكرِ

والبَغْيِ يَعِظكم لعلّكم تَذَكّرونَ. وأوفوا بالعَهْدِ إذا عَاهَدْتمْ ولا تَنقضوا الميكالَ بعدَ تَوكيدها وقد جَعلْتمُ اللهَ عليْهَا كفيلاً إنّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلونَ) النحل ٩٠، ٩١؛

(ولا تشتروا بآياتِ اللهِ ثمنًا قليلاً، إنّما عند اللهِ هو خيرٌ لكم إنْ كنتم تعلمُونَ. ما عندكم ينفد ومَا عند اللهِ باقٍ ولنَجزيَنّ الذين صَبَروا أجرَهم بأحسنِ مَا كانوا يَعْمَلونَ) النحل ٩٥، ٩٦؛

(وَمِنْ آيَاتِه الليلُ والنهَارُ والشمسُ والقَمَر لا تَسْجُدوا للشمسِ والقَمَرِ واسْجُدوا للهِ الذي خَلَقَهنّ) فصّلت ٣٧؛

(ومن آياته أنّك تَرى الأرضَ خَاشعَةً فإذا أنزلْنا عليهَا الماءَ اهتزّتْ ورَبَتْ إنّ الذي أحْيَاهَا لَمُحْيي المَوْتَى إنّه على كلّ شيءٍ قَديرٌ) فصّلت ٣٩؛

(فراغَ إلى آلهتهم فقال ألاَ تأكلونَ. مالكم لا تنطقونَ. فَرَاغَ عليهم ضربًا باليمين. فأقبَلوا إليه يَزِفُّونَ. قال أتَعْبدونَ ما تنْحِتوُنَ. واللهُ خَلقكم وما تعمَلونَ) الصَافّات ٩١ - ٩٦؛

(تبارك الذي بيدهِ المُلكُ وهو علىَ كل شيءٍ قديرٌ. الذي خَلَق الموتَ والحياةَ ليبلوكمْ أيّكمْ أحسَنُ عملاً وهو العزيزُ الغَفورُ) الملك ١، ٢؛

إنّ الدينَ والإيمانَ المبنيان على هذا الوصف الواضح المحدّد للهِ الواحد العزيز الغفور تكسبان الوضوحَ والبساطة ليقتربا من قبول عقل وقلب كلّ إنسان، ومفهومُهما الامتثالُ والرضا بالإرادة الإلهيّة وفعل الأعمال الصالحات:

(إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين مَنْ آمن باللهِ واليوْمِ الآخِرِ وعمل صالحًا فلهمْ أجْرُهم عند ربّهم ولاخوفٌ عليهم ولاهم يَحْزَنونَ) البقرة ٦٢؛

(وإذْ أخذنا ميثاقَ بني إسرائيلَ ألاّ تعبدوا إلاّ اللهَ وبالوالدين إحسانًا وذي القُربَى واليتامى والمساكينِ وقولوا للناس حُسْنًا وأقيموا الصَلاةَ وآتوا الزكاةَ) البقرة ٨٣؛

(فاستبقوا الخيراتِ أينمَا تَكونوا يأتِ بكمُ اللهُ جميعًا) البقرة ١٤٨؛

(ياأيّها الذين آمنواْ استعينواْ بالصبر والصَلاة، إنّ اللّـهَ مع الصابرينَ) البقرة ١٥٣؛

(ليس البِرَّ أنْ تُولّواْ وُجوهَكم قِبَلَ المشرقِ والمغربِ ولكنّ البِرَّ من آمنَ باللـهِ واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيّينَ وآتى المَالَ على حُبِّـه ذَوِي القُرْبَى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائلينَ وفي الرِقابِ وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ والموفُونَ بعَهدِهم إذا عاهَدواْ والصابرينَ في البَأساءِ والضَّرّاءِ وحينَ البَأسِ أولئك الذينَ صَدَقواْ وأولئك همُ المتّقونَ) البقرة ١٧٧؛

(ياأيّها الذين آمنوا أنفقوا ممّا رَزَقناكم من قبل أن يأتيَ يومٌ لابيعٌ فيه ولاخُلّةٌ ولاشفاعةٌ) البقرة ٢٥٤؛

(ياأيّها الذين آمنوا لاتُبْطلوا صَدَقاتِكم بالمنّ والأذى كالذي يُنفق مالَهُ رئاءَ الناسِ ولايُؤمن باللـهِ واليومِ الآخِرِ فمثله كمثل صَفْوانٍ عليهِ تُرابٌ فأصابَهُ وابلٌ فتركه صَلْداً) البقرة ٢٦٤؛

(ومثل الذين يُنفقونَ أمْوالَهمُ ابْتغاءَ مَرْضاتِ اللـهِ وتثبيتاً من أنفسِهم كمثل جَنّةٍ بربْوةٍ أصابَها وابلٌ فآتتْ أكُلَها ضِعْفَينِ) البقرة ٢٦٥؛

(لَنْ تَنَالوا البِرَّ حتّىَ يُنْفِقوا ممّا تحبّونَ) آل عِمران ٩٢؛

(يا أيّها الذين آمنُوا أوْفُواْ بالعُقُودِ...) المائدة ١؛ (وَتَعاونُوا على البِرِّ والتَقْوىَ ولا تَعاونُواْ علىَ الإثْمِ والعُدْوَانِ واتّقُوا اللـهَ إن الله شديد العقاب) المائدة ٢؛

(يا أيّها الذين آمنواْ إنّما الخمرُ والمَيْسرُ والأنْصابُ والأزْلامُ رجْسٌ من عَمَلِ الشيطانِ فاجْتَنِبوهُ لعلّكم تُفْلحُونَ) المائدة ٩٠؛

(قل تعالَوا أتْلُ ما حَرّمَ ربّكم عليكم ألاّ تُشرِكوا به شيْئًا وبالوالدَيْن إحسانًا ولا تَقتُلوا أولادكم من إمْلاقٍ نَحْن نَرْزُقكم وإيّاهم ولا تَقرَبوا الفَوَاحِشَ ماظهَرَ منهَا ومابَطَنَ ولا تَقتُلوا النفسَ التي حَرّمَ اللـهُ إلاّ بالحَقِ ذلكم وَصّاكم بِه لعلّكم تَعْقِلونَ. ولا تَقرَبوا مالَ اليَتيم إلاّ بالتي هي أحسَنُ حتّى يَبْلغَ أشُدَّهُ وأوْفُوا الكَيْلَ

والميزانَ بالقِسْطِ لانُكلِّفُ نَفْسًا إلاَّ وُسْعَهَا وإذَا قلْتم فاعْدِلواْ ولوكانَ ذا قُرْبَى وبِعَهْدِ اللهِ أوْفُوا ذلكم وصَّاكم بهِ لعَلَّكم تَذكَّرونَ) الأنعام ١٥١ و ١٥٢؛

(ألم نَجْعلْ له عينين. ولسانًا وشفتين. وهديناه النَجْدين. فلا اقتَحَمَ العقَبَة. ومَا أدراكَ ماالعقبة. فَكُّ رَقَبةٍ. أو إطعامٌ في يومٍ ذي مَسْغَبَةٍ. يتيمًا ذا مَقْرَبَةٍ. أو مسكينًا ذامَتْرَبَةٍ. ثمّ كان من الذين آمنوا وتواصَواْ بالصبر وتَواصَواْ بالمرحمةِ) البلد ٨ – ١٧؛

(والشمس وضُحاها. والقمر إذا تَلاها. والنَهار إذا جَلاَّها. والليل إذا يَغشَاهَا. والسَمَاء وما بَناها. والأرض ومَاطحَاها. ونَفسٍ ومَا سَوَّاها. فألهَمَهَا فُجورَهَا وتَقْواها. قَدْ أفلحَ مَنْ زكَّاهَا. وقد خابَ مَنْ دَسَّاهَا) الشمس ١–١٠؛

إنّ الدين جوهر الأخلاق، وتطبيقه في الحياة تربية مثاليّة:

(يسْألونَكَ ماذا يُنفِقونَ، قلِ العَفْوَ) البقرة ٢١٩؛

(قول معروفٌ ومَغفِرَةٌ خيرٌ من صَدقةٍ يَتْبعُها أذىً) البقرة ٢٦٣؛

(إنْ تبْدواْ الصَدقاتِ فنِعِمّا هيَ وإنْ تُخْفُوهَا وتؤتوهَا الفقراءَ فهوَ خيرٌ لكم ويُكفِّرُ عنكم سيِّئاتِكم) البقرة ٢٧١؛

(وسَارِعُوا إلى مغفرةٍ من ربّكم وجنّة عَرضُها السماوات والأرض أعدّت للمتّقينَ. الذين ينفقونَ في السَرّاء والضراء والكاظمينَ الغيظَ والعافِينَ عن الناسِ واللهُ يُحِبُّ المحسنينَ) آل عمران ١٣٣، ١٣٤؛

(ياأيّها الذين آمنوا اصبِرواْ وصَابِرواْ ورابِطواْ واتّقوا اللهَ لعلكم تُرْحَمُون) آل عمران ٢٠٠؛

(وآتُو اليتامىَ أمْوالَهم ولاتتبدلُوا الخبيثَ بالطيّب ولاتأكلوا أمْولَهم إلىَ أمْوالكم إنّه كان حُوبًا كبيراً) النساء ٢؛

(إنّ الذينَ يأكلونَ أمْوالَ اليتامىَ ظلمًا إنّمَا يأكلونَ في بُطونِهم ناراً وسَيَصْلَوْنَ سَعيراً) النساء ١٠؛

(إنّ اللـهَ لايُحبّ مَن كان مُختالاً فخوراً. الذين يبخلونَ ويأمرونَ الناسَ بالبُخلِ ويَكتمونَ ماآتَهمُ اللـهُ مِنْ فضلِه) النساء ٣٦، ٣٧؛

(إنّـه لايُحبّ المستَكبِرينَ) النحل ٢٣؛

(ادْعُ إلىَ سبيلِ ربِّـك بالحكمَـةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجَادِلْـهُمْ بالتي هِيَ أحْسَنُ إنَّ ربَّـك هوَ أعْلَمُ بِمَنْ ضلَّ عَنْ سَبيلِـهِ وَهُوَ أعْـلَمُ بالمُـهْتَدِينَ) النَحْل ١٢٥؛

(اتْـلُ مَـا أوحِيَ إليْكَ منَ الكِتَابِ وَأقِمِ الصـلاةَ إنَّ الصلاةَ تَنْـهى عَنِ الفَـحْشَـاءِ والمُـنْكرِ) العنكبوت ٤٥؛

(ويلٌ للمطفّفينَ. الذينَ إذّا اكتالوا علىَ الناسِ يَستَوفُونَ. وإذا كالوهم أو وَزَنوُهم يُخْسِرونَ. ألاَ يَظنّ أولئك أنّهم مَبعوثونَ. ليومٍ عَظيم. يومَ يقوم الناسُ لِربّ العالمينَ) المطففون ١-٦؛

إنّ الدين ليس ثمرةَ العقل، ولكنّـه في الوقت نفسـه لا يصادم العقلَ، ويمكن للعلم والعقل - رغمَ كونهما لايرتقيان إلى درجة الحكم على الدين أوتأسيس أركانـه - أن يكونا عاملين أساسيّين في توسيع آفاقنا وإثراء تأمّلنا وإعجابنا بالدين:

(إنّ في خلق السماواتِ والأرض واختلافِ الليل والنهارِ لآياتٍ لأولي الألبابِ. الذين يَذكرونَ اللـهَ قياماً وقُعُوداً وعلى جنوبهم ويتفكرونَ في خَلق السماوات والأرض رَبّنَا ماخَلقتَ هذا باطلا سُبْحانك) آل عمران ١٩٠، ١٩١؛

(ياأيّها الذين آمنوا لاتقربوا الصَلاةَ وأنتم سُكارىَ حتّى تعلموا ماتقولونَ) النساء ٤٣؛

(ولاتكونوا كالذين قالوا سمعنَا وهم لايسمعونَ. إنّ شرّ الدوابّ عند اللـهِ الصُمّ البُكمُ الذين لايعقلونَ) الأنفال ٢١، ٢٢؛

(قل هل يَستوي الأعمىَ والبَصيرُ أم هل تَستوي الظلماتُ والنورُ) الرعد ١٦؛

(ومـاتَدري نفسٌ مـاذا تَكسبُ غداً ومَاتدري نفسٌ بأيّ أرضٍ تَموت إنّ اللـهَ عليمٌ خَبيرٌ) لقمان ٣٤؛

(أولم ير الإنسانُ أنّا خلقناه من نُطفةٍ فإذا هو خصيمٌ مبينٌ. وضرب لنا مثلاً ونسيَ خلقَهُ قال مَن يُحيي العظامَ وهيَ رَميمٌ. قل يُحييها الذي أنشأهَا أولَ مرّةٍ وهوَ بكلّ خلقٍ عليمٌ) يس ٧٧-٧٩؛

(أفلا ينظرون إلىَ الإبلِ كيفَ خُلقَتْ، وإلى السَماءِ كيف رُفِعَتْ، وإلىَ الجبالِ كيفَ نُصبَتْ، وإلىَ الأرضِ كيفَ سُطِحَتْ، فذكّرْ إنّمَا أنْتَ مُذكّرْ لستَ عليهِمْ بمُسَيْطِرٍ) الغاشية ١٧ - ٢٢؛

(إنّ في خَلق السماوات والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ والفُلكِ التي تَجري في البَحْرِ بمَا يَنفعُ الناسَ ومَا أنزلَ اللهُ من السمَاءِ منْ ماءٍ فأحْيَا به الأرضَ بعدَ مَوْتهَا وبثّ فيهَا منْ كلّ دابّةٍ وتَصرْيفِ الرياحِ والسّحَابِ المسَخّرِ بين السمَاءِ والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يَعْقلونَ) البقرة ١٦٤؛

(أفلَم يَسيروا في الأرضِ فيَنظُروا كيفَ كانَ عَاقِبَةُ الذينَ منْ قَبْلِهِمْ) يوسف ١٠٩؛

(وهو الذي مَدّ الأرضَ وجَعَلَ فيهَا رواسيَ وأنْهاراً ومنْ كلّ الثمَراتِ جَعلَ فيهَا زَوْجَيْنِ اثنَيْنِ يُغشي الليلَ النهارَ إنّ في ذلك لآياتٍ لقَوْمٍ يَتَفكرُونَ. وفي الأرضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِراتٌ وَجَنّاتٌ من أعْنابٍ وزَرْعٌ ونَخيلٌ صِنْوانٌ وغيرُ صِنْوانٍ يُسْقىَ بمَاءٍ واحدٍ ونُفضّل بَعضَهَا على بعضٍ في الأكُلِ إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يَعْقلونَ) الرعد ٣،٤؛

(سُبْحَانَ الذي خَلقَ الأزواجَ كلّها ممّا تُنبِتُ الأرضُ ومنْ أنفُسِهِمْ ومِمّا لايَعْلَمُونَ. وآيَةٌ لهمُ الليلُ نَسْلَخُ منْهُ النّهارَ فإذاَ هم مُظلمُونَ. والشمسُ تَجْري لمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذلك تَقْديرُ العزيزِ العليمِ. والقَمَرَ قَدّرْنَاهُ مَنَازلَ حَتىَ عَادَ كالعُرْجُونِ القَديمِ. لا الشمْسُ يَنبَغي لَهَا أنْ تُدرِكَ القَمَرَ ولا الليلُ سَابِقُ النّهَارِ وكلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُون) يَس ٣٦ - ٤٠؛

إنّ الآيات التي سردنَاها قبل قليل تُبرز مدىَ اتّصال الإسلام بالطبيعة، ومدىَ انفتاحه نحوَ العالم الخارجيّ؛ فالقرآن الكريم يتحدّث عن الإيمان بالله، وعن المسؤوليّة والعدالة، ولكن يتحدّث أيضاً عن العالم الذي يحيط بنَا، عن النجوم والشمس والنمل

والنحل والنخيل والإبل... ويكون هذا العَرضُ لصورةٍ عن العالم مايميّز الإسلام عن غيره من الأديان، العالم الذي لا هُوّةَ فيه بين النظام الروحيّ والنظام الطبيعيّ للأمور. ولعلّ هذا يوضّح لنا سببَ جعل الإسلام مبدأ العدل والعدالة، لا مبدأ الحبّ والرحمة، من أسمى مطالب الأخلاق الإسلاميّة:

(يَا أيُّها الذي آمنُوا كونُوا قوّامينَ بالقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ ولَوْ عَلىَ أنْفُسِكم أوالوَالِدَيْنِ والأقْرَبِينَ إنْ يَكُنْ غنِيّا أوْ فَقِيراً فاللهُ أوْلىَ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الهَوىَ أنْ تَعْدِلوا) النساء ١٣٥؛

(ياأيّها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداءَ بالقِسْطِ ولايَجرمَنّكم شَنَآنُ قومٍ على ألاتَعْدِلوا اعْدِلواْ هوَ أقرَبُ للتّقوى واتّقوا الله) المائدة ٨؛

(وإنْ حَكمتَ فاحْكم بينهم بالقِسْطِ إنّ اللهَ يُحبّ المُقْسِطِينَ) المائدة ٤٢؛

(وَإنْ عاقَبْتم فعاقِبوا بِمثل مَاعوقِبْتم به ولئنْ صَبَرْتُمْ لَهوَ خيرٌ للصّابرينَ) النحل ١٢٦؛

(ياداودُ إنّا جَعلناكَ خَليفةً في الأرضِ فاحكم بين الناسِ بالحقّ ولاتتّبعِ الهَوى فيُضِلّكَ عن سبيلِ اللهِ)ص٢٦؛

إنّ أخلاق العدالة هذه تمثّل أسسَ مساعي الإسلام نحو بناء مجتمع العدالة الاجتماعيّة والمساواة، ويمكن أن تعيننا الآيات التي سنسردها بعد قليل على فهم الأسباب الحقيقيّة لنجاح الإسلام الباهر في الماضي، والهزائم المتتالية التي مُنِيَتْ بها الشعوب الإسلاميّة في الحاضر. وإذا أمكننا التسمية بنظام المجتمع القرآني بـ "مجتمع بلا ترف ولافقر"، فإنّنا يجب أن نعترف بأنّنا اليوم لانرى في المجتمعات الإسلاميّة شيئًا غيرَ الترف والفقر:

(واعلموا أنّ ماغَنِمْتم فأنّ للهِ خُمُسَهُ وللرسول ولذي القُرْبى واليتامى والمساكينِ وابنِ السبيلِ إنْ كنتم آمنتم باللهِ واليومِ الآخِرِ) الأنفال ٤١؛

(إنّما الصدقات للفقراء والمساكينِ والعاملينَ عليها والمؤلّفة قلوبُهم وفي الرِقابِ

والغارمينَ وفي سبيل اللـه وابن السبيل، فريضةً من اللـهِ) التوبة ٦٠؛

(واللـهُ فَضَّل بعضَكم على بعض في الرزق، فما الذين فُضِّلوا برادّي رزقِهم على ماملكتْ أيمانُهم فهم فيه سواءٌ، أفَبِنعمةِ اللـه يَجْحَدونَ) النحل ٧١؛

(قل لو أنتم تَملكون خزائنَ رحمةِ ربّي لأمْسَكتم خشيةَ الإنفاق، وكان الإنسانُ قَتوراً) الإسراء ١٠٠؛

(ولا يأتَلِ أولو الفضل منكم والسَعة أن يؤتوا أولي القُربى والمساكينَ والمهاجرينَ في سبيل اللـهِ، وليعفوا وليَصفَحواْ، ألاَ تُحبّونَ أن يَغفرَ اللـهُ لكم) النور ٢٢؛

(وإذا قيلَ لهم أنفقوا مما رَزَقكمُ اللـهُ قال الذين كفرواْ للذين آمنوا أنُطعِمُ مَنْ لو يَشاءَ اللـهُ أطعَمَـهُ) يس ٤٧؛

(واللـهُ لايُحبّ كلَّ مختالٍ فَخور. الذين يَبخَلونَ ويأمرونَ الناسَ بالبُخل) الحديد ٢٣،٢٤؛

(أرأيتَ الذي يُكذّب بالدينِ. فذلك الذي يَدُعّ اليتيمَ. ولايَحُضّ على طعامِ المسكينِ) الماعون ٣-١؛

(فآت ذا القُرْبى حقَّه والمسكينَ وابنَ السبيل ذلك خيرٌ للذينَ يُريدونَ وجهَ اللهِ وأولئك همُ المفلِحُونَ)الروم ٣٨؛

إنّ هذه المبادئ عن التضامن الاجتماعيّ، التي رفعتها الآية الثامنة والثلاثون من سورة الروم إلى درجة حقوق الضعفاء وواجب الأغنياء في المجتمع، تتكامل في صورة بديعة مع الإعلان القرآنيّ عن مساواة جميع البشر، لذلك لايَقبل القرآن الكريم بوجود شعب مختار أو جنس بشريّ أعلى:

(كان الناسُ أمّةً واحدةً فبَعث اللـهُ النبيّين مبشّرين ومنذِرينَ وأنزل معهمُ الكتابَ بالحقّ ليَحكمَ بين الناسِ فيمَا اختَلفواْ فيه) البقرة ٢١٣؛

(ياأيّها الناسُ اتقوا ربَّكمُ الذي خَلقَكم من نفسٍ واحدةٍ وخَلقَ منهَا زوجهَا وبثّ منهمَا رجالاً كثيراً ونساءً) النساء ١؛

(ياأيّها الناسُ إنّا خَلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجَعلناكم شعوبًا وقبائلَ لتَعارَفواْ إنّ أكرمَكم عندَ اللـهِ أتقاكم) الحجرات ١٣؛

(ولتكنْ منكمْ أمّةٌ يَدْعونَ إلى الخير ويأمرونَ بالمعْروفِ ويَنهَوْنَ عنِ المنكَر) آل عمران ١٠٤؛

إنّ قضيةَ المساواة بين الناس قريبة جداً من مسألة وضع المرأة في المجتمع، بل إنها ليست أقلّ أهمّيّةً من مسألة المساواة، وذلك لأنّ المرأة تمثّل نصفَ الجنس البشريّ. ومع أنّ الإسلامَ لايَقبل مساواةَ المرأة بالرجل حسب المفهوم الغربيّ، لا من أجل مجرّد المساواة، بل من أجل رفضه السلوكَ والأنماطَ التي أصبحت جزءاً من طريقة الإنسان في الحياة التي لايَقبل الإسلام أغلبَ جوانبها وأشكالها. لذلك يعلن القرآن الكريم المساواةَ القرآنيّةَ الخاصّة للمرأة، وهي تَعني التساوي في القيمة بين الرجل والمرأة بالدرجة الأولى. إنّ الرجلَ والمرأةَ متساويان في القيمة، ولكنهما مختلفان؛ ولايَسعى القرآن الكريم إلى محو هذا الاختلاف، بل يسعى للحفاظ عليه، وفي هذه النقطة بالذات تختلف نظرة الإسلام عن النظرة الأوربيّة. كأنّ القرآن الكريم لايَكتفي بإبراز مبدأ القيمة المتساوية، بل يريد أن يضمن ذلك باستخدام الأسلوب الواضح في التعبير ليزيل أيّ تردّد:

(أنّي لاأضيعُ عملَ عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضُكم من بعض) آل عمران ١٩٥؛

(للرجال نَصيبٌ مما اكتسَبوا وللنساءِ نَصيبٌ مما اكتَسبْنَ) النساء ٣٢؛

(والمؤمنون والمؤمناتُ بعضُهم أولياءُ بعضٍ يأمرُونَ بالمعروُف ويَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ويُقيمُونَ الصَلاةَ ويُؤتونَ الزكاةَ ويُطيعونَ اللهَ ورَسولَهُ أولئك سَيرحَمُهمُ اللهُ إنّ اللهَ عزيزٌ حَكيم. وَعَدَ اللهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جنّاتٍ تَجري من تحتها الأنهَارُ خالدينَ فيهَا ومَساكنَ طيّبَةً في جنّاتِ عَدْنٍ) التوبة ٧١،٧٢؛

(مَن عَمل صالحًا مِن ذكرٍ أو أنثى وهوَ مؤمنٌ فلنُحْيِيَنّهُ حياةً طيّبةً ولنَجْزِينّهم أجرَهم بأحسَنِ ماكانواْ يَعملُونَ) النحل ٩٧؛

(إنّ الذين يَرمُونَ المُحْصَنَاتِ المؤمناتِ الغافلاتِ لُعِنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب أليم) النور ٢٣؛

(قل للمؤمنين يَغضّوا من أبصارِهم ويَحفظوا فُروُجَهم ذلك أزكى لهم واللـهُ خبير بما يعملون. وقل للمؤمنات يَغْضُضْنَ من أبصارِهنّ ويَحفظنَ فُروجَهنّ ولايُبْدينَ زينتَهنّ إلا ماظهر منهَا) النور ٣٠، ٣١؛

(إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدّقين والمتصدّقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجَهم والحافظات والذاكرين اللـهَ كثيراً والذاكرات، أعدّ اللـهُ لهم مغفرةً وأجراً عظيمًا) الأحزاب ٣٥؛

(ليعذّبَ اللـهُ المنافقين والمنافقات والمشْركين والمشركاتِ ويتوبَ اللـهُ على المؤمنين والمؤمنات) الأحزاب ٧٣؛

(الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمينَ ادخلُوا الجنّةَ أنتم وأزواجُكم تُحبَرونَ) الزخرف ٦٩، ٧٠؛

إذن، ليس هناك معياران للأخلاق يكون أحدهما خاصًّا بالرجال دون النساء، والآخر خاصًّا بالنساء دون الرجال. وهاكم ما يطالب به البشريّةَ هذا النظام الأخلاقيّ القرآنيّ الموّحد:

(وبالوالدين إحسانًا إمّا يبلغنّ عندك الكِبَرَ أحدُهما أوكلاهما فلاَ تَقلْ لهما أفٍّ ولاتَنهرْهما وقلْ لهما قولاً كريمًا. واخْفِضْ لهما جَنَاحَ الذّلّ منَ الرحمة وقل رَبِّ ارْحمْهما كما ربّياني صغيراً) الإسراء ٢٣، ٢٤؛

(وآتِ ذا القُربْىَ حَقّه والمسكينَ وابنَ السبيلِ ولاتُبَذّرْ تبذيراً. إنّ المبذّرينَ كانوا إخوانَ الشياطينِ) الإسراء ٢٦؛

(ولاتَقربَوا مالَ اليتيم إلاّ بالتي هي أحسنُ حتّى يَبلغَ أشدّه وأوفوا بالعهد إنّ العهدَ كان مسؤولاً. وأوفوا الكيلَ إذا كِلتم وزِنُوا بالقِسْطاسِ المستقيم ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً. ولاتَقْفُ ما ليس لك به علمٌ إنّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ كلُّ أولئك كان عنه مَسْؤولاً. ولاتَمْشِ في الأرضِ مَرَحًا إنّك لن تَخرِقَ الأرضَ ولن تَبْلغَ الجبالَ طولاً. كلُّ

ذلك كانَ سَيِّئُهُ عندَ ربِّكَ مكرُوهًا) الإسراء ٣٤-٣٨؛

(يا أيها الذين آمنوا لاتَدخلوا بُيوتًا غيرَ بيُوتكم حتىَ تَسْتأنسُوا وتُسَلِّموا على أهلها ذلكم خيرٌ لكم لعلّكم تَذكّرُونَ. فإنْ لم تَجدواْ فيهَا أحداً فلاتَدخلواها حتّى يُؤذَنَ لكم وإنْ قيلَ لكمُ ارْجِعوا فارْجِعواْ هوَ أزكىَ لكم واللهُ بما تَعمَلونَ عَليمٌ) النور ٢٧، ٢٨؛

(ادفَعْ بالتي هي أحسنُ فإذَا الذي بينَكَ وبينَهُ عَداوةٌ كأنَهُ وليٌّ حَميمٌ. ومَا يُلقّاهَا إلاّ الذينَ صَبَرواْ ومَا يُلقّاهَا إلاّ ذُو حَظٍّ عَظيمٍ) فصّلت ٣٣، ٣٤؛

(قل لا أسألكم عليه أجْراً إلاّ المَودّةَ في القُرْبىَ) الشورى ٢٣؛

(ولَمَنِ انتصَرَ بعدَ ظلمِه فأولئكَ مَاعليهم من سَبيلٍ. إنّمَا السَبيلُ علىَ الذين يَظلِمون الناسَ ويَبغونَ في الأرْضِ بغيرِ الحقّ أولئك لهم عَذابٌ أليمٌ) الشورى ٤١، ٤٢؛

(ووَصّينَا الإنسانَ بوالِدَيْه إحساناً حَمَلَتْهُ أمُّه كُرْهًا ووَضَعَتْهُ كُرْهًا وحَمْلُهُ وفصَالُهُ ثلاثون شهراً حتّى إذا بلغَ أشُدَّهُ وبلغَ أربعينَ سنةً قال ربِّ أوزِعْني أنْ أشكرَ نعْمَتَكَ التي أنْعَمْتَ عَليَّ وعَلىَ وَالديَّ وأنْ أعملَ صالحًا تَرضاهُ وأصلِحْ لي في ذُرِّيَّتي إنّي تُبْتُ إليكَ وإنّي من المسلمينَ) الأحقاف ١٥؛

(يا أيّها الذين آمنوا إنْ جاءكمْ فاسقٌ بِنَبأٍ فَتبيَّنوا أنْ تُصيبُوا قومًا بِجَهالةٍ فَتُصْبِحُوا على مافَعَلتُم نَادمينَ) الحجرات ٦؛

(وإنْ طائفتَان منَ المؤمنينَ اقتَتلوا فأصْلِحواْ بينهمَا فإنْ بَغَتْ إحداهما على الأخرىَ فَقاتِلوا التي تَبْغي حتَى تَفيئَ إلى أمرِ اللهِ فإنْ فاءَتْ فَأصْلِحواْ بينهما بالعدل وأقْسِطواْ إنّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطينَ) الحجرات ٩؛

(يا أيّها الذين آمنوا لايَسْخَرْ قومٌ منْ قومٍ عسىَ أنْ يكونوا خيراًمنهم ولانِساءٌ من نساءٍ عسىَ أنْ يكنَّ خيراً منهنّ ولاتَلْمِزواْ أنْفسَكم ولاتَنابَزواْ بالألقابِ) الحجرات ١١؛

(يا أيّها الذين آمنواْ اجْتَنبوا كثيراً من الظنّ إنّ بعضَ الظنّ إثمٌ ولاتَجَسّسوا ولايَغتَبْ بَعضُكم بَعضًا أيحبُّ أحدُكم أنْ يأكلَ لحمَ أخيه ميتًا فكرِهْتموهُ) الحجرات ١٢؛

(ولاتَهِنوا ولاتَحزنوا وأنتمُ الأعلَوْنَ إنْ كنتم مؤمنينَ) آل عمران ١٣٩؛

(يابُنَيَّ أقِمِ الصلاةَ وأمُرْ بالمعروف وانْهَ عَنِ المنكر واصْبِرْ علىَ ما أصابَكَ إنَّ ذلك من عَزْمِ الأمور. ولاتُصَعِّرْ خَدكَ للناس ولاتَمشِ في الأرْضِ مَرَحًا إنَّ اللهَ لايُحبُّ كلَّ مُختالٍ فَخورٍ. واقْصِدْ في مَشْيِكَ واغْضُضْ من صَوْتكَ إنَّ أنْكرَ الأصْواتِ لَصَوْتُ الحَميرِ) لقمان ١٦ - ١٩؛

(فلاتَخْشَوا الناسَ واخْشَوْنِ) المائدة ٤٤؛

(أتَأمرونَ الناسَ بالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أنفُسَكم وأنتم تَتْلونَ الكتابَ أفلا تَعْقلونَ) البقرة ٤٤؛

كان من الطبيعيّ أنْ تتّسم هذه المبادئ الأخلاقيّة التي تُبرز الجانب الاجتماعيّ بحساسيّة بالغة تجاهَ الربا، لذلك يُدينها القرآنُ الكريم أكثرَ ممّا يُدينها أي قانون قبله أو بعده. وبإدانته الربا وَقف القرآنُ الكريم بكلّ وضوح إلىَ جانب الرجال النزيهينَ الذين يكسبونَ أرزاقَهم من عمل أيديهم وعَرَق جبينهم دونمَا استغلال للآخرين:

(إنَّ الذين يأكلونَ الربا لايقومُون إلاّ كما يَقوم الذي يتخبّطه الشيطانُ من المسّ ذلك بأنّهم قالوا إنّما البيعُ مثلُ الربَا وأحلّ اللهُ البيعَ وحرّم الربَا... يَمْحق اللهُ الربا ويُربي الصّدقات... ياأيّها الذي آمنوا اتّقوا اللهَ وذَروا مابَقيَ منَ الربَا إنْ كنتم مؤمنينَ. فإنْ لم تَفعَلوا فَأذَنوا بحرب من اللهِ ورَسولِهِ) البقرة ٢٧٥ - ٢٧٩؛

(وما آتيتُمْ منْ ربًا ليَربُوَ في أموَالِ الناسِ فلايَربُوا عندَ اللهِ ومَا آتيتُمْ من زكاةٍ تُريدونَ وَجْهَ اللهِ فأولئكَ همُ المُضْعِفونَ) الروم ٣٩؛

ولنذكر في آخر هذه المقالة بعضَ الآيات عن أمرين يعتبرهمَا بعض المفكرين ركنًا سادسًا من أركان الإسلام، وهما العمل والجهاد، لأنّهما أساسان عظيمان من أسس الحياة الإنسانيّة، وتبقىَ كلّ عبادة أو وعظ - إذا سُلبا منهمَا - شكليّةً قريبةً من النفاق:

(وقاتلوا في سبيل اللهِ الذين يُقاتلونَكم ولاتَعتَدوا إنّ اللهَ لايُحبّ المعتدينَ) البقرة ١٩٠؛

(وأنفقوا في سبيل اللـه ولاتُلْقوا بأيديكم إلى التـهلُكة وأحسِنوا إنَّ اللـهَ يُحبُّ المحسِنينَ) البقرة ١٩٥؛

(كم من فِئَةٍ قليلةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كثيرةً بإذْنِ اللـه) البقرة ٢٤٩؛

(ولولا دفعُ اللـهِ الناسَ بعضَهم ببعض لفسدَتِ الأرضُ) البقرة ٢٥١؛

(والذين يَكنزونَ الذهبَ والفضّةَ ولايُنفقونها في سبيل اللـه فبشّرْهم بعذاب أليم) التوبة ٣٤؛

(أوَلمَّا أصابتْكم مُصيبةٌ قد أصَبْتُم مثليْها قلتُم أنّىَ هذا قل هو مِن عندِ أنفسِكم) آل عمران ١٦٥؛

(يا أيّها الذين آمنوا اصبِروا وصابِروا ورابِطوا واتّقوا اللـهَ لعلّكم تُفْلِحونَ) آل عمران ٢٠٠؛

(يا أيّها الذين آمنوا خُذوا حِذْركم فانفِروا ثُباتٍ أوِ انفِروا جميعًا) النساء ٧١؛

(لايستوي القاعدون من المؤمنين غيرُ أولي الضَرَر والمجاهدون في سبيل اللـه بأموالهم وأنفسِهم فَضّل اللـهُ المجاهدين بأموالهم وأنفسهم علىَ القاعِدين درجةً) النساء ٩٥؛

ولنُنْهِ هذا العرضَ الموجز لبعض المواقف القرآنيّة بالعودة من جديد إلى قضيّة الإيمان التي بها بدأنا هذه المقالة، ولكن بهدف إبراز جانب مهمّ من هذه المسألة.

عند حديثنا عن الإيمان غالبًا ما نقسّم الناس إلى مؤمنين وغير مؤمنين، ونرى أنّ هذا التقسيم سطحيّ ومبسّط للغاية، لأنّه يهمل وجود القسم الثالث الغالب من الناس، وهم الذين يعلنون إيمانهم وهم أبعد الناس عن الإيمان، إنّهم يؤدون بعضَ الشعائر الدينيّة، يحتفلون مع المسلمين بأعيادهم ويتمسّكون ببعض العادات والشعارات الإسلامية، ولكنهم أولُ من يتولّى يومَ الزحف عند نذير الحرب، ويغشّون في التجارة بمنتهى البرودة، وينهمكون في شرب الخمور ويتمتعون بالملاهي الليليّة، يخافون على حياتهم وأموالهم ومناصبهم كأنّهم سيخلدون في هذه الدنيا دون سائر الناس، ويتزلّفون إلى أرباب عملهم بشكل لايَليق بالعبيد، وهكذا في حلقة مفرغة، إنّ الخوفَ سمة

أساسيّة في سلوك هؤلاء، الخوف على حياتهم ومناصبهم ومكانتهم ودوام عطف الحكام أو أصحاب النفوذ! وفي خضمّ ألوان هذا الخوف المستطير لا يغيب عن حياتهم إلا لون واحد من الخوف، ألا وهو الخوف من اللـه الخالق الرازق! إنهم ينشّئون أولادهم في ذلك الجوّ وذلك المحيط الموبوء بالنفاق والتقلب.

وتصبح صورة أمور كثيرة أوضحَ لنا ويمكننا إدراك وفهم كلّ ما جرى ولماذا يجري في عالمنا إذا أخذنا في الحسبان وجودَ هذا القسم الثالث في مجتمعات المسلمين.

إنّ العالم الإسلاميّ المعاصر في أغلب صوره أنموذج مَدْرسيّ لقليل من الدين الخالص وكثير من الدين الشكلي الشفهي. وليس هناك دين مثل ديننا الإسلاميّ يشدّد أكثر وأوضحَ في الإخلاص - بناءً على محض مبادئه - وفي مقابل ذلك ليس هناك أتباع دين أقلّ تطبيقًا في شؤون حياتهم اليوميّة منّا نحن المسلمين! وفي ضوء هذا التناقض بالذات، هذا النشاز بين الشكل والمضمون، يمكننا تقديم تفسير للأوضاع القائمة في غالبيّة الدول الإسلاميّة اليوم، الأوضاع التي قد لاتنقصها الإرادة والحركة، لأنّها لم تَعد سباتًا، ولكنّها أوضاع الضعف الشنيع والسير في المكان دونما هدف واضح أو نتيجة للتحرك.

إنّ مكانة القرآن الكريم في هذا العالم لتمهّد لهذا الوضع أكثر. ستجدون المصحف الشريفَ في كلّ بيت ومنزل موضوعًا في مكان أو رفّ مخصّص له، إنّه أغلى هدية، ويُطبع على أفخر أنواع الورق، ويتسابق الخطاطون والفنّيون في تزيينه بأجمل الألوان والنقوش، وتزيين دفّتيه بأروع زينة توصل إليها إبداع يد الإنسان. إنّ سور القرآن هي أوّل ما يحفظه أغلب أطفال المسلمين، ومع ذلك سوف يترعرع ويكبر أكثر أولئك الأطفال دون إدراك معاني وأهداف تعاليم القرآن الكريم. أصبح القرآن الكريم في حياة المسلمين رمزاً وطلسمًا، ولم يعد دستوراً، بينما وجب أن يكون الأمر على عكس ذلك. انظروا إلى واقعنا، لم يعد هناك ذلك الصوت المدوّي "اقرأ"، بل تحوّل إلى "اتْلُ"، فلا يقدر العربيّ ولا العجميّ على الغوص على معاني الآيات، لأنّه في انسياب شلالات التلاوة النديّة لم يعد أحد قادراً على الإصغاء إلى تلك الكلمات القرآنيّة الصارمة

التي تدعو وتُذكّر في لحظة، ثمّ تتوعّد وترعد في لحظة أخرى، ولكنّها دائمًا، بصرف النظر عن ذلك، تطالبنا بتغيير حياة الإنسان جذريًا.

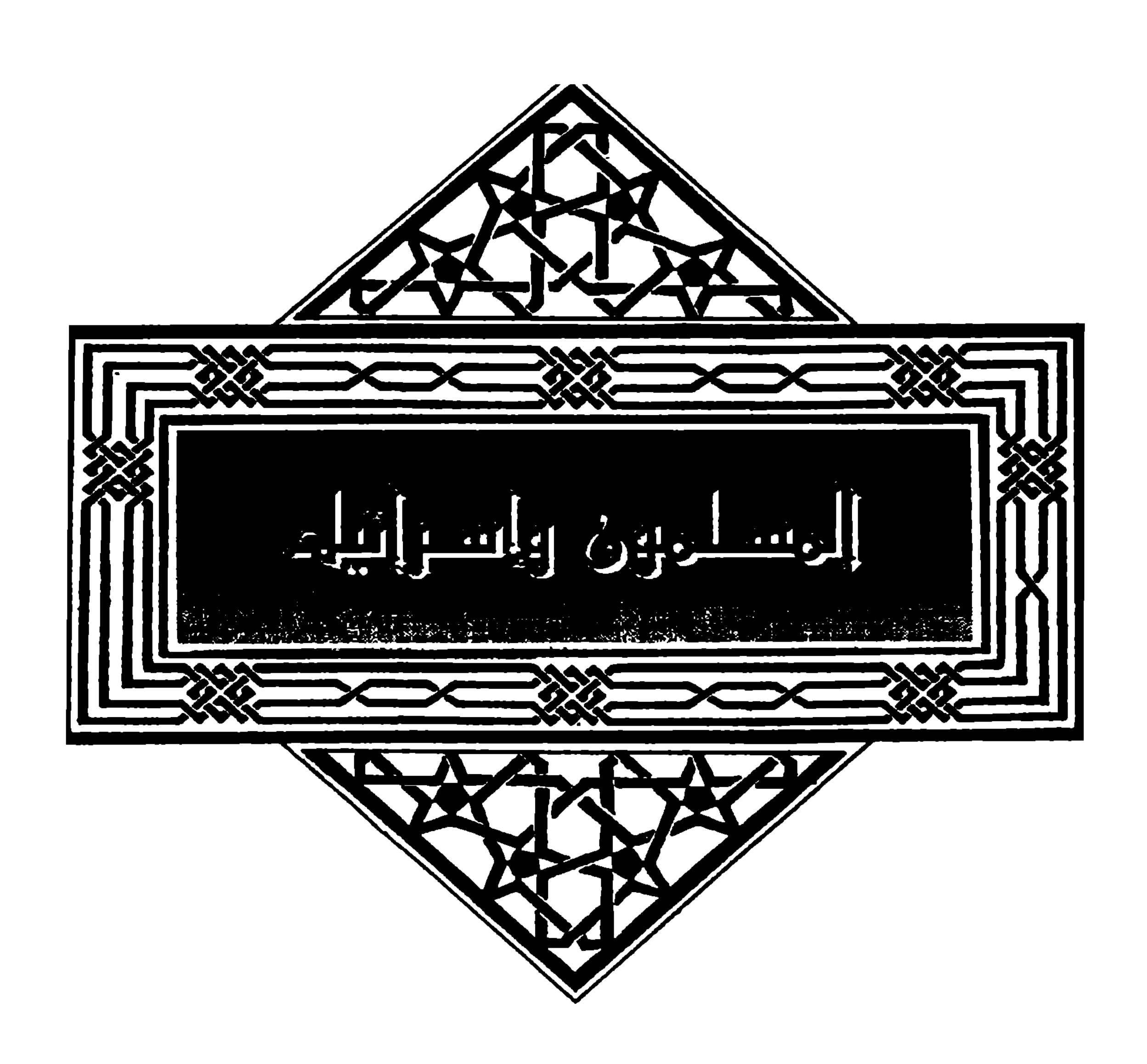
إنّ الدين ليس ترفًا، لأنّه دعوة وإلزام ومطالبة. إنّ جيلاً واحداً ربّيَ على الإيمان الخالص لقادر على رفع شأن الإسلام أكثر من عشرات أجيال تأتي بعده، إذا كانت من مجرّد "أتباع الإسلام". أليست أسس كلّ ما بنتْه حضارة الإسلام على مدى ألف عام في ميادين العلوم والثقافة والتربية وأسباب القوّة، قد وُضعتْ على أيدي الأجيال الثلاثة في صدر الإسلام؟ وكلّ من جاء بعدها كان يستمدّ قوتَه من تلك الانطلاقة الإيمانيّة الأولى.

من أجل ذلك لابدّ أن تكون الثورة المقبلة في العالم الإسلاميّ ثورةً دينيّةً، وعندئذ سوف تكون تلك الثورة -بعد أن تنتصر في نفوس وقلوب المسلمين - قادرةً على تحقيق المعجزات وبلوغ مايبدو لنا اليوم مستحيلاً، لأنّها قادرة على حرث جميع حقول الحياة في وقت قياسيّ، لتجبر كلَّ أنواع الاستعمار على الهروب بلا رجعة، وتزيلَ الفقر والخرافةَ والظلم والجهل ومظاهر قلة النظافة من مدن المسلمين وقراهم، لتعلن بذلك عن دخول المسلمين في عصر جديد، عصر الحضارة والإنسانيّة في مساحة شاسعة من العالم ما زالت مهملة إلى الآن.

اللهمّ أعط لجميع الشعوب الإسلاميّة وللبشريّة جمعاءَ نعمةَ الإيمان الخالص! آمين.

كتبت المقالة في شهر سبتمبر سنة ١٩٦٩م




المسلمون وإسرائيل

المسلمون و إسرائيل

لقد أصاب كبدَ الحقيقة ذلك المفكر الذي لاحظ أن جهلَ الأجيال المعاصرة للتاريخ يستدعي الاستغراب. وقد يظهر صواب هذا الرأي في قضيّة فلسطين أكثر من القضايا الأخرى. وكلّما شرعنا في الحديث عن فلسطين نصطدم بتشويش غريب حول الحقائق الثابتة في عقول أولئك الذين يَعتَبرون أنفسَهم مثقّفين. لذلك أورد هنا بعضَ الحقائق الأساسيّة في هذه المسألة:

– يعود موسى باليهود من مصر إلى "الأرض الموعودة" سنة ١٢٧٠ قبل الميلاد؛

– تستمرّ المملكة العبرانيّة أربعة قرون، من القرن العاشر حتى القرن السابع قبل الميلاد، وكانت بلغت أوجها أيامَ الملك داود (حوالي سنة ٩٩٠ ق.م.) والملك سليمان (حوالي سنة ٩٦٠ ق.م.)؛

– في القرن التاسع قبل الميلاد تنقسم المملكة العبرانيّة إلى دولتين: مملكة إسرائيل ومملكة يهوذا. واستولى السامريون على مملكة إسرائيل سنة ٧٢١ ق.م.، ثمّ على مملكة يهوذا سنة ٦٠٤ ق.م.، ولكن تظل الدولة العبرانيّة قائمة حتى سنة ٧٠ بعد الميلاد، عندما سقطت في يد الإمبراطور تيطس بعد استيلائه وتخريبه مدينة القدس.

– سنة ٥٧٨ قبل الميلاد سيطر بختنصر على الدولة وسبى اليهود وأخذهم أسرى إلى بابل، ولم ينج من الأسر إلاّ عدد قليل من يهود الطبقات الدنيا الذين لجأوا إلى مصر. وعاد اليهود من أسر بابل سنة ٥٤٠ وأقاموا هيكل أورشليم من جديد. هجّر الإمبراطور ترتليان أغلب اليهود سنة ١٤٢ بعد الميلاد، وأرسل بعضهم للعمل على السفن، بينما أرسل الآخرين إلى نهر راينا (في ألمانيا) لحماية الإمبراطوريّة من القبائل البربريّة. وينحدر اليهود الإشكناز من هؤلاء الأخيرين.

ومن هذا العرض التاريخيّ الموجز نرى بوضوح أن قيام الدولة العبرانيّة ينحصر

بكامله في المراحل قبل الميلاد. ومن سنة ٧٠ حتىَ يوم ١٤ يوليو سنة ١٩٤٨م - أي سبعة عشر قرنًا متواصلاً - لا وجود لدولة اليهود على أرض فلسطين البتة. حكم القرون الستّة الأولى منها كل من الرومان والفرس والبيزنطة. سنة ٦٣٨م فتح المسلمون القدس ورحل إليها الخليفة عمر بن الخطاب واستلمها بنفسه من البطريرك صفرونيوس، وأعلن أن القدس ستتمتّع بوضع مدينة الحريات الكاملة للأديان الثلاثة. ومن تلك الحادثة وحتىً سنة ١٩١٨م - على مدى ثلاثة عشر قرنًا- حكم المسلمون مدينة القدس وفلسطين. وهذا الحكم الإسلاميّ المتواصل لم ينقطع إلاّ مرتين: عندما احتلّ الصليبيون مدينة القدس بقيادة غورتفيلد من بويون مدّة ٨٨ سنة (من ١٠٩٩ - ١١٧٨م)؛ وفي المرة الثانيّة عندما حكمها الملك فريدريك الثاني مدة ١٦ عامًا (من ١٢٢٨ - ١٢٤٤م)، بناءً على الاتفاقيّة مع الحاكم الفاطميّ على مصر.

واستناداً إلى هذه الحقائق التاريخيّة الموجزة يمكننا أن نرى بكل وضوح صحة ادّعاء "الحقوق التاريخيّة" لليهود على أرض فلسطين.

-٢-

وبناءً على بعض الاعتبارات تمثّل إسرائيل ظاهرةً فريدةً من نوعها في التاريخ السياسيّ. ففي لحظة تأسيس هذه الدولة لم يكن لها لا أرض ولا سكان. وحصلت إسرائل على أرض للدولة بشرائها أو باغتصابها من السكان العرب؛ كما تكوّن شعبها بجلب اليهود من جميع أنحاء العالم.

إن الفكرة الأولى واضحة المعالم عن الدولة اليهوديّة على أرض فلسطين تظهر في كتاب "الدولة اليهوديّة" لثيودور هيرتزل مؤسّس المنظمّة الصهيونيّة سنة ١٨٩٥م. وإليكم أهمّ مراحل تنفيذ هذه الفكرة لإقامة دولة إسرائيل:

- بيان "بالفور" من سنة ١٩١٧م الذي يعتمد على مساعدة بريطانيا لإقامة دولة يهوديّة على أرض فلسطين؛

- استيطان اليهود في فلسطين بناءً على البيان نفسه، وتمّ بالفعل استيطان أكثر من ٤٠٠ ألف يهودي بين الحربين العالميّتين الأولى والثانية؛

- في ١٤ مايو سنة ١٩٤٨م تعلن المنظّمة اليهوديّة (الإدارة العليا للمنظمة الصهيونيّة العالميّة) قيام دولة إسرائيل، وهذا يسبّب نشوب الحرب بين إسرائيل والدول العربيّة المجاورة؛

- تلي ذلك الهدنة المبرمة في ١٨ يوليو ١٩٤٨م، ثمّ تقسيم فلسطين، حصل بموجبه اليهود على ٦٤٠٠ ميل مربّع، والفلسطينيون على ٣٦٠٠ ميل مربّع؛

- توسيع أراضي إسرائيل مرّتين: أولاً في حرب سنة ١٩٥٦م، ثمّ في حرب سنة ١٩٦٧م؛ ويصاحب ذلك اغتصاب أراضي العرب وطردهم إلى الخارج.

ويقدّر عدد اليهود الموجودين على أرض فلسطين في لحظة إعلان دولة إسرائيل بنحو ٧٥٠ ألف شخص، وكانت المعادلة بين العرب واليهود ٣:١ لصالح العرب. بعد قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨م حتى سنة ١٩٦٧م تمّ استيطان مليون وثلاثمائة وخمسين ألف يهوديّ. وبناءً على المعلومات الرسميّة كان عدد سكان إسرائيل مليونين وثلاثمائة ألف يهوديّ، وقد جُمعت الأموال اللازمة عن طريق الصندوق اليهوديّ الشعبيّ "كيامات" الذي أُسّس في بداية القرن العشرين، ويجمع هذا الصندو ق تبرّعات اليهود من كافّة أنحاء العالم.

يشكل اليهود الأوربيّون "الإشكناز" أغلبيّة سكان إسرائيل. ليس هذا فقط ، بل ويتولّون أغلب المناصب في الحكومة والجيش والإدارات المختلفة. وأمّا اليهود من الشرق الأوسط، فهم يكوّنون عادةً طبقة العمّال. إنّ اليهود الإشكناز لم يحتكوا بالعرب قبل استيطانهم، وهم زعماء التوجّه السياسيّ المتطرّف نحو العرب. وينحدر هؤلاء من فرنسا وروسيا وألمانيا، ولا يفارقون السلاحَ، وفوق ذلك هم متعلمون وشرسون، أُكلت إليهم مهمّة طرد السكان العرب الأصليين، لكي يؤمّنوا "مجالَ الحياة" للدولة الجديدة.

وما الذي يمكننا أن نتوقّع من هذه الدولة الجديدة التي ولدت من الظلم والجور؟ وهناك بعض الأمور التي تُعتَبَر الأسس الاعتقاديّة لإسرائيل، والتي تجعل العاقل لا

ينقطع عجبًا من تناقضاتها. ونذكر هنا فقط نماذج من ذلك:

- لقد صبّت الصهيونيّة - التي نشأت ردّةَ فعل على مطاردة وملاحقة اليهود في أوربا - كامل مخزونها التاريخي من السمّ والغضب والثأر على العرب في المنطقة التي عاش فيها اليهود عبر تاريخهم بسلام وأمان وحماية. وتعلن إسرائيل اليوم عداوتها للعرب، وإن كان من المفترض أن يكون على عكس ذلك، استناداً إلى كل الاعتبارات؛

- إن اليهود أبرز مثال على النزعة القوميّة السوداء في صورةِ التطرف الأشدّ، وإن كانوا مصرّين على إعلان انتمائهم إلى الآفاق العالميّة والمبادئ الدوليّة (أو كانوا يحاولون إقناعَ الآخرين بأنّهم يجب أن يكونوا كذلك)؛

- أصبح اليهود - الذين كانوا من أكبر ضحايا العنصريّة والإبادة الجماعيّة - أقطاب هذه الأساليب؛ بل أصبحوا الذراعَ الممدود من أساليب هتلر المعتَمَدة على حلّ الأمور بالقوّة دونما التفات إلى النتائج، والتشريد، والتصرّف مثل الوحوش الكاسرة مع المهزومين، وحتىّ استخدام المناورات العسكريّة بالهجوم المباغت والانتقام بمنتهى القسوة والحقد؛

- كان اليهود من منظّري الحركات العالميّة التي رفعت شعارات "الحرّيّة" و"الأخوّة" و"الشرعيّة" و"الحرّيّات السياسيّة"، ونحن نرى بأم أعيننا أنّ تربية النشء في إسرائل هي التربية العسكريّة، وأنّ المتطلبات العسكريّة تهيمن على النظام الاجتماعيّ، وتبني سياستها على مبدأ "الغاية تبرّر الوسيلة"، ونظريات "نيتشه" القائلة "الحق للأقوى" و "أخلاق القوّة". ولا تطبق فلسفة القوّة هذه في أيّ مكان من العالم بهذه الصورة، ملقيةً مبادئ القانون الدوليّ تحت أقدامها، ومستهترةً بالمؤسّسات الدوليّة والرأي العامّ العالميّ.

فعلى سبيل المثال قد أصدرت الأمم المتحدة في ١١ ديسمبر ١٩٤٨م قرارَها بوجوب إعادة اللاجئين العرب إلى ديارهم وإعادة ممتلكاتهم إليهم، مع دفع التعويضات للمتضرّرين. وبدلاً من تنفيذ القرار تغتصب إسرائيل مزيداً من أراضي العرب وتصادر

ممتلكاتهم وتهدم بيوتَهم لتقيم مكانَهـامستوطنات لليهود القادمين من أوربّـا.

وفي ٩ ديسـمـبـر ١٩٤٩م يصـدر مـجلس الأمن قـرارَه بوضع مـدينة القـدس تحت الإشراف الدوليّ، ولم يكتف اليـهود بضرب عرض الحائط بهذا القرار، بل في صيف سنة ١٩٦٧م تُصدر إسرائيل قرارَها بالضمّ الكامل للقدس إليـها. وسنرى بعد قليل كيف تمّ تنفيذ هذا القرار.

وتطالب الأمم المتّـحدة في شـهـر يوليـو سنة ١٩٦٧م دولـةَ إسرائيل بالانسحـاب الكامل من الأراضي العـربيّـة المحـتلّـــة، وأثناءَ مناقـشـة القـرار يقـول أبا أبـان، وزير خارجيّـة إسرائيل آنذاك بكل صفاقــة: "لن تنسحب إسرائيل إلى مـواقعهـا قبل الحرب، حتيّ ولو صوّتت الجمعيّـة العموميّـة لصالح القرار بـ ١٢١ صوتـًا مقابل صوت واحد!"

وخلاصـة الأمر أن منظمة الأمم المتحدة أصدرت سبعين (٧٠) قراراً حـول القضيّـة الفلسطينيّـة حتىَ سنـة ١٩٧٠م، وضربت إسرائل بجميعها عرضَ الحائط!

-٣-

وعند توضـيح العـلاقـات بين اليـهـود والمسلمين لا بدّ أن تكون الحقـيقـة التـاريخيّـة الواحدة ماثلةً أمامَ أعيننا: لقد عاش اليهود في الدول والمجتمعات التي كانت السلطة فيها في أيدي المسلمين، وكان الأمر على ذلك قرونـًا طويلـةً؛ وعلى عكس ذلك لم يعش المسلمون لحظـة واحدة من تاريخهم تحت حكم اليهود، غير هذه المدّة الوجيزة من بعد قيام دولة إسرائيل.

إنّنا جميعـًا نعلم جيّداً معاملة اليـهود للمسلمين في فلسطيـن اليوم، لأنهـا أصبحت واقعنا اليوميّ الأليم. ولكن قليل منّـا يعلم كيفيّـة معاملة المسلمين لليـهـود في الدول الإسـلاميّـة، لأن هذا الأمر أصـبح جزءاً من التـاريخ. وقـد يظنّ ظانّ أنّ مـا نشـاهده من العنف الذي يمارسه اليهود ضد المسلمين عبارة عن تصفية الحسابات القديمة وردّ المكيال بالمكيالين؟

إنّ التاريخ شاهد لحقيقتين مهمّتين:

١ - لقد تمتّع اليهود بكامل الحريّات الدينيّة وعاشوا في سلام واطمئنان؛

٢- وإن كان قد وقع شيء من إيذائهم، فلا يعدو أن يكون من قبيل التصرّفات الفرديّة التي تصبح مغمورةً كليًا في طول هذه المدّة التي حكمهم المسلمون فيها. ولم تنشأ هناك أيّ حركة منظمة معادية لليهود على امتداد العالم الإسلاميّ كلّه، مثل تلك المعاداة للسامية التي نشأت على أرض أوربّا.

وعندما سقطت غرناطة - آخر معقل للمسلمين في الأندلس - في أيدي الإسبانيين سنة ١٤٩٢م واجه المسلمون واليهود مصيراً واحداً، وتعرّضوا للمطاردة والإبادة. ولجأ أكثر من ثلاثمائة ألف يهوديّ إلى الخارج، ودخل مائتا ألف من هؤلاء اللاجئين اليهود البلادَ التي كانت تحت حكم الخلافة العثمانيّة، وتمّ استقبالهم برحابة الصدر وهُيّئت لهم الظروف الملائمة للحياة والعمل تحت رعاية الخلافة.

إنّ دائرة المعارف اليهوديّة تعترف صراحةً بأنّ حياة اليهود في الأندلس أيّام الحكم الإسلاميّ كانت: "وصلت إلى مستوى عال من التطوّر، خاصّة في المجال الثقافيّ." ومن هنا نشأت ظاهرة التعايش العربيّ اليهوديّ الثقافيّ، الذي استمرّ قرونًا من الزمن في مختلف البلدان والظروف.

ولنا حقّ في طرح السؤال: لمصلحة من يجري هذا الصدام بين العرب واليهود، وكيف وصل الأمر إلى ذلك؟

وتظهر وجاهة هذا السؤال أكثر إذا تجاوزنا الظروف الراهنة ونظرنا إليها من زاوية بعدها التاريخيّ. عندئذ سيظهر لنا أن الأمر لا يتعلق بالمواجهة بين اليهود والفلسطينيين، أو بين اليهود والعرب. ونظراً إلى الوضع الخاص لمدينة القدس، لا بدّ أن يتحول هذا الصراع، عاجلا أو آجلاً، إلى الصراع بين اليهود وعامّة المسلمين. وما الذي سوف يحدث إذا تحولت مسألة القدس إلى قضيّة كافّة المسلمين، مثلما هي كذلك من بداية الأمر؟

ويتّضح لنا - إذا نظرنا إلى هذه المسألة نظرةً عامّةً - أنّ دولة إسرائيل تشكّل نوعًا من الكيان الطفولي (ghetto) في محيط العالم الإسلامي، وجسمًا دخيلاً على هذا الجسد الإسلاميّ الضخم.

ولكن هذه المرّة صنعت اليهود بأيديهم هذا الجسم الدخيل وهذه العداوة التي تحيط بكل جسم دخيل. وهنا بالذات تكمن خصوصيّة الوضع القائم.

إن الأب الروحيّ لدولة إسرائيل "تيودور هيرتزل" قد صوّر في رواياته الشهيرة قبل أكثر من سبعين عامًا تخيّلـه عن أساليب استيطان اليهود، وقيام إسرائيل، وتطوير الزراعة والصناعة على أسس علميّة حديثة، وتنظيم المجتمع، وأشياء أخرى كثيرة، بالدقة المتناهية وتفصيل الجزئيّات بطريقة تجعل الإنسان يتعجّب منها. واللافت للنظر هنا أنّ أمراً واحداً قد غاب عنه - عمداً أو سهواً - وهو أمر فاصل في القضيّة: مقاومة السكان العرب الأصليّين. إن دولته اليهوديّة التي كان تخيّلها سوف تعيش وتتسع كأنّ ما حولها فراغ، وفي سبيل ذلك هي لا تدوس أحداً بأقدام جنودها، ولا تغتصب من أحد، ولا تمارس الظلم على أحد. وهذا السهو من "هيرتزل" يجعل نظرته التكهّنيّة ساقطة من أساسها، لأنّ عنصر المقاومة سوف يؤثّر تأثيراً مصيريًا، ليس في كيفيّة نظام دولته فحسب، بل وفي مصيرها النهائيّ.

—٤—

إنّ مدينة القدس ليست مدينة عاديّةً، بل هي مدينة فريدة في العالم لكونها تحتضن مقدّسات الأديان السماويّة الثلاثة التي لا يمكن أن تتنازل عنها بحال من الأحوال.

إذن، من يقدر على جعل مدينة القدس حرّةً ومفتوحةً أمامَ الجميع بالتساوي؟

نظريًا وعمليًا يقدر المسلمون وحدَهم على ذلك.

نظريًا لأنّ الإسلام وحده يعترف بنبوّة موسى وعيسى عليهما السلام، كما يعترف بالتوراة والإنجيل؛ وعلى نقيض ذلك لا يعترف اليهود ولا النصارى بنبوّة محمد، عليه

السلام، وبنزول القرآن الكريم. وهذه الحقيقة هي عنصر وسبب تفوّق المسلمين في هذه المسألة.

وعمليًا لأن مدينة القدس تقع في قلب العالم الإسلاميّ، فكلّ حكم غير إسلاميّ على مدينة القدس سيمثّل وضعًا غيرَ طبيعيّ، ويمكنها الاستمرار فقط بالاعتماد على وسائل القوّة، وذلك الوضع المتوتّر دائمًا لا يمكن تسميته بالحريّة. إنّ الوقائع التاريخيّة شاهد على ما ذهبنا إليه.

فقد كانت مدينة القدس مفتوحةً أمام أبناء الأديان الثلاثة طول مدّة الحكم الإسلاميّ فيها، وحالةُ غياب الحريّة عنها تتطابق مع غياب الحكم الإسلاميّ. وقد وقع ذلك مرّتين: عندما احتلّ الصليبيّون مدينة القدس من سنة ١٠٩٩ - ١١٨٧م، والآن في عصرنا الحاضر بعدما احتلّتها إسرائيل.

وتعالوا بنا إلى "دائرة المعارف البريطانيّة" لنقرأ هذه السطور عن احتلال الصليبيّين لمدينة القدس في الحرب الصليبيّة الأولى: "بعد الحصار الذي دام أكثر من شهر تمّت السيطرة على مدينة القدس في ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩م. أعقبت ذلك مجزرة مروّعة، سالت على أثرها دماء المسلمين في الشوارع. وعندما جنّ الليل ارتفع بكاء الصليبيّين من الفرحة الجنونيّة، وسارعوا إلى موضع قبر عيسى المقدّس ووقفوا على القبر في خشوع وبكاء، وكانت أيديهم ما زالت تقطر من دماء المسلمين المهزومين. هكذا انتهت الحملة الصليبيّة الأولى في ذلك اليوم القائظ من شهر يوليو."

ولنقارن هذا الاحتلال بفتح المسلمين لمدينة القدس سنة ٦٣٨م، ويقول ي. ج. ويلز في كتابه "تاريخ العالم" واصفًا هذه الواقعة: "في أثناء المفاوضات حول تسليم مدينة القدس وُضِع شرط غير عاديّ: يتمّ تسليم المدينة إلى الخليفة عمر شخصيًا! وقطع الخليفة عمر مسافة ٦٠٠ ميل من المدينة إلى القدس برفقة رجل واحد، وراكبًا الجمل. وكانت عدّة السفر جراب الشعير وجراب التمر وقربة الماء وإناء للأكل... وهكذا - دون المرافقين والحراس - اجتمع عمر ببطريرك القدس، الذي كان تسلّم إدارة المدينة من أيدي الأمراء البيزنطيين. واتّفقا على تسليم المدينة دون أدنى مشكلة، وأخذ

البطريرك ضيفَه الخليفة في جولة في الأماكن المقدّسة داخل المدينة. وكان عمر في حالة السرور العميق، وكان يلوّح بشيء من الازدراء إلى أزياء وزينة الرجال من رفقة البطريرك."

وهكذا تسلّم المسلمون مدينة القدس سلمًا من غير أن يؤذوا أحداً، كما يليق ذلك بأصحاب القدس الشرعيّين، وكأنّ المدينة كانت تراثَهم الروحيّ عبر القرون. وتسلّم مدينة القدس من قِبَل المسلمين لم يكن فتحًا وتحريراً، بل كان رسالةً!

وأثناء احتلال الصليبيّين للمدينة مدة ثمان وثمانين سنة لم تطأ قدم مسلم أو يهوديّ تربةَ القدس، بينما كان منظّم الحملة الصليبيّة الأولى بيتر الصحراوي قد زار المدينة عدّة مرات قبل سقوطها من أيدي المسلمين.

وعندما استعادها السلطان صلاح الدين الأيّوبي من أيدي الصليبيّين سنة ١١٨٧م، مكّن اليهود من العودة إليها، وأقام حفل التآخي بين أطفال المسلمين واليهود المشهور في التاريخ. ولا مثيل في التاريخ لصنيع السلطان المنتصر هذا في العلاقة بين الشعبين المختلفين.

وقد احتلّ اليهود كاملَ مدينة القدس بعد الحرب عامَ ١٩٦٧م. فكيف كانت حينئذ "الحريّات الدينيّة" في "مدينة الأديان السماويّة الثلاثة"؟

وأعلن كبار رجال الكنيسة الكاثوليكيّة والروميّة - الأرثوذكسيّة والأنجليكانيّة في فلسطين بعضَ نتائج ذلك أمامَ اللجنة المختصّة في الأمم المتّحدة. وتؤكد هذه المعلومات ما كان يمكن أن نتوقّعه من نتائج سيطرة اليهود على المدينة.

وأخبر رئيس الكنيسة الكاثوليكيّة المطران سمعان أعضاء اللجنة بأنّ اليهود دمّروا كليًا الكنيسة الكاثوليكيّة السوريّة، التي تلاصق سور مدينة القدس القديمة. وقد دُمّر جانب من كنيسة القدّيسة آنا من أجل فتح الطريق أمام السيّارات الإسرائيليّة العسكريّة كي يمكنها الدخول من القدس الشرقيّة إلى الغربيّة. وتمّ تدمير كنيسة المخلّص القدّيس الأرمنيّة بشكل شبه كامل، وتحولت نوافذ الكنيسة إلى أعشاش الأسلحة الرشّاشة للجيش الإسرائيليّ، وقد سُرقت منها الأشياء البيزنطيّة

القديمة التي يعود تاريخها إلى القرن الرابع الميلاديّ.

وقال ديودوروس، رئيس أساقفة الكنيسة الروميّة - الأرثوذكسيّة إنّ الجنود اليهود داهموا كنيسة يوحنّا الصايغ (المعمدانيّ) في عين القرين، ونهبوا كلّ شيء وجدوه في الكنيسة. ثمّ كتبوا على جدرانها "مرحاض" واستعملوها لهذا الغرض فعلاً؛ كما نهبوا كنيسة القدّيس إلياس الواقعة في طريق بيت لحم وأخذوا الأيقونات والزهريّات والأثاث.

وفي زاغة نهب الجنود جميع المخطوطات القديمة من المسجد، كما نهبوا كامل ممتلكات الكنيسة القبطيّة هناك.

وأخيراً تمّ إحراق المسجد الأقصى، أكبر بقعة إسلاميّة مقدّسة في العالم، بعد الحرمين المكي والمدنيّ، وهذا الأمر نتيجة طبيعيّة للجوّ الذي كوّنته اليهود حول كل الأماكن المقدّسة غير اليهوديّة في القدس.

إنّ فقط من يرى في الحقائق التاريخيّة المذكورة سنّةً جارية، وليس محض صدفة، ليدرك أهمّيّتها الحقيقيّة. فمحور القضية، كما رأينا سابقًا، يتعلّق بالنظرة الإسلاميّة المختلفة تمامًا الى الأديان السماويّة، لأنّ الإسلام لا ينظر إلى اليهوديّة والنصرانيّة نظرة التسامح الدينيّ، بل نظرة الاعتراف بهما، فأماكن عبادتهم تحتفظ بقدسيّتها وحرّيّة ممارسة العبادة والطقوس.

وعلى عكس ذلك، إنّ أقصى وأكثر ما يمكن أن نتوقّعه من اليهود والنصارى في القدس وغيرها هو التسامح، ويظلّ التسامح دائمًا وضعًا مؤقّتًا وغير ملزم، لأنّه في أساسه وضع سلبيّ.

—٥—

وفي نهايّة هذا العرض الموجز أودّ لفتَ الانتباه إلى الحقيقة التي تغيب عن ذاكرة كثير من المسلمين. إنّ قوّة اليهود في مواجهة العرب نتيجة للدعم المتواصل والتضامن الحقيقيّ من اليهود خارج إسرائيل من شتّى أنحاء العالم؛ بينما ضعفنا نحن المسلمين نتيجة مباشرة

للفرقة والتخاذل، وفي بعض الحالات الصدام العلنيّ. إذن، فالمسألة مجابهة الوحدة بالفرقة.

وليس هناك شيء طبيعيّ أكثر من مواجهة الصهيونيّة الدوليّة الهجوميّة بالإسلام الدوليّ المدافع!

وإذا كانت يهود العالم قد اتّحدت كلّها لدعم الحرب العدوانيّة الظالمة، فالأولى بالمسلمين أن يستعيدوا حقّهم المشروع في الاتّحاد من أجل الحرب الدفاعيّة العادلة، ليقيموا السلام العادل.

وليس تضامن اليهود تضامنًا لفظيًا، بل هو تضامن حقيقيّ، كما تشهد لذلك المعلومات التالية:

- لقد تمّ استثمار أكثر من ٩٠٠ مليون دولار في الصناعة اليهوديّة من سنة ١٩٥٠ - ١٩٦٣م، وجُمعَت من أغنياء اليهود في الدول الغربيّة. وبعد ذلك تجاوزت استثمارات اليهود من كندا نصف مليار دولار.

- توفّر الهبات اليهوديّة المختلفة لدولة إسرائيل أكثر من ١٥ مليار دولار سنويًا. وقدّمت عائلة روتشيلد وحدها ١٠٠ مليون دولار بمناسبة عيد ميلاد أبي العائلة. وتوفّر "وكالة اليهود المتحدة" من ١٥٠ - ٢٠٠ مليون دولار سنويًا، وتقدّر الأموال التي أستقبلتها إسرائيل في شكل الهبات والهدايا على مدى عشرين سنة بأكثر من ٧.٥ مليارات دولار، أو ما يعادل ٣.١٠٠ دولار لكل يهوديّ من سكان دولة إسرائيل.

- وفي شهر أوغسطس سنة ١٩٦٧م عقد مؤتمر رجال أعمال اليهود من كافة أنحاء العالم، وحضره أكثر من ستّين مليارديراً من خمس عشرةَ دولة، ووضعوا برامج تطوير الاقتصاد اليهوديّ. إلخ...

ولا ينبغي لنا أن نكره اليهود من أجل هذا التضامن الرائع، بل علينا استقاء العبر من ذلك، لأنّنا يجب أن نكون أقوياء ومتّحدين مثلهم. عندئذ لن تقتصر فوائد

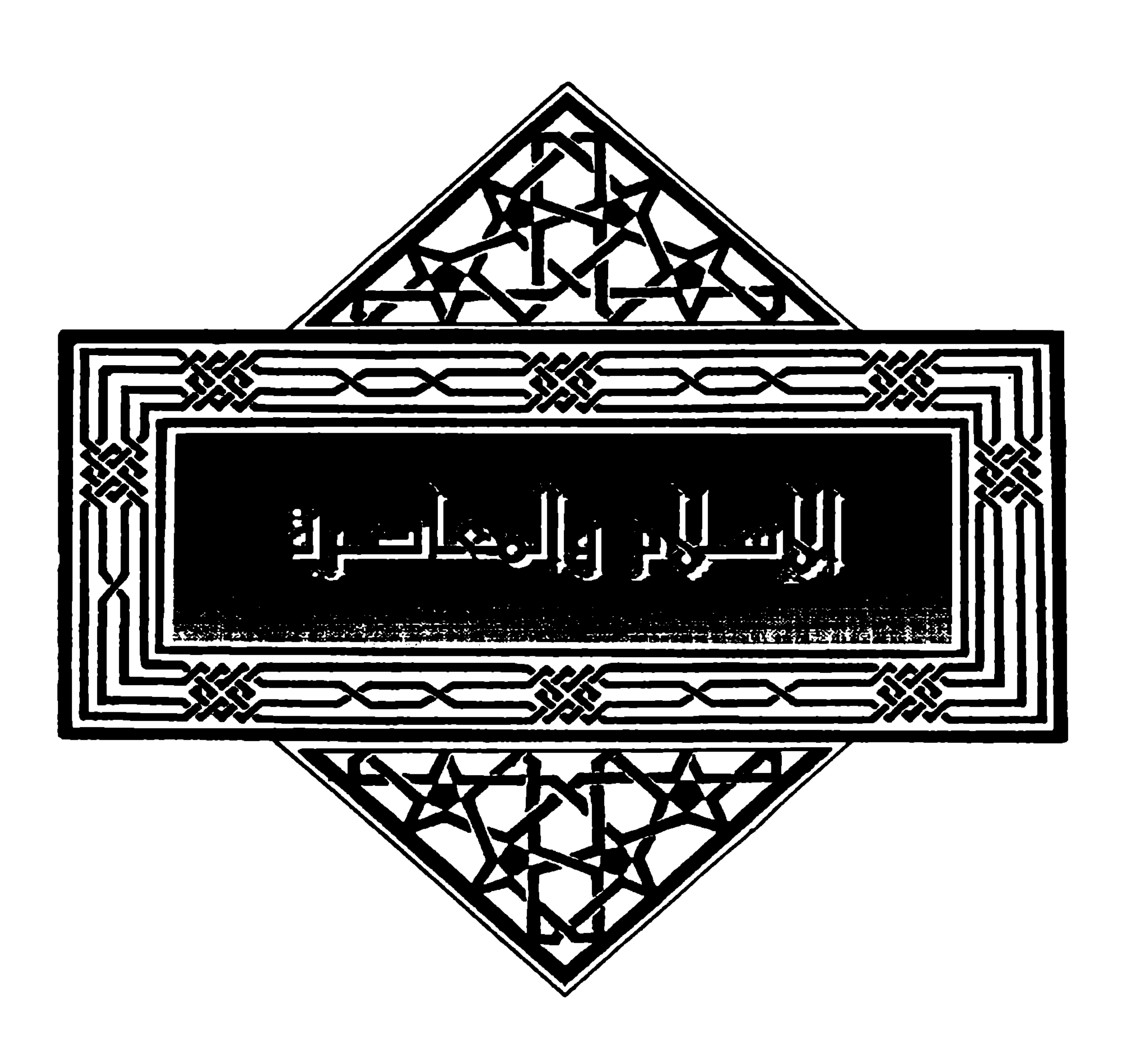
قوّتنا علينا فقط، لأنّ الضعفاء هم ظالمون لأنفسهم ولجيرانهم، إذ قد يجعلونهم أمام امتحان الهجوم عليهم.

ولم تأت فكرة إقامة دولة إسرائيل في عهد ضعف الإسلام السياسيّ الذي بلغ نقطة الصفر صدفةً. ولو لم يكن وضع المسلمين في نهاية القرن الماضي وبداية القرن العشرين على تلك الحال، لما تجرأت اليهود والبريطانيّون علي مجرّد تخيّل إقامة دولتهم في قلب الجسد الإسلاميّ الحيّ! إنّنا دفعناهم إلى سلوك هذه الطريق الخاطئة بضعفنا، وأعطيناهم فرصة للمغامرة والجشع، وسمحنا لأفكار جنونيّة أن تعشّش في عقولهم، ليس فقط مثل تلك عن دولة إسرائيل الصغرى أو الكبرى، بل وفي احتلال مساحات شاسعة من أراضي العالم الإسلاميّ. كنّا خرفانًا فتحولوا إلى الذئاب! فلنعد أقوياءَ صامدين، من أجلنا، ومن أجلهم، ومن أجل السلام في هذه المنطقة من العالم!

ويجب أن أنبّه: ليست الدعوة إلى ذلك من أجل عودة مدينة القدس إلى أيدي المسلمين، بل من أجل أن تعود مفتوحةً أمامَ جميع الأديان، ولتتفجّر منها ينابيع البشريّة الثلاثة الكبيرة الصافية من جديد!

كتبت المقالة في شهر اغسطس سنة ١٩٧٠م




الإسلام والمعاصرة

الإسلام والمعاصرة

ما مفهوم المعاصرة؟ هل هي مجموعة الأفكار والأهداف التي تحرك عالَمًا ما، أو هي واقع العالم العامّ لحظةَ التأمّل فيه. أو هي الأمران، الأول والثاني معًا؟

على أي حال، ليست المعاصرة حالة انسجام داخلي منطقي. إنها، من جهة، ثورة تقنيّة مستمرّة تصاحبها زيادة رخاء المجتمع، وانتشارُ التعليم والكلمة المكتوبة المبنية على عالميّة وسلميّة الأفكار وإنسانيّتها. وفي الوقت نفسه هي صراع الأفكار، و٧٠٠ مليون إنسان جائع، ونظرية مقياس التطوّر. ولا شكّ في أن موسيقى بوب في الفنّ (pop-art) واتّجاه منافاة العقل في الفلسفة (absurd) جزء من معاصرتنا. كل هذه التناقضات جزء مما نسمّيه بالمعاصرة. إنّ صرامةَ وانضباطَ حركة ماو تسي تونغ (maoism)، وحركة الانحلال النهلستيّة (nihilism) لدى الخنافس (hippie) جزء من المعاصرة أيضًا. فأيّ من تينك الحركتين معاصرة، أو هل العالم المعاصر "معاصر" فعلاً؟ وما المقاييس التي يجب استخدامها في ضبط ذلك؟

علينا ألا نجعل هذا المصطلح غير المحدّد مثاليًا، لأنّه - في نهاية المطاف - ليست معاصرتنا الحاضرة، شأنها كشأن أي معاصرة ماضية، سوى مجموعة الحقائق والأوهام في عصر ما.

فلنحاول، بدلا من ذلك، تقديم الإجابة عن السؤال الذي يوحي إليه عنوان المقال: هل جعل التطوّر والزمان الإسلامَ غير صالح؛ أو هل يقف الإسلام أمام أو وراء الزمن؛ وهل بقي هناك شيء مهمّ في رسالة الإسلام لتُقدّمه إلى عالمنا المعاصر؟

يمكننا تقديم إجابة دقيقة عن الأسئلة السابقة - كما سنرى هنا - فقط بمشاركة القارئ الكريم.

إنّه لا يمكن الحديث عن معاصرة الإسلام بشكل عام، ولكن يمكن أن نتحدّث هل حكم معيّن من الأحكام الإسلاميّة معاصر أو لا، أو هل هناك حكم من الأحكام

الإسلاميّـة يتعارض صراحـة مع احتياجات الإنسان وتطوّر المجتمع الإنسانيّ؟

إنّ الشهادة «لا إلَهَ إلاّ اللــهُ» أساس الإسلام، وهي الشهادة التي يتلفّظ بها كل مسلم مرات عديدةٍ يوميًا. ويقول أحدالعلماء، عند شرحـه لمعنى هذه الشهـادة: إنها تعني البِشارة بقيام الثورة الحقيقيّـة لتحرير الإنسان من جميع الآلهة الكاذبـة التي تسلّـطت على حياتـه، كما تعني إسقاط حقّ الكهنة ورجال الدين ورؤساء القبائل والأمراء والنبلاء وجميع أصحاب السلطة في التحكم في أرواح وحياة الناس، وعزو هذه السلطـة إلى اللـه وحده. لقد قضى القرآن الكريم عمليًا على الخضوع لأيّ شيء غير اللـه بهذه الشهادة، كما في قولـه تعالى: {فَلا تَخافُوهُمْ وَخَافُونِ إنْ كنْتُمْ مؤمِنينَ} آل عمران ١٧٥.

فبدلاً من الخضوع للآلهة الكاذبة من العظمَاء والوجهاء، أقرّ القرآن الكريم الخضوع للـه الواحد الأحد، وعلى أساس هذا الخضوع للـه وحده بَنى القرآن الكريم حريّة الإنسان وتحرّره من الخضوع لشيء آخر أو الخوف منه.

إنّ هذه الآلهـة الكاذبـة، التي كـانت في الماضي في صورة الأصنام و الفراعنـة والملوك المؤلّهـة، واليوم في صورة آباء الوطن ومنقذيـه والزعماء الحكماء الأوْحَدِين المعصومين، تتظاهـر بأنّ الفضل يعود إليها وحدها في كل ما يتمتّع الناس به من الحريّـة إلى الرفاهية – وفي الحقيقة الحرية والرفاهية اللتين لا أثر لهما!

أقنعت أجهزة إحدى كبري الدول الآسيويّـة شعبَها بأن الفضل في كل نجاح يتحقّق، ابتداءً من الزراعـة وزيادة المحاصيل وانتهاءً بالأساليب الحديثـة في إجراء العمليات الجراحية المعقّدة في مخ الإنسان، يعود إلى الزعيم الأوحد الملهم وحدَه؟ وعلى الجميع أن يرفع إليه الشكر وفي كل المناسبات.

وفي إحدى الدول الأوربيّـة، قبل مدّة وجيزة، قام أحد هؤلاء الموصوفين بالعظمـة والحكمـة الفائقـة (أو الزعيم الذي يعلو على الآخرين جميعًا بمقدار الرأس – كما وصفه شاعره الرسميّ) بفرض النظام الاستبدادي (الديكتاتوريّ)، ومن فرط حكمته قتل ملايين البشر؟ وفي دولـة أوربية أخرى، معروفـة بـ "دولة العلماء والشعراء"

تحمّل "الزعيم العليم" عن شعبه مشقّة التفكير واتّخاذ القرار -لأنه يفكر ويتّخذ القرار عن الجميع- بدفع شعبه والشعوب المجاورة إلى المهالك والمسالخ! وهناك أمثلة كثيرة، ولكنّ المثالين المضروبين من أبرز تلك الأمثلة.

وعلينا أن نتساءل الآن: في هذا العالم المكتظّ بسلطات الآلهة الكاذبة المطلقة، هل يبقى أيّ دور لرسالة الإسلام التي رفعت شعار عدم ألوهيّة الإنسان، وأن الإنسان لا يستحقّ هذه المنزلة، وأنّ الله واحد له الحكم والملك كلّه، وأن الإنسان خُلقَ ضعيفًا يكفيه شرفًا أن يكافح من أجل أن يكون إنسانًا حقيقيًا، بدلا من سعيه أن يكون إلهًا كاذبًا؟ إنّنا نرى هنا أنّ هذا المبدأ الإسلاميّ الداعي إلى تحرير الإنسان من الآلهة الكاذبة سيظلّ مبدأ معاصراً لا يعفو عليه الزمن.

إنّ القضيّة الثانية التي تبقى عصريّة - وسوف تظل عصريّةً إلى الأبد - هي قضيّة مساواة ومؤاخاة الناس جميعًا. لقد أُنزلت هذه القضيّة واضحة ومحدّدة في آيات كثيرة، مثل قوله تعالى:

{يَا أيّهَا الناسُ اتّقوا ربّكم الذي خَلقكم من نَفْسٍ واحدةٍ وخَلق منها زوجَها وبَثّ منهما رِجَالاً كثيراً ونساءً} النساء ١؛

وَقوله تعالى: {كان الناسُ أمّةً واحِدَةً فَبَعث الله النّبيّينَ مُبَشّرينَ ومُنْذِرينَ، وأنْزَلَ معهم الكتَابَ بالحقّ ليَحْكمَ بين النّاسِ فيمَا اخْتَلفوا فيهِ} البقرة ٢١٣؛

وَقوله تعالى: {يَا أيّها الناسُ إنّا خَلقْنَاكم من ذكَرٍ وأنْثَى وَجَعَلْنَاكم شُعوبًا وقبَائلَ لِتعَارَفُوا، إنّ أكرَمَكم عند الله أتْقَاكم} الحجرات ١٣؛

وَقد يستدعي المقام هنا التركيز على أن هذا المبدأ القرآنيّ في مساواة الناس جميعًا لم يبقَ مجرّد نظريّة وإعلان. ويمكننا أن نأسف على أنّ بعض المبادئ القرآنية الأخرى لم تَلقَ مثل هذا القبول العمليّ ولم تصبح جزءًا لا يتجزّأ من الشعور والحياة اليوميّة للشعوب الإسلاميّة، مثلما كان مع مبدأ المساواة وانتفاء فوارق اللون والقوميّة والنسب والمنزلة الاجتماعيّة.

ومن سَنَحت له الفرصة بأداء صلاة الجمعة في مسجد من مساجد الدول الإسلاميّة بين رجال بيض وسود اللون، فقراء وأغنياء، استطاع التأكد من مدى حقيقة

هذه المساواة. وليس هناك أحد يَعمل على إبراز وتأكيد هذه المساواة لأنّ الجميع يراها أمراً طبيعيًا فطريًا ويشعر بها كذلك. وفي أجزاء أخرى من العالم التي تحترم مبدأ مساواة الناس، أكتُسِبَ هذا المبدأ إمّا تعلّمًا أو أصبح عادة أو مظهراً من المظاهر، بينما نشأ مبدأ المساواة نفسه في العالم الإسلاميّ على صدق مطلق وتجنب التكلف الكاذب، يتنفّسه المسلمون مع الهواء ويتلقّونْه كابراً عن كابر كجزء من فهم العالم والتفاعل معه.

هل استطاع مفهوم المساواة بين الناسِ السيطرةَ بنفس الدرجة والقدر على الرأي العامّ وروح جميع الناس في العالم؟

لنترك جانبًا الأقطار المتخلّفة من العالم، لأنها في أصل الحديث عن المعاصرة لا تمثّل شيئًا، ولنتحدث عن الولايات الأمريكيّة المتّحدة، أكثر الدول المعاصرة تقدّمًا. إنّ القانون الذي يقرّر الحقوق المدنيّة ومبدأ المساواة بين البيض والسود في الحياة العامّة، قد صدر قبل عدة سنوات فقط (سنة ١٩٦٥م تحديداً) ما زال إلى الآن قانونًا تعارضه شريحة كبيرة من الأمريكيّين. وما زال التمييز العنصريّ بين البيض والسود قائمًا في جنوب إفريقيا وروديسيا. كان العلماء الألمان في الأربعينيّات يقدّمون دلائل علميّة تثبت عدم مساواة الناس. وليست هذه سوى أدلة قاطعة على وجود التمييز العنصري، الذي نشعر به في دول كثيرة تعلن المساواة شكليًا. ولا تتوقّف التفرقة المعاصرة على التميز في لون البشرة فقط، بلْ تظهر أعمق وأعمق في التفرقة القوميّة والطبقيّة والسياسيّة والفكريّة.

فهل يبقى للإسلام دور في عالم ما زالت فيه مساواة الناس حلمًا بعيدَ المنال، وما زالت التفرقة بين المخلوقات البشريّة - التي خلقها الله، سبحانه وتعالى- متساويةً مظهراً يوميًا؟ وهل المجتمع المعاصر، في صورته هذه، تجاوز مبدأ المساواة في الإسلام، أو أنّه - على نقيض ذلك تمامًا - مجتمع رجعيّ يتقدّمه الإسلام بمراحل ومراحل؟

في معرض حديثهم عن المعاصرة، لا يفرّق الناس بينها وبين التقدّم والثقافة والتربية وحريّة التحرّر من الخرافة والأحكام المسبقة على الأشياء، والإنسانيّة والتسامح. إنّ العالم المعاصر، في حقيقة أمره، عالم رجعيّ إلى أبعد حدود، وهذا أقلّ

ما يمكن القول عنـه! ولنورد هنا صورةً عن أكثر دولـه تقدّمًا وعصريّـةً:

بلغت نسبـة الطلاق ٥٠٪ من مجمـوع حالات عـقد القران في كـالفورنيـا سنة ١٩٦٠م، أي أنّ نصفها انتهى بالطلاق. و بالمعدّل نفسـه كانت تنتشر جرائم الأحداث وإدمان المخدّرات والأمراض النفسيّـة. وبناءً على تقرير إدارة شؤون الصحـة العامّـة سنة ١٩٦٨م عاش كل أمريكيّ خامس حالة الانهيار العصبيّ أو شارف عليها، ويعالج أربعة من بين كل ألف أمريكي في مستشفيات الأمراض النفسيّـة. سُجلت في مدينة نيو يورك سنة ١٩٦٣م ٢٣.٠٠٠ حالة إدمان المخدرات بين الأحداث، بينما يزيد هذا الرقم على ١٠٠.٠٠٠ حالة بناءً على معلومات غير رسميّـة. كشفت السلطات في كليّة هانتر في نيو يورك أن أكثر من ٥٠٪ من الطلبـة يدمنون المخدرات. وكانت سنة ١٩٦٤م في أمريكا تحدث جريمـة كل ١٢ ثانية، وجريمة قتل كل ساعـة، وسطو مسلّـح كل ٥ دقائق، وجريمة اغتصـاب كل ٢٥ دقيقـة، وسرقة سيارة كل دقيقـة (بناءً على تقرير مكتب التحقيقات الفيدراليّـة) .

ويكون من الخطأ أن نظن أنّ هذه هي حالة أمريكا وحدَهـا، ولكنّ الأمر يعود إلى كون الأمريكيّين يقدّمون للرأي العامّ معلومات أكثر من غيرهم فيما يتعلّق بالصفحات السود من مجتمعهم وحضارتهم، بينما تفعل ذلك الدول الأخرى على مضض واستحياء وفي نطاق ضيّق، أو يخفونها بكل وسائل متاحـة. ونجد هذه الظاهرة في جميع دول أوربّا، ولكنّـها تنتشر أيضًـا في كبرى مدن الصين واليابان، وتزداد هذه الظاهرة مع زيادة "تقدّم ومعاصرة" تلك الدول.

هل يبقى الأمل في قدرة تقدم هذه الحضارة وزيادة التعليم وتحسّن الأحوال الماديّـة ومستوى المعيشـة - ما دامت خارج قوانين الدين والأخلاق - على وضع الحلّ النهائيّ لهذه المشكلات التي لا نهاية لها؟

إنّ المعلومات المتوفّـرة لدينا لا تشجّع كثيراً ولا تفتح باب الأمل. سجّلت السلطات الأمريكيّـة سنة ١٩٥١م ٣.١ حادثة قتل على كل مائة ألف أمريكيّ، و٥ حوادث سنة ١٩٦٠م، و٩ حوادث سنة ١٩٦٧م. إذن، على مدى ١٦ سنة ازدادت جريمة القتل ثلاث مرات!

فهل بقيت هناك كلمة يمكن أن يقولها الإسلام لمثل هذا المجتمع "الرجعي" المعيب؟

تعالوا إلى مائدة القرآن الكريم لنقرأ الآيات التاليّة:

{ولله المشرقُ والمغربُ فأينما تُولوا فثمَّ وَجْهُ اللهِ} البقرة ١١٥؛

{قلْ إنْ تُخفوا ما في صُدوركم أو تُبْدوه يَعلمْه اللهُ، ويَعلمُ ما في السماوات والأرضِ، واللهُ على كل شيء قَديرٌ} آل عمران ٢٩؛

{وأنزل عليك الكتابَ والحكمةَ وعلّمَكَ ما لم تَكنْ تَعلمُ، وكان فضلُ اللهِ عليك عظيمًا} النساء ١١٣؛

{إنّ اللهَ فالقُ الحَبِّ والنَوى، يُخرج الحيَّ من الميّت ومُخرجُ الميّتِ من الحيِّ، ذلكم اللهُ فأنّى تُؤفكون... وهو الذي أنزلَ من السماءِ ماءً فأخرجْنَا به نَباتَ كل شيء فأخرجْنَا منه خَضِرًا نُخْرِجُ منه حَبًّا مُتَراكِبًا، ومن النخل من طلْعها قِنْوانٌ دانيةٌ وجنّاتٍ من أعنابٍ والزيتونَ والرمّانَ مُشْتَبِهًا وغيرَ متشابهٍ، أنْظروا إلى ثمره إذا أثمرَ وينْعه، إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يُؤمنونَ} الأنعام ٩٥، ٩٩؛

{إنّ اللهَ يَأمرُ بالعدل والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُربى ويَنْهى عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكرِ والبَغْيِ، يَعِظكم لعلّكم تَذكّرونَ. وأوْفوا بالعَهْدِ إذا عاهَدْتمْ ولا تَنْقضوا الميكالَ بعدَ تَوكيدها وقد جَعلْتُمُ اللهَ عليْكم كفيلاً، إنّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلونَ} النحل ٩٠، ٩١؛

{وَمِنْ آيَاتِه الليلُ والنهَارُ والشمسُ والقَمَرُ، لا تَسْجُدواْ للشمسِ والقَمَرِ واسْجُدوا للهِ الذي خَلَقَهُنّ إنْ كنْتمْ إياه تَعبدون} فصّلت ٣٧؛

{ومن آياته أنّك تَرى الأرضَ خَاشعةً فإذا أنْزلْنا عليهَا الماءَ اهتزّتْ وربَتْ، إنّ الذي أحْياهَا لَمُحْيي المَوتى، إنّه على كلّ شيءٍ قَديرٌ} فصّلت ٣٩؛

{وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تَعْبدون إلاّ اللهَ وبالوالدين إحْسانًا وذي القُرْبَى واليَتامىَ والمَساكين، وقولوا للناس حُسْنًا وأقيموا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ} البقرة ٨٣؛

{فاسْتَبقوا الخيرات، أينما تَكونواْ يَأتِ بكمُ اللهُ جَميعًا} البقرة ١٤٨؛

{ليس البِرَّ أنْ تُولّواْ وُجوهَكم قِبَلَ المشرقِ والمغربِ ولكنّ البِرَّ مَن آمنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ والملائكةِ والكتَابِ والنبيّينَ وآتى المَالَ على حُبِّه ذَوي القُرْبَى واليَتامىَ والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائلينَ وفي الرقابِ، وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ والموفونَ

بعهدهم إذا عاهدوا، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون} البقرة ١٧٧؛

{لن تنالوا البر حتى ينفقوا مما تحبون} آل عمران ٩٢؛

{يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود... وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله} المائدة ١ و ٢؛

{يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون} المائدة ٩٠؛

{قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون. ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط، لا نكلف نفسا إلا وسعها، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى، وبعهد الله أوفوا، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون} الأنعام ١٥١ و ١٥٢؛

{يسألونك ماذا ينفقون، قل العفو} البقرة ٢١٩؛

{إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا. الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتهم الله من فضله} النساء ٣٦ و ٣٧؛

{ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين} النحل ١٢٥؛

{اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر} العنكبوت ٤٥؛

{أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت، فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر} الغاشية ١٧ - ٢٢؛

{أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم} يوسف ١٠٩؛

{يَا أَيُّهَا الذي آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ ولَوْ عَلَى أَنْفُسِكم والوَالدينِ والأَقْرَبِينَ، إنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فاللهُ أَوْلَى بِهِمَا، فَلا تَتَّبِعُوا الهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا} النساء ١٣٥؛

{فَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّه والمسْكِينَ وابْنَ السَبِيلِ، ذلك خَيرٌ للذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ، وَأولئكَ هُمُ المُفْلِحُونَ} الروم ٣٨؛

{أَنّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِن ذَكرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكم مِنْ بَعْضٍ} آل عِمْران ١٩٥؛

{للرِّجَال نَصِيبٌ مِمَّا كسَبُوا وللنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكتَسَبْنَ} النساء ٣٢؛

{يَا إيُّهَا الذينَ آمَنُوا إنْ جَاءكم فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمَاً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا علىَ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} الحُجُرَات ٦؛

{والذينَ إذَا أصابَهمُ البَغْيُ هم يَنْتَصِرُونَ ، وَجزاء سيئَةٍ سيِّئةٌ مِثْلُها ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ على اللهِ إنّه لا يُحِبُ الظَالمِينَ . ولِمَنْ انْتصرَ بَعْدَ ظُلمِه فَأولئكَ ما عَلَيهِم مِن سَبِيل ... إنَّمَا السبيلُ على الذينَ يَظْلِمُونَ النَاسَ وَيَبْغُونَ في الأَرضِ بِغَيْرِ الحَقِّ، أولئكَ لهم عَذَابٌ أَلِيمٌ} الشورى ٣٩، ٤٢؛

{يَا أَيُّهَا الذين آمنُوا اجْتَنِبوا كثيراً مِنَ الظَنِّ، إنَّ بَعْضَ الظنِّ إثْمٌ ولا تَجَسَّسُوا ولا يَغْتَبْ بَعْضُكم بَعْضَاً، أَيُحِبُّ أَحدُكم أَنْ يَأْكلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتَاً، فَكرِهْتُمُوهُ، واتَّقُوا اللهَ} الحجرات ١٢؛

{فَلاَ تَخْشَوُا النَاسَ وَاخْشَوْنِ، ولا تَشْتَرُوا بِآيَاتي ثَمَنًا قَلِيلاً} المائدة ٤٤؛

{وَلْتَكنْ منكم أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلىَ الخيرِ ويأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكَرِ} آل عِمْرَان ١٠٤؛

{سُبْحَانَ الذي خَلَقَ الأزوَاجَ كلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ ومِمَّا لا يَعْلَمُونَ. وآيَةٌ لهمُ الليلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإذَا هم مُظْلِمُونَ. والشمسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذلك تَقْدِيرُ العَزِيزِ العليم. والقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتى عَادَ كالعُرْجُونِ القَدِيمِ. لا الشمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ ولا الليلُ سَابِقُ النَّهَارِ، وكلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} يَس ٣٦ - ٤٠؛

ويمكننا مواصلة سرد آيات قرآنيّة كثيرة مُمْتِعَة من هذا القبيل، ولكن أليست الآيات التي سردناها آنفًا تعطيكم انطباع المعاصرة؟ كيف يمكن أنْ تتحدّث عن مشكلات كانت تهمّ الإنسان والمجتمع قبل ألف عام، من غير أن تمسّ حياةَ الإنسان اليوم؟ قد تكون بعض الحقائق التي أوردناه آنفًا في مقالتنا هذه تساعد على الإجابة عن هذا السؤال.

ولكن هناك في الإسلام أشياء من واجبنا الإقرار بعدم معاصرة الإسلام فيها، وعلينا أن ندافع عن ذلك.

في دولة معاصرة متقدّمة - كما تقول عن نفسها وكما يراها الآخرون - يطاردون الناس بسبب اعتقادهم، لأنّ هناك حقائقَ رسميّةً، ومن يعرب عن معارضته العلنيّة لها يكون مصيره السجن!

فإذا كان هذا التصرّف عصريًا، ويؤكد بعضهم أنّ التقدّم يمضي نحو التوافق والتشابه والتسلسل، أيْ نحو تحديد استقلال وحريّة الشخصيّة، فإنّ الإسلام في هذه النقطة دين رجعيّ غير عصريّ. لقد أعلن الإسلام مبدأ الحريّة الدينيّة، ومن ثم حرية الاعتقاد، وطبّق هذا المبدأ في حياة الناس والتزم به. نحن، معشر المسلمين، نؤمن بجميع الآيات القرآنيّة ونراها كلّها كريمة متساويةً، ولكنّ بعض غير المسلمين يرى أن أسمى وأشرف آية قرآنيّة هي الآية التي تُعلن مبادئ حريّة الاعتقاد، و هي الآية ٢٥٦ من سورة البقرة «لا إكراهَ في الدينِ، قد تَبَيَّنَ الرُشدُ من الغَيِّ».

إن قضيّة حريّة الضمير والاعتقاد والتسامح قضيّة أخلاقيّة قبل كل شيء، لذلك يبقى على كل إنسان أن يجيب في داخل نفسه إلى جانب أيّ مبدأ من المبدأين المتناقضين يقف؟ إنّ الإسلام، بطبيعة الحال، يقف بكل صرامة مع مبدأ الحريّة والتسامح ويؤكد انتصار هذا المبدأ، على الرغم من التوقّعات المظلمة من دعاة الماديّة والارتقاء.

ولنذكر أيضًا مشكلة المسكرات والمخدّرات التي يُحرّمها الإسلام تحريمًا قاطعًا. يُستَهلَك سنويًا في دولة فرنسا، الدولة العصرية والمتقدّمة بلاشكّ، أكثرُ من ملياري لتر من الخمر؟ وسيقول لكم من له اطّلاع على هذه الأمور إنّ مصانع الخمور تنتج اليوم

أكثر من ٥٠٠ نوع من أنواع الخمور، وأن هناك ما يُعرَف باسم "ثقافة شرب الخمر"! ومن علامات "رُقِيِّ طبقة" الإنسان أن يعرف - أو يتظاهر بالمعرفة - أكبر عدد من أسماء الخمور (التي غالبًا ما تداعب وتغازل خيال الإنسان)، وأن يتذوّقها ويكون له رأي شخصيّ في طعمها، ويشعر بالفوارق الدقيقة في نكهتها. إنّ المسلم الممتنع عن تناول الخمور جاهل بهذه الأمور لذلك يظهر "بربريًا" في المجتمع المعاصر!

إنّ الإنسان المعاصر غريب وعجيب. كأنّ كل وظيفة الإنسان فيه استأثرت به كله دونما علاقة بوظيفته الأخرى. فهو من جانب يطوّر صناعة الخمور ويزيد من إنتاجها وجودتها وأنواعها، وفي الوقت نفسه - هذا الإنسان المعاصر أثناء أداء وظيفته الأخرى - يطبّق بكل دقّة الأساليبَ العلميّة لإثبات أضرار الخمور ويحذّر من خطرها. قد يحدث لكم عند قراءة الجريدة أن تقع عينكم على دعاية لـ "سيزار" أو "بيتر" التي يُفتَرَض من كل مثقّف معاصر تناول واسع لها وتذوّقها، وفي الصفحة التالية سيقرأون أرقامًا مخيفة عن زيادة أعداد مدمني الخمور وأعداد المعاقين من جرا تناولها، أو معلومات مؤكدة أنّ ٥٠٪ من الجرائم وحوادث المرور ناتجة عن تعاطي الخمور؟ كل هذه المظاهر صورة من سخف "الإنسان المعاصر" الذي ما عاد يعيش بعدُ، بل يؤدّي بعض وظائف الإنسان.

فإذا نظرنا إلى سلطان الخمور المطلق على المجتمع المعاصر، يجب أنّ نقرّ بكل فخر بأنّ الإسلام رجعي وغير معاصر!

وإذا تذكّرنا، من جانب آخر، محاولاتِ منع تصنيع وبيع الخمر في أكثر الدول تقدمًا في العالم، ابتداءً من المنع المطلق في أمريكا في الثلاثينيات الذي انتهى بالفشل الذريع، والمنع الجزئيّ في الدول الإسكندينافيّة، إلى التحديد الزمني لتناول الخمور في بعض الدول، أدركنا أن لدينا مبرّرات كثيرة للجزم بأن الإسلام بأحكامه قد سبق العالم المعاصر بقرون، وأنّ الاسلام قد سبق العالم المعاصر بمراحل. يبدو أنّ العالم المعاصر في هذه المسألة "غير معاصر"!

وهناك أمثلة عديدة لـ "رجعيّة الإسلام" أيضًا. فبناءً على التقارير الرسميّة كان إنفاق الدول المتقدّمة على موادّ التجميل أكثر من ١٥ مليار دولار، في وقت يكفي هذا

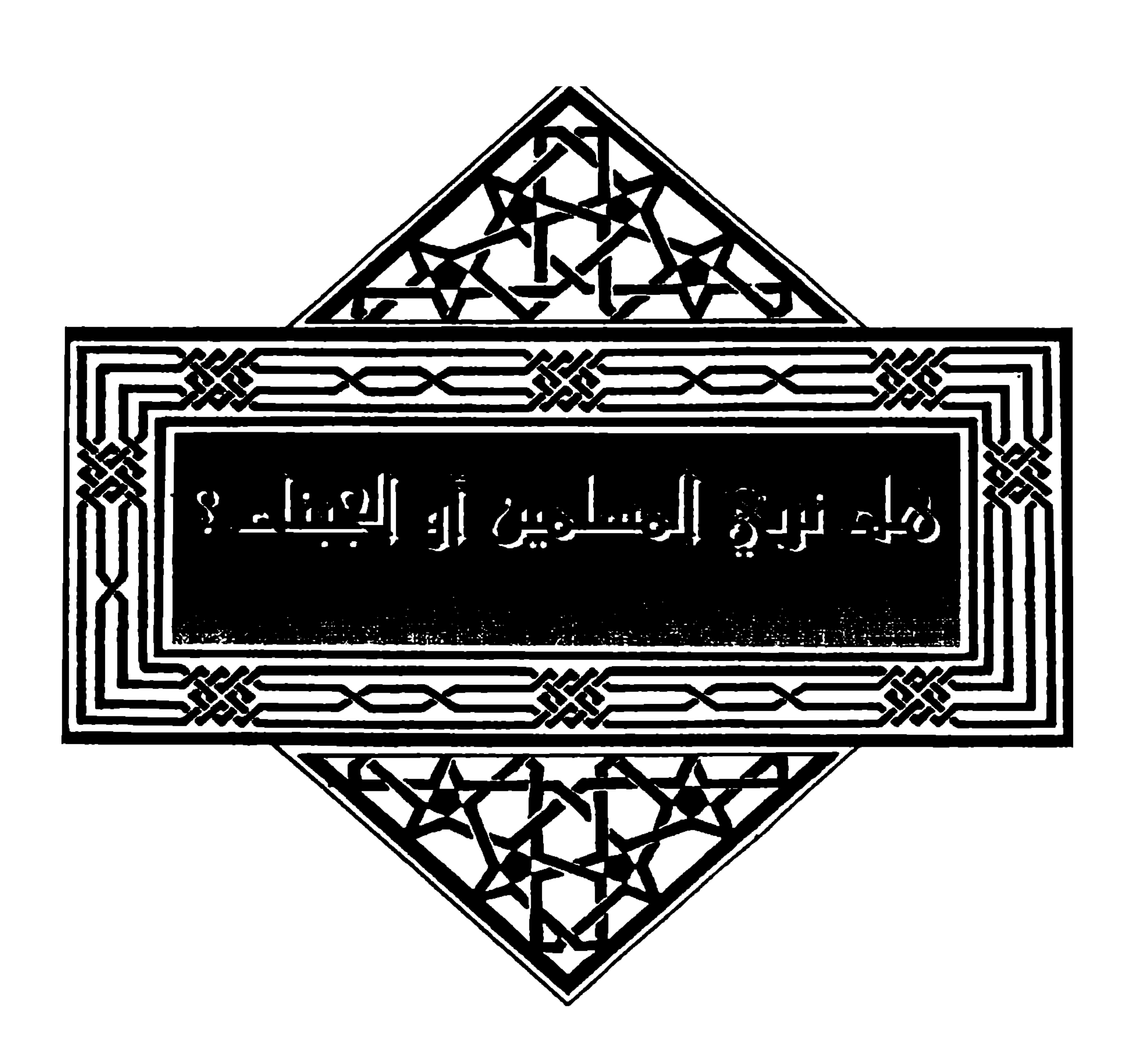
المبلغ لإطعام ما يزيد على ٧٠٠ مليون إنسان جائع في العالم. وبناءً على تقارير مجلّة "نيوز ويك" الأمريكية بلغت الكماليات خُمسي الإنتاج الإجمالي في أمريكا. وإذا كانت هذه هي "المعاصرة" - كما يفهمها كثيرون - فإنَّ الإسلام غير معاصر، لأنَّ روحَ وأحكام الإسلام تتطلب البساطة والتضامن والتواضع.

ويمكننا الاستمرار في ذكر حقائق مختلفة في هذا الصدد، لإبداء بعض الملاحظات المهمّة، ولكن قد نستنتج منها النتائج التي قد يكون جانب منها غيرَ محدَّد المعالم. ولكننا نرى الآن بكل وضوح أنّ قضيّة معاصرة الإسلام أو عدم معاصرته قضيّةٌ فهمنا الشخصيّ وموقفنا من ذلك وفلسفتنا. إنّ الجواب عن هذا السؤال يتوقّف علي فهم القارئ الشخصيّ لمفهوم التقدّم والمعاصرة والحضارة والإنسانيّة، أو فهمه لمعنى الحياة، أو بعبارة أخرى ما الذي يعتقده في ذلك كلّه.

إذن، بقي أن ندعُوَ القارئ الكريم - انطلاقًا من الحقائق المعروضة أمامَه هنا والحقائق التي يعرفها مسبقًا، وبناءً على اعتقاده الشخصيّ - ليجيب عن التساؤل بنفسه. طبعًا، إنْ كان هذا التساؤل في أصله قائمًا. أ. هـ .

كتبت المقالة في شهر مارس سنة ١٩٧١م.




هل نربي المسلمين أو الأبناء ؟

هل نربي المسلمين أو الجبناء ؟

أتخيّل هذه المقالة القصيرة حواراً مع الآباء والمربّين الدينيّين.

وافيت قبل أيّام صديقي الحميم - المؤمن المخلص الذي يعيش للإسلام - وهو يكتب مقالا في تربية الشباب المسلم. وقرأت المقال قبل أن يأخذ شكله النهائيّ، ومعالم المقال وأهدافه الرئيسة كانت معروضة بوضوح وفي تركيزه على التربية في كنف الإسلام يدعو صديقي الوالدين إلىَ تنشئة النشئ على مكارم الأخلاق، حسن التعامل مع الناس، والتواضع وعدم الرغبة في البروز والرأفة والعفو والاستسلام للقدر والصبر. وينبّه المربين إلى ضرورة إبعاد الشباب عن الشارع وأفلام العنف والجرائم ورعاة البقر، والمطبوعات الضارّة وممارسة أنواع الرياضة التي تدفع إلى العنف والمجاراة. إنّ أكثر كلماته وروداً وبروزاً في المقال هي كلمة الطاعة. على الشباب أن يطيعوا الوالدين في البيت، والإمام في الكتاتيب، والمدرّس والأستاذ في المدرسة، والشرطيّ في الشارع، وغداً المدير والمسؤول والرئيس في العمل!

ولكي يجسّد أهدافه المثاليّة يصوّر لنا الكاتب ولداً يتجنّب كل هذه الأخطاء، فليس مشاغبًا في الشارع، ولا يشاهد أفلام العنف في السينما، بل يواظب على حضور دورات مفيدة، ولا يلعب كرة القدم لأنها رياضة عنف، ولا يغازل البنات لأن والده سوف يختار له زوجة عندما يكبر. لا يرفع صوتًا أبداً، ولا يُسمَع له حسّ، ويشكر للجميع ويعتذر باستمرار. ولم يكمل الكاتب قصته في هذا الاتّجاه، لكنّنا نستطيع إتمامها على هذا المنوال: يسكت إذا خدعوه في البيع، لا يردّ إذا ضربوه في الشارع لأن ذلك لا يليق. أو بعبارة أخرى: إنّه مثال لمن لا يكنّ شراً لأيّ مخلوق.

أدركت معنى ذلك القول المأثور "إنّ الطريق إلى النار ممهّد بالنوايا الحسنة" وأنا أقرأ المقال. ليس فقط هذا، بل لقد أدركت جزءاً من أسباب تخلّفنا وانحطاطنا في القرون الأخيرة: إنها تربية خاطئة للنشء.

في الحقيقة، نحن نربّي شبابَنا تربية خاطئة منذ قرون، نتيجة لعدم فهمنا للفكر الإسلاميّ الأصيل. في وقت كان أعداء الإسلام من المستعمرين يستولون على الدول الإسلاميّة دولةً تلو دولة، اعتماداً على علومهم وغطرستهم وعدم مبالاتهم بنا،كنّا نربي أجيالنَا بأن يكنّوا الخير للجميع، وليستسلموا لطوارق القدر، وليتحلّوا بالطاعة، وليطيعوا وليّ الأمر طاعة عمياء، لأنّ كل حكم يأتي من عند الله!

لا أعرف بالضبط مصدر فلسفة الطاعة الحزينة هذه، ولكني أعرف يقينًا أنّ الإسلام ليس مصدرها، لأنها تؤدي وظيفتين تكمل إحداهما الأخرى بصورة غير مباشرة: من جانب تميت الأحياء، ومن جانب آخر لإبرازها هذه المثل الخاطئة باسم الإسلام تحشد حول الإسلام أجيالا ماتت قبل أن تبدأ حياتها. إنها تحيل كائنات بشرية سويّة إلى أناس لا يثقون في أنفسهم، الذين يطاردهم شبح الذنب والإدانة، لتصبح هذه الفلسفة موئلاً لأقزام البشر الذين يهربون من الواقع بحثًا عن الملجأ في الاستسلام السلبي ومواساة النفس.

بهذا التفسير فقط يمكن توضيح الحقيقة بأنّ رواد ورموز الفكر الإسلاميّ - أو كما هم يسمّون أنفسَهم - يلاقون الهزائم في أيّ مواجهة، في عهد الصحوة المعاصرة. هؤلاء المقيّدون بفلسفة المناهي والتساؤلات، على الرغم من كونهم يتّصفون بالتقوى والأخلاق الساميّة، يُظهرون أنّهم أقلّ شأنًا وغير أكفاء في مواجهة أناس أقلّ نزاهة وثقافة منهم، ولكنهم حازمون وأصلاب، وأعداء يعرفون جيداً ما الأهداف التي يسعون إليها، لذلك لا يلتفتون إلى الوسائل التي ستُبلّغهم إيّاها.

أليس من الطبيعيّ أن يقود الشعوب الإسلاميّة رجال تربَوْا في الإسلام واستلهموا الطريق من الفكر الإسلاميّ؟ ولكنّهم لا ينجحون في ذلك لسبب واحد: إنّهم قد رُبّوا ليكونوا أتباعًا لا قادةً.

أليس من كنه المنطق أن يكون المسلمون المخلصون ركائز الثورة على المستعمر الأجنبيّ والأفكار الأجنبيّة الدخيلة والطغيان السياسيّ والاقتصاديّ؟ ولكنّهم غير

قادرين على ذلك، لنفس هذا السبب الأساسيّ، لأنّهم تعلّموا ألاّ يرفعوا صوتهم مجلجلاً، وأن يقولوا : سمعًا وطاعةً!

إنّنا لم نربِّ المسلمين، بل ربّينا الجبناء مستسلمين، وديعين، خدمًا. فطوبى لكل نظام بأشباه الرجال من أمثالنا!

ألسنا نحن مشاركين في استعباد واضطهاد شعوبنا، في هذا العالم المليء بالفتن والرذائل والملهيات والرق والظلم، إذا طالبنا الشباب بالابتعاد عن كلّ ذلك، ليكون هادئًا مهذّبًا مطيعًا؟

هناك جوانب عديدة لحالتنا النفسيّة هذه، ومنها الحديث المتكرّر الدائم عن تاريخنا. إنّهم يحدّثون الشبابَ عمّا كان عليه الإسلام في التاريخ، وليس عمّا يجب أن يكون عليه! يعرف شبابُنا كثيراً عن قصر الحمراء والفتوحات الماضية وبغداد - مدينة ألف ليلة وليلة - ومكتبات سمرقند وقرطبة الزاخرة. إنّ عقليّة الشباب توجّهت كليًّا نحو التاريخ المجيد وبدأ يعيش على ذلك التاريخ. إنّ التاريخ مهمّ بلا شك، ولكنّ ترميم سقف المسجد بجوار بيتك أنفع للإسلام من معرفتك بأسماء جميع المساجد الشهيرة التي أقامها أسلافنا. ينتاب الإنسان شعور أحيانًا بضرورة إحراق كل هذا التاريخ المجيد الذي أصبح ملاذاً لحسراتنا ونحيبنا ولحياتنا المبنيّة على الذكريات! وقد يكون من الأفضل أن نهدم كل تلك الآثار البديعة، إن كان ذلك شرطا لأن تدرك أخيراً أنّنا لا نستطيع العيش من التاريخ، وأنّنا يجب أن نعمل للإسلام شيئًا بأيدينا!

إنّه لمن صريح التناقض أن تقدّم لنا تربية الذل والانصياع والطاعة هذه باسم تربية القرآن، القرآن الذي يذكر مبدأ الجهاد ومقاومة الظلم في أكثر من خمسين موضعًا. وأنا أجزم هنا بأنّ القرآن الكريم قد حرّم هذا النوع من الطاعة. فبدلا من طاعة العظماء والسلاطين الزائفين، أقرّ القرآن نوعًا واحداً من الطاعة فقط، الطاعة لله وحده! ولكن القرآن بنىٰ على هذه الطاعة المطلقة لله حرّيّة الإنسان وتحرّرَه من أي طاعة أخرى أو خوف من أحد.

إذن، ما الذي يمكن أن ننصح به الآباء والمربّين؟

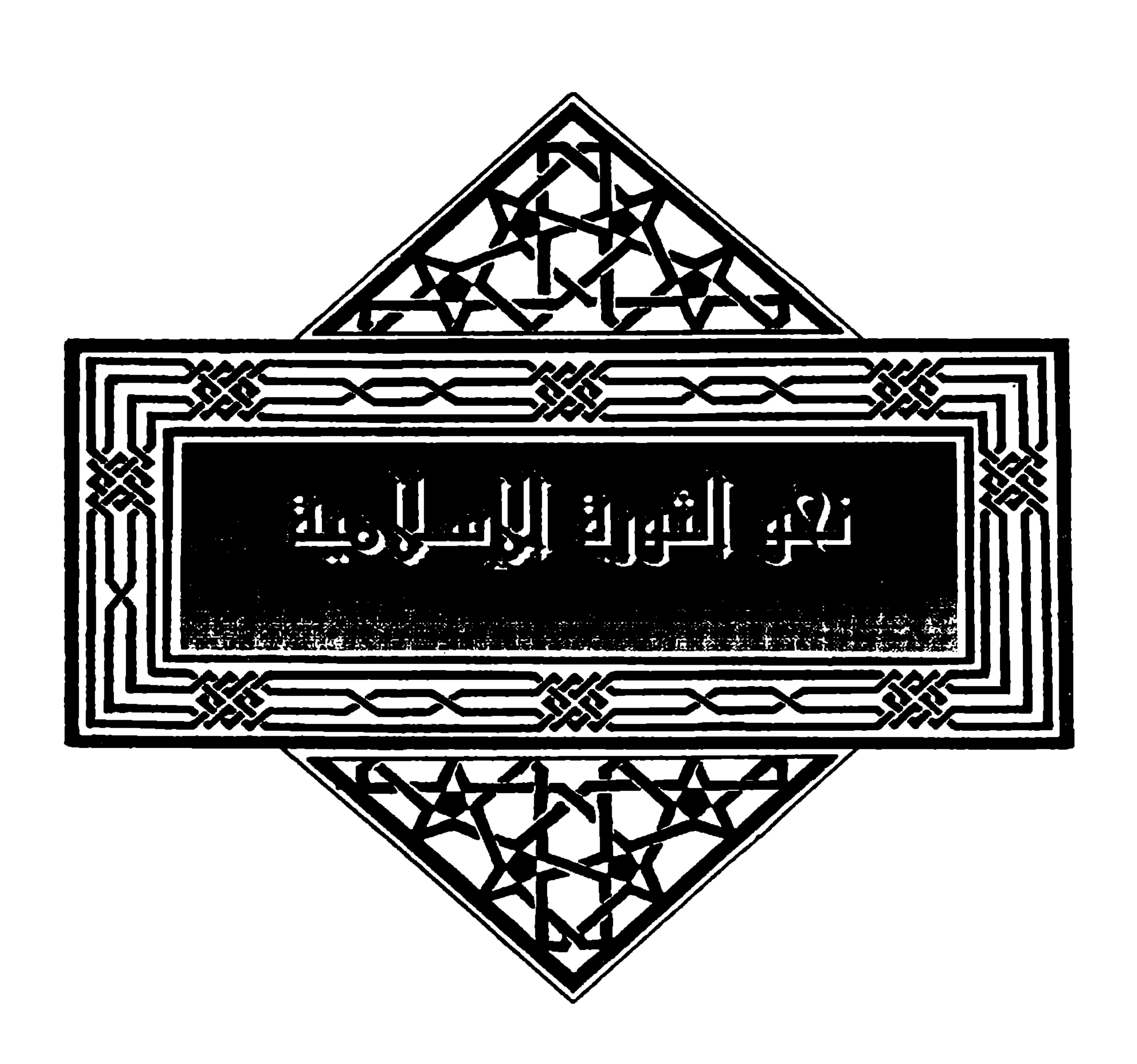
يجب أن ننبّههم، قبل كل شيء، ألاّ يقتلوا هذه الطاقة في الشباب. عليهم أن

يصوغوا هذه الطاقة وأن يوجّهوها ، لأنّ الشباب مسلوب الإرادة لا ينفع الإسلام ولا سبيل لإعادة حيويّة الإسلام بأناس "أموات". ولكي يربّوا المسلمين عليهم أن يربّوا رجالا كاملين، وليحدّثوهم عن العزّة أكثر من الطاعة، وعن الشجاعة أكثر من التواضع، وعن العدالة أكثر من الشفقة. ليخرجوا لنا جيل العزّة والمهابة الذي سوف يقف على قدميه بثبات ليمضي في طريقه من غير أن يسأل عن الإذن من أحد.

ولنعلم جيّداً: إنّ تقدّم الإسلام - مثل أيّ تقدّم آخر - سيتحقّق على أيدي الشجعان الثائرين، لا على أيدي الوديعين المطيعين.

كتبت المقالة في شهر نوفمبر سنة ١٩٧١م




نحو الثورة الإسلامية

نحو الثورة الإسلامية

تساؤل

نشرع في كتابة هذه المقالة انطلاقاً من الأساس الذي نتّفق عليه جميعاً، وهو ضرورة تغيير الأوضاع في العالم الإسلاميّ. إن أعباء الماضي أثقل هنا من أيّ مكان آخر، وكأنّ كثيراً من الأمور تستصرخ بالجيل الذي سوف يقضي عليها هدماً؛ والشوق إلى تغيير الأوضاع يساوي الشعور بثقل الأعباء والأوضاع القائمة التي لا معنى لها.

ولكن من يقدر على القيام بتلك الحركة الإصلاحيّة وإلى أيّ اتّجاه سوف تتّجه؟

هناك طائفتان من الناس فقط قادرتان على تحمّل ذلك، وهما المسلمون والشيوعيّون، وليست هناك طائفة ثالثة تتوفر فيها تلك العناصر اللازمة، مثل استكمال الصفات والقدرة على التغييرات الجذريّة والحزم، التي تجعلها قادرة على الاستجابة لمتطلبات الظروف الحاليّة.

إنّ الإسلام والشيوعيّة، وكلاهما ثورة(١) في هذا العالم، يتضمّنان الهدم والبناء. فبينما تعني الثورة الإسلاميّة إزالة أعباء الماضي السلبيّة، تسعى الثورة الشيوعيّة لهدم وإزالة ذلك الماضي كليّاً. والإسلام حركة نحو المستقبل اعتماداً على الأوضاع القائمة، وجوانب تراثنا الصالحة لذلك، وطبائعنا وخصائصنا، وإدراكنا ومبادئنا العقديّة، لذلك تفترض هذه الحركة استمرارَ التفاعل الكونيّ الذي كان قد انقطع في لحظة ما من التاريخ. ومع هذه الحركة المستمرّة إلى الأمام يتضمّن الإسلام العودة المستمرّة، العودة إلى قيمنا الذاتيّة وينابيعنا الروحيّة الأصيلة.

وعلى نقيض ذلك، إن الشيوعيّة ثورة خارجيّة، تقطع استمرار الماضي، لأنها عمليّة ميكانيكيّة للهدم وإعادة التنظيم، وتغيير أنظمة الملكيّة ودوائر الدولة. ورغم كونها خارجة عن القانون ودخيلةً غريبة، فالشيوعيّة تفاعل ممكن وخطر واقعيّ.

وكلتا الثورتين تسعى لتغيير عالمنا، ولكن في الحالة الأولى سوف يتمتّع العالم

الإسلاميّ بإعادة التنظيم ليصبح مصاغًا من جديد، وفي الحالة الأخرى قد يصبح قويًا ومنظماً ولكنه عندئذ لن يكون عالماً إسلامياً.

ويمتدّ بين هذين الاحتمالين واقعُنا المشحون بأمور كثيرة لا تقبل أيّ تفسير، واقعنا الذي تمتزج فيه أشكال الخرافات التي أوشكت على الوثنيّة، بالنتاج الروحيّ الأروبيّ من أحطّ طبقات مجتمعه. وهناك أيضًا نزعة إلى القيم الأمريكيّة "للاستعمال الظاهريّ فقط"، مع التيارات الفكريّة بلا معنى أو هدف، والحركات الروحيّة الساقطة، والملاهي الليليّة، والخمور والمخدّرات - السياسيّة والحقيقيّة -، والماديّة الممجوجة، وترتفع فوق ذلك كلّه دعايات لم تعد تعني لأحد شيئًا ولا يصدّق بها أحد.

وإن مُنِعت الشيوعيّة فالإسلام ممنوع منعًا مزدوجًا غريبًا في كل مكان: لا يُسمَح بالهجوم السافر عليه، ولكن أيضًا غير مسموح بالدعاية له والمطالبة بتطبيقه الحقيقيّ في تنظيم شؤونه الاجتماعيّة والسياسيّة. وهذا الفكر العقيم في الفكر الإسلاميّ المسيطر على أغلب الدول والمجتمعات الإسلاميّة هو أحد العوائق الرئيسيّة أمامَ أيّ تقدّم حقيقيّ وبحث جادّ عن المخرج.

ولكنّ هذا المنع لا يعني كثيراً بالنسبة لمجرى الأحداث ولا بدّ من حدوث ما لا نتوقّعه، وفي أغلب الأحوال ما نحاول منع حدوثه.

إن التساؤل الذي نحن بصدد الحديث عنه ليس أمراً محليًا ومؤقتًا، ولا يتعلق بدولة أو منطقة مسلمة ما، بل تقف أمامها - بشكل أو بآخَرَ - تركيا والمغرب وباكستان وأندونيسيا. ولا يمكن أن ينكر ذلك إلا الذين يضمرون لها السوء ويتلاعبون بعقول الآخَرين.

ثورة باسم الله

إنّ الثورة الإسلاميّة لا بدّ لها أن تكون باسم الله. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: هل الثورة باسم الله ممكنة أصلاً؟ أليست كل ثورة ثورة على الله، كما يعتقد ذلك الأوروبيّون، أليس وكثير منّا تحت تأثير المعتقدات الأوروبيّة؟

إذا كانت الثورة تسعى إلى تحقيق العدالة والأخوّة والمساواة والحريّة، فإنّها

مستحيلة من غير أن تكون باسم اللـه. أو بتعبير أكثر دقّة، يُمكن رفع هذه الشعارات والمثل، وكتابتها على الأعلام، ولكن لا يمكن تحقيقها دون أن تكون قد أعلنت باسم اللـه. ولم توفّ الممالك الإلحاديّة بالوعود التي قطعتها على نفسها، بل وليست قادرة على تحقيقها. إنّ الثورة الفرنسيّة، والثورات التي قلدتها في دول أخرى، قد أسّست وثبّتت دعائم عالم الرأسماليّة والإمبرياليّة، كما أرست الثورةُ الشيوعيّة الروسيّة دعائمَ النظام الاستبدادي للدولة القائمة على وسائل القمع، النظام الذي يتّصف بالقوّة والانضباط، ولكن لا أثر فيه لشعارات الثورة المرفوعة، مثل الحريّة والعدالة.

إن التأمل في التاريخ يعلمنا أنّ كل مجتمع رُفعَت فيه شعارات ثوريّة، إنّما كانت هي صرخة الإنسان بحثًا عن العدالة، والعدالة مبدأ دينيّ وليست مبدأ إنتاجيًا صناعيًا أو اجتماعيًا. إن مطالب الدين هي مطالب باسم اللـه ولمصلحة الإنسان، ولا يمكن أبداً أن تكون لمصلحة طبقة أو لون أو جنس أو قوميّة، وخاصّة لا يمكن أن تكون لمصلحة الطبقة الحاكمة أو طبقة الأغنياء. إننا لنجد في القرآن آثار الحرب وشواهدها الإيمانيّة المعلنة على ألوان الظلم، أو بالأصحّ على أصحاب السلطة والنفوذ باعتبارهم رمزَ الظلم ودعامته ، لأنّ القرآن يستعمل كلمات "الملأ" و"الأئمّة" وأصحاب السلطة والأموال مرادفًا لزعماء المعارضة للدين ومطالب الدين. ولننتبه إلى معاني ولهجة الآيات القرآنيّة التالية:

{قال الملأ من قومه إنّا لنراك في ضَلال مُبِين} الأعراف ٦٠؛

{فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نَراك إلاّ بشراً مثلَنا وما نراك اتّبَعَك إلاّ الذين هم أراذلُنا} هود ٢٦؛

{قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنُخرِجَنّك يا شعيبُ والذين آمنوا مَعَك مِنْ قَريتنا} الأعراف ٨٨؛

{قالوا يا شعيبُ أصلاتُك تأمرك أنْ نَترُكَ ما يعبدُ آباؤُنا أو أنْ نَفعَلَ في أمْوَالنا مَا نَشاء} هود ٨٧؛

{ثمّ أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين. إلى فرعونَ ومَلَئِه فاستكبروا وكانوا قومًا عالينَ. فقالوا أنؤمن لبَشَرَيْنِ مثلِنَا وقومُهُمَا لنا عابِدون. فكذّبوهما فكانوا منَ المُهْلَكينَ} المؤمنون ٤٥ – ٤٨؛

ألم يكن حملة رسالة القرآن من الفقراء والضعفاء؟ ألم يكن أولو الطول والقوة من أشد الرافضين لها:

{وإذا أنزِلَتْ سورة أنْ آمنوا بالله وجاهدوا مع رسولِه استأذنَكَ أولو الطول منهم، وقالوا ذَرْنَا نَكنْ مع القاعدينَ} التوبة ٨٦؛

{وذَرْني والمكذّبينَ أولي النَعْمَةِ ومَهّلْهم قليلاً} المزّمّل ١١؛

{خذوه فاعْتِلوه إلى سواء الجحيم. ثمّ صُبُّوا فوقَ رأسِه من عذابِ الحَميم. ذُقْ إنّكَ أنتَ العزيزُ الكريمُ} الدخان ٤٧ – ٤٩؛

{وما أرسلنا في قريةٍ من نذير إلاّ قال مُتْرَفوها إنّا بما أرْسِلْتم به كافرون. وقالوا نحن أكثرُ أموالاً وأولادًا} سبأ ٣٤ – ٣٥؛

إنّ أولَ ثورة على مؤسّسة الزكاة في صدر الإسلام، التي أخمدها أبو بكر – رضي الله عنه – بالسيف، لم يقم بها الفقراء بيقين، بل قام بها الأغنياء المترَفون لأنّ هذا الإجراء الإصلاحيّ كان لصالح الفقراء المحتاجين، فانقضّ على رؤوسهم السيفُ باسم الثورة الإسلاميّة.

لم يكن هدف رسالات الرسل والأنبياء محصوراً في جانب إحياء الدين وتعاليمه المهجورة، بل كان هدفها الأوّل إصلاحَ الخلل الذي نخر في النظام الأخلاقي والاجتماعيّ. فلنتأمّل: يرفضون رسالةَ نوح، عليه السلام، بحجة أنّ من يتبعونه هم أراذل القوم، وهذا يعني أنّ المجتمع مقسّم تقسيمًا لا يمكن قبوله؛ وكان من رسالة موسى وهارون، عليهما السلام، أن يُنقذا قومَهما من الرقّ؛ بينما رَفع شعيب، عليه السلام، صوتَه ضدّ الغشّ والتطفيف في البيع؛ وكان على لوط، عليه السلام، أن يحارب الفاحشة المستشريّة والفسادَ الأخلاقيّ. إنّ رسالة نبيّنا محمّد– صَلّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسَلّمَ– جاءت استجابة للتردّي الخلقيّ المخيف في المجتمع العربيّ والعالم أجمع آنذاك. ولا يمكن القول إنّ الوضع في مجتمع اليهود كان يتّسم بالجهل بأمور دينهم

عند ظهور عيسى- عليه السلام- لأنّه قام بمحاولة القضاء على التديّن الشكليّ الذي فقد روحَه ومضمونه، وهدف إصلاحه لإعادة النظام الأخلاقيّ ونشر الدين الحقّ. إنّ الحركات الإصلاحيّة التي نشأت من داخل النصرانيّة لم تكن موجّهة لإصلاح مبادئ الدين، بل كانت طالبةً بعودة مبادئ النصرانيّة إلى معانيها الأصليّة، وكما هو معلوم أحدثت تجديداً قويًا في نظام الأخلاق والمجتمع.

إن كل حركات الإصلاح الاجتماعي التي قامت حتى ظهور الثورة الفرنسيّة كانت منطلقة من الأسس الدينيّة، وحتىَ لو حكمنا على الثورة الفرنسيّة من خلال إحدى شخصيّاتها البارزة "م. روبيسبيير" M.Robespierre لا يمكننا القول إنّها إلحاديّة، مع أنّها كانت ثورة على سلطة رجال الكنيسة. وقد دعا "م. روبيسبيير" إلى الإيمان بـ"الذات المطلَقة" وطالب بأن يكون ذلك دينًا لأبناء الثورة الفرنسيّة. ولكن هذه الفكرة، رغم كونها صادقةً، بقيت غير مؤثّرة لكونها مزيجًا مصطنَعًا. بعد ذلك ترجّحت شعارات الثورة الداعية إلى كونها ثورة باسم الشعب وليست باسم الله، لذلك أصبحت المثل الدينيّة الأصيلة من حيث نشأتُها وطبيعتُها - مثل الأخوّة والحريّة والمساواة - مفصولة لأوّل مرّة عن أساسها، وهو الإيمان بوحدة نشأة جميع البشر.

ملامح المنهج والعمل

إن الوضع الذي ننطلق منه في جهادنا من أجل الصحوة الإسلاميّة، أقلّ ما يمكننا وصفه في بعض جوانبه بأنّه محزن. صحيح أنّ جميع الدول الإسلاميّة قد نالت استقلالَها، ولكنّ استقلالَ أغلبها استقلال شكليّ فقط، بينما ظلّ الاستعمار الغربيّ الاقتصاديّ قائمًا، وأدهى من ذلك وأمرّ أنْ يَظلّ الاستعمار الروحيّ الفكريّ. ويسيطر الغربيّون في بعض الدول الإسلاميّة على المدارس ووسائل الإعلام، بشكل مباشر أو غير مباشر، ويواصلون تسميم عقول أجيال المسلمين. ولكن المشكلة الحقيقيّة هي وجود "الأجانب الغرباء" من بني جلدة المسلمين، وبخاصّة في طبقة المثقّفين الذين فقدوا كل اتّصال بهويّة شعوبهم. وهؤلاء يقدّمون الأفكار والمناهج الغربيّة المعادية للإسلام (ولنسمّيها بـ"الكماليّة" نسبة إلى نموذجها الأشهر) لشعوبهم التي

تتّصف بالعواطف والمشاعر والمثل الإسلاميّة، وبذلك يدور سوء التفاهم في المجتمع في حلقة مفرغة. في بعض الدول بدأت الشعوب تفيق من حالة الانبهار بالغرب، ولكن بسبب غياب المنهج الإسلاميّ الرصين يتمّ ذلك ببطء شديد وسيراً في خط متعرّج. ولا شكّ أن للدول الإسلاميّة مصالحَ مشتركة، وأنّ لها أعداء مشتركين، ولكلا الطرفين حلفاء تقليديّون. وعلى الرغم من وضوح ذلك، فانّ الإدراك بهذه الحقيقة يتنامى بصعوبة ولا يكاد يؤثّر شيئاً في السياسة الرسميّة للدول الإسلاميّة. إنّ الهزائم الثلاث المتتالية في الحروب مع إسرائيل، وهزيمة باكستان العسكريّة مؤخّراً نتيجة وصورة ظاهريّة لأوضاعنا الداخليّة. لقد فقدت المؤسّسات الإسلاميّة وكبار المسؤولين فيها الاستقلالَ في القيام بمهامّها في أغلب الدول الإسلاميّة، ولم يَعد هؤلاء حماةَ الإسلام وفكره ومصالحه، بل أصبحوا موظفي الأنظمة القائمة. إنّهم يتحدّثون عن الإسلام بحسب رغبة - أو طلب - السلطات السياسيّة، وفي الغالب لخدمة تلك السلطة: فنجد في بلد يحمي ويبرّر العلماءُ فيه نظامَ السلطة الوراثيّ، وفي آخر تُوزع أجهزةُ الحكومة الخطبَ المطبوعة على خطباء الجمعة من أجل التأييد والثناء على الحاكم، وفي بلد ثالث يدافع عالم يتولى أعلى منصب دينيّ عن الإجراءات الحكوميّة المخالفة كليّاً لمبادئ الإسلام، وفي آخر يصمّ العلماء آذانَهم عن احتفالات الحكومة بماضيها الجاهليّ، وهكذا... إنّ الحياة الخاصّة لأغلب الحكام المسلمين تجري وفق أنماط مخالفة كليّاً للإسلام، ولا يملك العلماء شجاعة لمجرّد إنكار ذلك عليهم، لأنّ وظيفتَهم هي قراءة الأدعيّة لمديد عمر الحاكم في المناسبات الرسميّة. إنّ العالم الإسلاميّ المعاصر يذكّرنا بحالة أوضاع المجتمع اليهوديّ قبيل ظهور عيسى- عليه السلام-. حيث اهتمّ المسلمون بالأشكال والقشور، ويهملون روح التعاليم الدينيّة، وأوكلت أمور الأمّة المصيريّة إلى أناس لا يهمّهم الإسلام من قريب أو من بعيد، وفي بعض الأحايين إلى أناس منافقين أو حتى مرتدّين عن الإسلام؟

وإذا نظرنا إلى واقعنا نظرةً أضيق واقتصرنا على التأمل في القيادات الإسلاميّة، لرأينا أنّها أضعف بكثير مما كان يمكن أن تكون عليه استناداً إلى الشريحة العريضة من الذين ينتمون إلى الإسلام حقّ الانتماء. وهذه الجبهة العريضة تتّصف باختلاف كبير

في فكرها ومناهجها العمليّة، ثمّ بوجود عشرات التنظيمات التي قد تتصارع فيما بينها وتعلن مناهجَها المتعارضة باسم الإسلام. الإسلام الذي لا إسلام غيره. وكل مفكر مسلم بارز عبارة عن منهج وحزب قائم بذاته، ويدعو هؤلاء عمومَ المسلمين إلى أشياءَ متناقضة تمامًا مع انطلاقهم من الأسس الإسلاميّة نفسها. إنّ الذين يدعون إلى الإصلاحات الزراعيّة والذين يعارضونها يدّعون بأنّ الأمر رأي الإسلام في ذلك؛ وكذلك الأمر مع الذين يتحدّثون عن "الاشتراكيّة الإسلاميّة" والذين يدافعون عن الملكيّة الفرديّة المطلقة، أو الذين يؤيّدون النظام الملكي الوراثيّ أو النظام الجمهوريّ.

واستناداً إلى بعض الدلائل العمليّة يمكن لقول بأنّ أغلب حكومات الدول ذات الشعوب المسلمة تقاوم إقامةَ النظام الإسلاميّ للحكم باستخدام التبريرات المصطنعة، مع أنّ النظام الإسلاميّ نظام طبيعيّ تلقائيّ لمجتمعات الشعوب المسلمة. إنّ نظام الحكم الإسلاميّ يمكن أن يقوم في تلك المجتمعات بين عشيّة وضحاها إذا ما أبعدنا عنها وسائل القمع وتلك النظم التي تحيا بطرق مصطنعة. وستقيم الشعوب الإسلاميّة المحرّرة هذا النظام الإسلاميّ لأنّها لا ترضى بأيّ نظام أو مذهب دخيل، ولا بالنظام الوراثي - سواء أهو مستند إلى الدستور أم لا -، ولا بأيّ شكل من "الجمهوريّة الشعبيّة" أو "الجمهوريّة الديموقراطيّة"، ولا بدولة ذات "الدين الإسلاميّ الرسميّ" الذي يتحكم فيه المرتدون، ولا بصورة باهتة لتقليد نظم الدول الأوربيّة التي "تفصل الدين عن الدولة"؛ لأنّ الشعوب الإسلاميّة - بكل بساطة - لا تريد غيرَ الإسلام والدولة الإسلاميّة والنظام الإسلاميّ الأصيل!

إنّ فشلنا في مواجهة أوضاعنا ـ إضافة إلى أشياء أخر ـ تأخّر وجودنا في الساحة دائمًا، ونعالج النتائج بدلا من معالجة الأسباب. فهزائمنا على أيدي إسرائيل نموذج لمعالجة أعراض المرض بدلاً من أسبابه. إنّ هذه النبتة السامّة التي تُسمّى إسرائيل لم تُزْرَع عقب الحرب العالميّة الثانيّة، كما يظنّ أغلب المسلمين، بل إنّ جذورها أعمق من ذلك، ومن أقوى جذورها الحرب بين العرب والأتراك من سنة ١٩١٤ - ١٩١٧م. ولا شكّ في أن إسرائيل وليدة هذا الخلاف والتناحر. وتوالت فصول ذلك الوضع في شكل تسميم العقول والكراهية للمسلمين في الحروب الصليبيّة التي لم تنقطع لحظة واحدة،

وإنّما غيّرت أثوابها وأشكالَها وأساليبها. ونتيجة لتلك المساعي مجتمعةً تكوّن العالم المعادي للإسلام الذي يتّحد تلقائيًا كلما احتاج الأمر إلى النيل من الإسلام والمسلمين. إنّ المثال النموذجي للدلالة على هذا القول هو الاحتلال العسكريّ لدولة باكستان سنة ١٩٧١م، الذي تمّ بموافقة مباشرة وغير مباشرة من الدولتين الكبيرتين، وبسكوت مطبق من بقيّة دول العالم. ولم نفعل شيئًا لتحويل هذا العالم من موقفه المعادي للمسلمين إلى الموقف المؤيّد لهم، ولو بصورة جزئيّة. وفي دوامة معالجة النتائج بدلا من الأسباب نظهر في الساحة دائمًا بعد فوات الأوان. لذلك من حقّنا أن نتساءل: أليست هناك مخططات لإيجاد فلسطين أخرىً في جزء آخَر من العالم الإسلاميّ، أو فلسطين ثانية أو أكثر من ذلك؟ وكيف يمكننا أن نستعدّ لذلك في وقت مناسب لنقاوم ونطوّق تلك الكوارث المستقبليّة المحتملة؟

وإجابتنا عن هذه الأسئلة هي: فلنتعلّم من أعدائنا! وإذا كان العدوّ المحتال المتعلم قد أدرك أنّ أسهل طريق لإضعاف وإفساد المسلمين هو نشر مذاهب الضياع الفكري والروحيّ بينهم، وزرع أسباب الفرقة والتنازع والشكوك، فواجبنا العمليّ أصبح واضحًا: علينا أن نزرع في صفوف العدوّ مذاهب زعزعته وإضعافه، ونبني الثقة في الإسلام وحدَه، ولنجتهد لتأمين الينابيع الصافية لأرواح شبابنا، ولننقذ المدارس ووسائل الإعلام من أيدي الأجانب من أجل بناء الوعي الجماعيّ والمسؤوليّة والأخوّة والوحدة، لنجعل صفوفَنا كالبنيان المرصوص، أو بعبارة أخرى: إنّ سبيلنا هو إقامة أتقن وأحسن وأشمل الأنظمة للمجتمع.

هناك عمليتان متوازيتان تجريان في مجتمع الدول الغربيّة: الأولى في مجال التقنية، والأخرى في مجال الأخلاق. إنّ التطوّر التقنيّ المستمرّ يضع في أيدي الغرب وسائل القوّة الخارقة. وفي الوقت نفسه يستشري فيه الفساد الأخلاقيّ نتيجةً للضياع الروحيّ ومذاهب الشكّ والماديّة البحتة والفلسفة الفوضويّة، وكل ذلك يقوّض الأسس الأخلاقيّة للغرب، وسوف يُبطل قوة الغرب التي تزداد بقدر زيادة التطوّر التقنيّ. وهذه الحالة تعطي فرصةً للعالم الإسلاميّ لكي يتساوى مع الغرب في القوّة الماديّة في المستقبل القريب. وتربيّة أجيال الشباب القادمة على المبادئ الدينيّة والأخلاق

السامية، وتثبيت دعائم الأسرة والقضاء على الخمور والمخدّرات والرذائل، كل ذلك سوف يوطد الأسس الأخلاقيّة لاستمرار هذا التوازن مع العالم الغربي الغنيّ الذي لم يعد قائمًا على الأسس الأخلاقيّة. والمرحلة الأخرى هي التطوير التقنيّ الذي سيجعل التوازن ثابتًا وقويًا.

وهناك بعض الحقائق، التي لاناقة لنا فيها ولاجمل، تشجّع هذا التفكير وتسير لصالح المسلمين. ولا شكّ أنّ النفط أهمّ ما نعنيه بذلك.

لقد شاءت عناية الله، ويقول أعداؤنا إنّ ذلك محض صدفة، أن يكون ٦٠ ٪ من مخزون الاحتياطي العالميّ من النفط في بطون الأراضي الإسلاميّة في دول الشرق الأوسط. هذه الحقيقة الأساسيّة - بجهودنا وسعينا - قد تصنع العجائب وتغيّر مجرى تاريخ العالم بطريقة لا نظير لها. وقد بدأت الدول الإسلاميّة مثل الجزائر وليبيا والمملكة العربية السعوديّة والكويت وإيران وبعض الدول الصغيرة في تلك المنطقة بتحقيق الثروة من بيع "الذهب الأسود" التي تجاوزت اليوم ١٠ مليارات دولار، و يتوقع الخبراء بأنّ هذا الدخل سوف يزيد أربعة أضعاف على مدى عشر سنوات، بينما يقدّر خبراء الاقتصاد الأمريكيون أنّ الدول المنتجة للنفط سوف تكون أغنى دول العالم، وأن دخلها قد يفوق دخل الصناعات الأمريكيّة كلها، وأنّ احتياطي المملكة العربيّة السعوديّة في العملة الصعبة سوف يزيد على احتياطيّ أمريكا أو اليابان.

وقد يظهر ذلك غير واقعيّ، ولكنّ مشكلات البؤس والفقر في العالم الإسلاميّ أصبحت في خبر كان إلى درجة كبيرة. ولا شكّ أننا سنواجه مشاكلَ معقّدةً من جراء التحقيق المفاجئ للثروة في المستقبل. فهل نحن مستعدّون نفسيًا لمواجهة نتائج "صدمة الدولار" وما تأتي به من القوّة والغنىَ والسموم؟

إنّ النفط فرصة سانحة وخطر محدق في آن واحد أمام العالم الإسلاميّ، ويمكنه أن يمثل منحةً من الله تعالى وعاملا مساعداً لنتمكن من تضييق مدى تخلفنا عن الغرب الذي أصاب شعوبنا منذ قرون. ولكنه أيضًا قد يكون عاملَ تنويمنا وتخدير طاقاتنا، أو مخدراً يعطينا شعوراً كاذبًا بالثروة الخادعة، أو عاملَ تكوين الحالة النفسيّة في صورة "استئجار أنماط الحياة" ليس عند الفرد فقط، بل وعند عامّة الشعب. ولا شكّ أنه

امتحان من اللـه، ولكن نتيجتـه غير معروفـة، لذلك علينا أن نتذكر: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ الشورى ٣٠؛

إن النفط وسيلة، لذلك يتحول - مثل أي وسيلة أخرى - إلى مصدر قوّة أو مصدر ضعف، على حسب ما نريد وما نقدر عليه. تشكل الثروة مع الفكر أسس النهضة، ولكن الثروة بلا فكر هلاك محقّق. إنّ التوجّه الإسلاميّ الواضح ضرورة في هذا الوضع القائم.

ولكن ما معنى التوجّه الإسلاميّ في هذا الزمان في العالم الإسلاميّ؟

إنّ التوجّهَ المذكور، مع أساسه الإيماني الراسخ باللـه، يعني:

- الجهاد من أجل القضاء على الاحتلال السياسي والفكري والروحيّ الأجنبيّ، لتحقيق الاستقلال الشكلي والحقيقي للدول الإسلامية ؛

- تنفيذ برامج التعليم وتطوير الصناعة والإصلاح الزراعيّ ووضع مصادر الخيرات الطبيعيّة تحت تصرّف الشعوب، دونما خنق لقدرات الملكيّة الخاصة؛

- الكفاح من أجل تحقيق الوضع الإسلاميّ للمرأة وضمان حقوقها كاملةً، وتقوية أسس الأسرة الإسلاميّة، وإزالة كل ما من شأنه أن يهدمها؛

- تطبيق أسلمة التعليم ومناهج التربية ووسائل الإعلام؛

- تأييد الإجراءات الكفيلة بتحقيق العدالة الاجتماعيّة تحت شعار "نحو مجتمع بلا فقر ولا تبذير"؛

- إعلان الحرب على الخمور والخلاعة والدعارة والفهم المعكوس للحريات؛

- تثبيت دعائم كل ما من شأنه أن ينمّي الشعور بوحدة الشعوب الإسلاميّة، والقضاء على إثارة فتن القوميات والقضاء على عوامل التمايز والتفرقة.

إنّ الجهاد من أجل هذا البرنامج العمليّ يجب أن يأخذ شكل العمل المنظم وأن يشمل أكبرَ شريحة من المسلمين الموالين للإسلام. إنّ المسلمين الأوائل كانوا أناسًا لا مثيلَ لهم، ولكنهم أيضًا كانوا مجاهدين منظمين، لأنّ الإسلام طريقةُ عمل أكثرَ من كونه طريقةَ تفكير، ومنهج حياة أكثر من كونه منهجَ فلسفة.

وبهذه الصفات تبقى للإسلام رسالة في هذا العالم، وفي ظروفِ تنازع التيارات

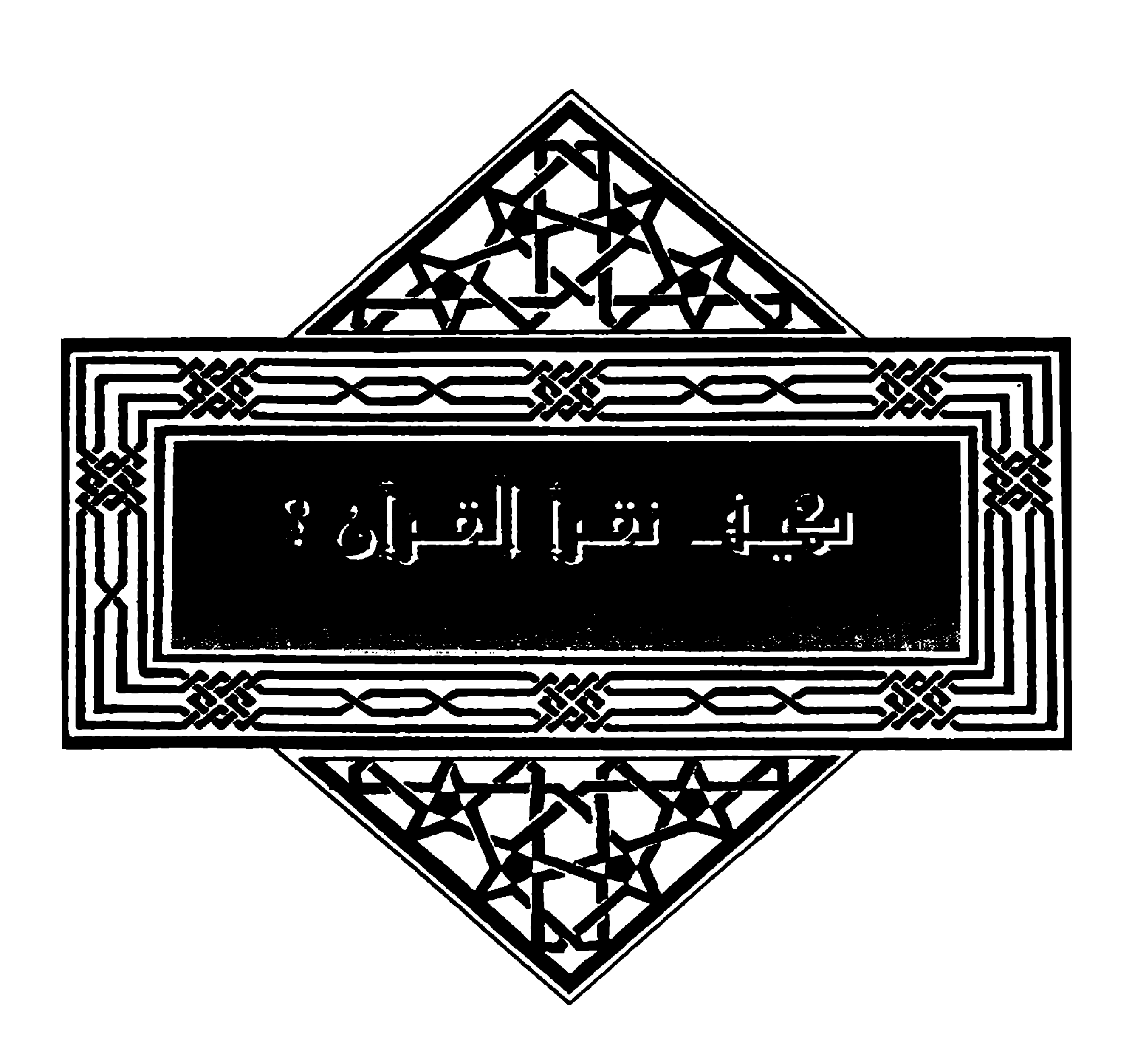
الفكريّة والأنظمة السياسيّة المتنافسة يُعلن الإسلام الموقفَ الثالث، وهو موقفه المستقلّ. ولكن ذلك ليس مشاركة سياسيّة معتادة، لأنّ الإسلام لا يمكن أن ينضمّ أو ينخرط في التكتلات القائمة في العالم لسبب بسيط، وهو أنّها من أساسها تكتلات غير إسلامية. ويمكن للإسلام وحده أن يخرج منتصراً من صراعات هذا العالم المنقسم، لأنّ الإسلام وحدَه لا يرى ذلك الصراع صراعًا بين الخير والشرّ، وبين النور والظلمات، بل يرى أنّ لكل طرف في هذا الصراع المأساويّ جزءًا من الحقّ والعدل، وكذلك قسطا من الضلال. ومن أجل نظرته هذه إلى الصراع الحاليّ يبقىَ الإسلامُ الخيارَ المتفوّق الذي لا يمكن أن يَخسر، لأنه لا يرفضُ الدين أو الاشتراكيّة، ويستطيع - بل يجب - أن يقبلهما ويستوعبهما. لأنّه إن كانت الاشتراكيّة ضلالاً مطلقًا لا يكون الإسلام حقًا مطلقًا! فالصراع بين الدين والسياسة - وخاصة بين التيارات اليمينيّة واليساريّة بمعنىً آخر، من أجل طبيعته لا يمكن أن ينتهي بانتصار أو هزيمة - وهذه هي حقيقة من حقائق الإسلام، بل لا بدّ له أن ينتهي في الوسط بين الطرفين، بصورة التعادل، ليكون ذلك انتصارا إسلاميًا مباشراً. إنّ الدور الوسطيّ للإسلام - "أمّةً وسطا" كما يصفه القرآن الكريم - يظل مهمًا ومصيريا إلى اليوم.

الخلاصــــــــــة: يجب أن يكون الإسلام -من جديد- كما كان دائمًا: ثورة وجهاد باسم اللـه ضدّ ألوان الظلم والجهل والمرض وقلة النظافة؛ ويجب إيقاف الحكام المسلمين الذين يستغلون الإسلام لأهدافهم السياسيّة، والآخرين الذين أعلنوا الحرب على كل شيء يمتّ إلى الإسلام بصلة. ويجب أن تحدّد السياسةُ الإسلاميّة بمنتهى الدقّة، وأن يَصُفَّ الإسلامُ جُندَه في صفوف متراصّة، وأن نبحث عن الطاقات البشريّة المنقادة فكريًا للإسلام وحدَه. وهذه الطاقات الإسلاميّة عليها أن تُقلع عن التفكير والعمل بصفتها "جزائريّة" أو "ليبيّة"، "عراقيّة"، "أفغانيّة"، "صوماليّة" أو "نيجيريّة"، إلخ . كل هؤلاء يجب أن يكونوا مسلمين فقط، وسياستُهم يجب أن تكون إسلاميّةً، لا عربيّةً أو تركيّةً أو فارسيّةً أو أندونيسيّة! وإنْ لم نفعل ذلك، فعلينا انتظار تحقيق وعيد اللـه تعالى فينا من سورة التوبة: {قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم

وإخوانُكم وأزواجُكم وعَشيرتُكم وأموالٌ اقترفتمُوها وتجارةٌ تخشَوْنَ كَسادَها ومَسَاكنُ تَرْضَوْنَهَا أحَبَّ إليكم مِنَ اللهِ ورسولِهِ وجهادٍ في سَبيلِه، فتربَّصُوا حتَّى يأتيَ اللهُ بأمرِه، واللهُ لا يَهدي القومَ الفاسِقِينَ] الآية ٢٤؛

أليست الهزائمُ التي مُنينا بها حتىَ الآن تكفينَا تذكرةً وتبصرة؟

كتبت المقالة في شهر يونيو سنة ١٩٧٢م


كيف نقرأ القرآن ؟

كيف نقرأ القرآن؟

لقد قرأت القرآن الكريم مرات ومرات، ولكنني لم أتساءل قبل اليوم: كيف يجب أن نقرأ القرآن فعلاً؟

وهذه المساءلة دفعتني إلى التأمل، لذلك سأعرض هنا لبعض تأملاتي حول هذا الموضوع، بحسب تسلسل وورود الخواطر.

يجب أن نضع نصب أعيننا، قبل كل شيء، أن القرآن الكريم كلٌّ لا يتجزأ. وكل آية قرآنية منفردة أو مقتضبة من السياق العام لا تقدّم حقًا كاملاً، بل تقدم جزءاً منه، لأن القرآن فقط إذا أخذ كاملاً يعطينا الحق كاملاً. إن سرد بعض الآيات منفردةً أمر لا مفرّ منه، ولكن لا بدّ وأن ندرك أن تأثير هذا التصرف يظل محدوداً، فالأمر شبيه بلوحة الفسيفساء، لأن القطعة السوداء أو الحمراء تعني ما تعنيه في انسجام مع بقية قطع اللوحة فقط. وأما إذا أخذنا كل قطعة بذاتها فإنها لا تقدم إلا جزءاً أو لا تقدم شيئاً من جمال اللوحة التي تتشكل منها. ومن أجل مزيد من الإيضاح سأضرب بعض الأمثلة:

آية قرآنية تشرع للقصاص: {يَا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم القِصاصُ في القتلى} البقرة ١٧٨، وآية أخرى تدعو إلى العفو والصفح: {وَجزاؤُا سيئةٍ سيّئةٌ مثلُهَا، فمَنْ عَفَا وَأصلح فأجرُهُ على اللهِ، إنّه لا يحب الظالمين} الشورى ٤٠؛ أو آية تقول: {يا أيها الذين آمنوا لا تُحَرِّمـوا طيِّبات ما أحَلَّ اللـهُ لكم ولا تعتدوا} المائدة ٨٧، وآية أخرى تقول: {وَلا تَمُدَّنّ عينَيك إلى ما متّعنا به أزواجًا منهم زهرَةَ الحياة الدنيا} طه ١٣١، إلى غير ذلك من الأمثلة.

إن من يقرأ القرآن قراءة عابرة قد يُخيَّل إليه وقوع التناقض في القرآن، بينما الأمر ليس كذلك قطعًا. بل على عكس ذلك. وحقيقة الأمر أن المسألة تتعلق بأبدع وأرفع ميزة يمتاز بها القرآن والإسلام، وهي التجانس التام بين الأمور التي تظهر متناقضة لأول وهلة، لأن القرآن لا يطالبنا بأمر واحد، بل يطالبنا بأمرين معًا. فهو لايريد منا

القصاص فقط لأنه يطالبنا بالعفو أيضًا، والعكس بالعكس؛ كما لا يفرض علينا السعي للآخرة وحدها لأنه يريد منا السعي لهذه للدنيا أيضًا، أي لا يطالبنا أبدًا بالسعي لحياة دون أخرى. لذلك لا يتحقق كمال الإيمان في المسلمين الذين لايعرفون غير العقاب (ولو كانوا علي الحق) لأنهم لم يعفوا، كما لا يتحقق كمال الإيمان في الذين لا يعلمون غير العفو ولايجازون عن سيئة بسيئة مثلها. إذن، فالمسلم الكامل هو الذي يعرف مقداراً معتدلاً للأمرين معًا.

وهذه النتائج التي استخلصناها سابقًا يمكن التوصل إليها فقط إذا أخذنا من القرآن الكريم المعنى كاملا وليس باقتضاب بعض الآيات. لذلك أرى أن هذا الأسلوب هو أفضل وسيلة ترتقي بنا إلى مستوى فهم كامل بحقيقة الإسلام وخلاصة رسالته.

والمسألة الأخرى هي: المداومة على تلاوة القرآن، مع فواصل زمنية ضرورية طبعًا. وهذا أضمن طريق لاكتشاف ما يمكننا تسميته بـ "إشعاع النور القرآني"، لأن كلّ قراءة جديدة للقرآن الكريم ستكشف لنا شيئًا جديداً. طبعًا، بقي القرآن الكريم كما هو، دونما تغيير، ولكن تغيّر شيء ما: تغيرنا نحن، تغيّرت الظروف المحيطة بنا، أو تغيّر العالم الذي نعيش فيه. وهذه التغيرات الطارئة هي التي مكنتنا من الغوص في عمق جديد غفلنا عنه تمامًا أثناء قراءتنا السابقة للقرآن الكريم، وأصبحنا فجأة نسمع في أعماق قلوبنا صدى لآيات كنا قد غفلنا تمامًا عن معانيها سابقًا.

ويمكن لكل منا التأكد من ذلك بنفسه، ولكنني سأسوق هنا بعض الأمثلة من تجربتي الشخصية.

منذ زمن بعيد- في مقتبل عمري- أثناء قراءة القرآن الكريم كنت أتوقف عند آيات تتحدّث عن العمل والجهاد والعدالة. وخير دليل على ذلك عندي هو دفتر صغير - شاءت إرادة الله له أن ينجو من بين دفاتري الأخرى - كان قد مُلئ بمثل هذه الآيات والمقتبسات من القرآن الكريم. أذكر جيّداً أن آية وجوب رد العدوان والاستبداد كانت قد ملكت عليّ عقلي. عندما يتحدّث القرآن الكريم عن شخصية المسلم السويّة يذكر - من بين ما يذكره - أنّه {والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون} الشورى ٣٩.

وكنت أنتهز كل فرصة للحديث عن الآية المذكورة. ولكن اليوم تستحوذ عليّ الآيات التي تتحدّث عن الله، سبحانه وتعالى، وبهرجة هذه الدنيا وسرعة زوالها، أي الآيات التي تحثّ على التأمل وليس على الحركة. أذكر جيداً أن الآية التي تدلّ على زوال كل

شيء ما عدا وجه اللـه، عزّ وجلّ، أثرت في تفكيري تأثيراً بالغًا، لأنه وحده، سبحانه، هو الحقيقة التي لا تنقضي {كلّ مَنْ عليها فانٍ، ويبقى وجهُ ربِّك ذو الجلال والإكرام} الرحمن ٢٦، ٢٧، - أي أن اللـه وحده كان قبل النجوم وهو باق بعدها، فهو الحقّ وحده والحقيقة الوحيدة.

وعندما انتقلت أمي إلى رحمة اللـه، وكان قلبي يعتصر ألمًا وحزنًا، كنت لا أفارق سورة الفجر، وأقف دائمًا عند هذه الآية البديعة { يا أيّتها النفس المطمئنّة ارجعي إلى ربِّك راضيةً مرضيّةً، فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي} الفجر ٢٧ - ٣٠. ففي كل مرّة كانت عيني تذرف دمعًا، ولكنني لم أجد سلوانًا خيراً من هذه الآية الكريمة، وكنت أتساءل: من يمكنه أن يقدّم للإنسان كلمة عزاء أبلغَ من هذه الكلمات، إذا قدّر له أن يقبِّل وجه ولده الميّت؟

إذن، فالقرآن الكريم شريعة وتكبيرة جهاد في ظرف ما، وفي ظرف آخر سلوان لما لا مفرّ منه من نوائب الدهر. فبناء على حالتنا الشخصية سيجذب انتباهنا شيءٌ ما، وفي حالة أخرى شيء آخر غير الأول.

كما يتعلق هذا الاكتشاف باعمال وأصداء قرآنية مختلفة بأحوال الإنسان الخاصّة، كذلك يتعلّق بظروف تاريخية على مستوى المجتمع، وحينئذ ترتكز أنظارنا على إبراز بعض الآيات القرآنية المتعلقة بذلك. ففي المجتمع الذي تمزّقه التفرقة العنصرية تُعطى الأولوية للآيات الدالة على مساواة جميع الناس والنشأة المشتركة للإنسانية، مثل الآية الأولى في سورة النساء: {يا أيها الناس اتّقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً}.

وفي مجتمع تُنتهك فيه الحقوق الدينية أو تنخر فيه تفرقة من أي نوع كانت، لا بد أن تبرز هذه القاعدة الصارمة المكونة من ثلاث كلمات فقط: { لا إكراهَ في الدين} البقرة ٢٥٦.

نحن المسلمين لا نفرّق بين الآيات القرآنية، ولكن غيرَ المسلمين يكادون يجمعون على أن هذه الآية القصيرة عن التسامح الديني هي أرفع وأبدع آية قرآنية.

وهكذا يمكننا مواصلة التأمل في هذا الاتجاه، ولكنه يخرج بنا عن إطار هذه المقالة القصيرة.

وإذا كنا في معرض الحديث عن كيفية قراءة القرآن الكريم، فإنه لا بدّ لنا أن نشير

إلى ما يُعرَف بترتيل القرآن الكريم، أو الاستماع إلى تلاوة القرآن. يرى بعض الناس أن مثل هذا الأمر قليل الفائدة، نظراً لأن أغلبية المسلمين لا يفهمون ما يُتلى عليهم. أراني ملزَمًا بالقول بأنني لا أوافق على هذا الرأي. ولا يسعني هنا إلاّ أن أذكر حادثة لا أظنني سأنساها أبداً.

لقد أتيحت لي فرصة المشاركة في مؤتمر دولي قبل عدة سنوات، ناقش موضوع مشاكل وعوائق النهضة الإسلامية. وعُقد المؤتمر في إحدى كبرى مدن أوربا، وشارك فيه عدد كبير من العلماء والمفكرين الذين قدّموا بحوثًا وآراءً عن تجديد الفكر الديني والإسلاميّ. كان كل يوم عمل يُفتَتح ويُختَتم بتلاوة من آيات القرآن الكريم يتلوها أحد أشهر قراء القرآن في العالم.

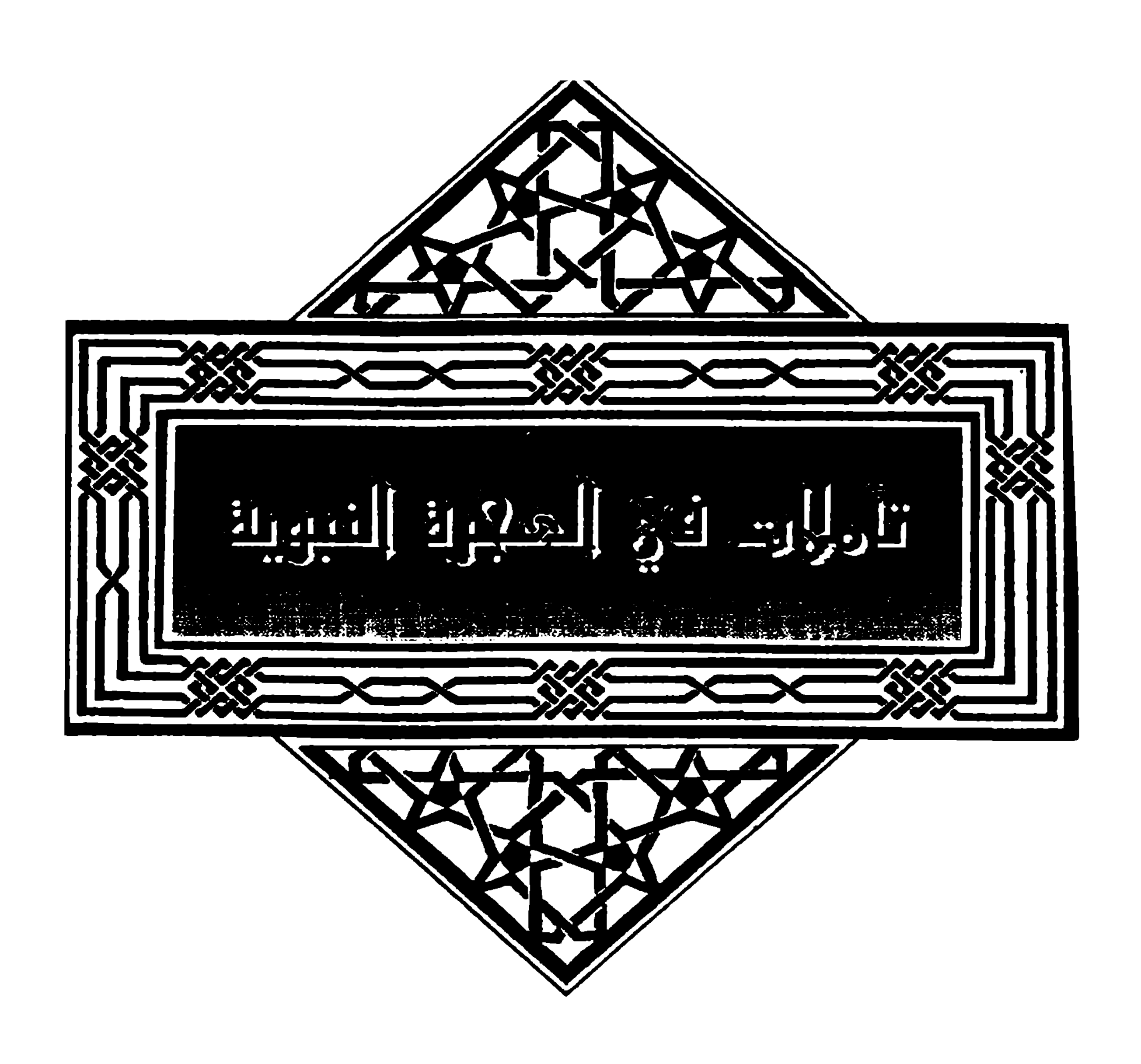
كان الحضور يستمع باهتمام إلى كلمات المحاضرين والعلماء، ولكننا كنا نشعر بوجود مئات الحاضرين في القاعة: هذا يتهامس مع من يليه، وهُنا يحرك كرسيّه، وهنا يتصفّح أوراقه، وهكذا. ولكن بعد لحظات من شروع القارئ في تلاوة الآيات القرآنية توقفت الحركات فجأةً وهيمن الهدوء. أثناء توقّف القارئ للتنفّس لم يكن يُسمع شيء، بل خُيّل إليّ أنّ جميع الحاضرين توقّفوا عن التنفّس أيضًا. هنا هو الهدوء الذي فيه يستمع الناس إلى خفقان قلوبهم بشكل متّزن. وكانت كلمات القرآن التي خرجت من فم هذا القارئ أشبه بنهر جار، يجري هادئا وصامتًا حينًا، ثم لا يلبث أن يتحول إلى شلالات تأتي لتأخذك وتحملك بعيداً. ولكن قمّة الحدث الذي لا يوصف كانت في اليوم الأخير، عندما عزم القارئ أن يتحفنا بهدية خاصة قبل الفراق، لذلك اختار تلاوة سورة الرحمن، هذه السورة البديعة المشهورة بجمال أسلوبها وتناسقها. أظنني إلى الآن عاجزاً عن وصف الحالة التي كنت فيها. لم أكن أعرف معنى آيات هذه السورة سوى الآية المتكرّرة {فَبأيِّ آلاء ربّكما تُكذّبان}، ولكنني شعرت بأني أفهم آياتها تمامًا، أنا وجميع المنصتين إلى التلاوة. بعد الانتهاء من التلاوة في كل مرة أيامَ المؤتمر أجد نفسي أقترب فأقترب من الآخرين، وكنت أقرأ هذا الإحساس في وجوه الآخرين كذلك، كأنهم يريدون القول: ألا ترون، ألسنا إخوة في الإسلام؟

بعد هذه الواقعة لن أجرؤ على تقليل أهمّيّة الاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم بدون فهم، لأنّ قلوب جميع المسلمين تفهم القرآن بشكل أو بآخر.

وأود إنهاء هذه المقالة القصيرة بالتذكير بأن قراءة القرآن أشبهَ ماتكون بسفر في بلاد معروفة ومجهولة. يسلك رجلان طريقًا واحدة، ويكون أحدهما متأثرًا بانطباعات السفر، ويشعر الآخر كأنه قطع مدّة سفره مغمض العينين، لأن الأمر لا يتعلق بالمناظر والمدن التي مرّا بها، بل يتعلّق بهما وحدهما. إذن، فكل إنسان سيجد في القرآن من المعاني بقدر منزلته وإيمانه.

كتبت المقالة في شهر مايو سنة ١٩٧٧م




تأملات في الهجرة النبوية

إنّ الحقائق التاريخة، التي عادةً ما نسمّيها بالهجرة، معروفة لعموم المسلمين: اضطرّت جماعة صغيرة من المسلمين، بقيادة رسول الله محمّد- صَلّىَ اللهُ عَليْه وسَلّمَ- إلى ترك ديارهم في مكة المكرّمة وهاجرت إلى المدينة المنوّرة، كما تركت وراءها كلّ ما كانت تملك وحملت معها إيمانها وحدَه. وقع ذلك في السنة الثالثة عشرة من البعثة النبويّة، أي في شهر سبتمبر سنة ٦٢٢م.

قد دُوّنت هذه الواقعة، التي كانت وما زالت مصدر إلهام لخيال وقرائح البشرية، في روايات تقدّم كثيراً من الأحداث المثيرة والحزينة. ولا شكّ أنّ قصّةَ الغار أكثرَ هذه الأحداث إثارةً، وذلك عندما اتّخذت العنكبوت بيتها على مدخل الغار، ثمّ وضعت الحمامة عشّها لكي تضلّل الطريقَ على المطارِدين، وفي تلك اللحظات المصيريّة قال النبيّ- صَلّىَ اللهُ عَليْه وسَلّمَ- كلماته العَجيبة تلك لرفيقه أبي بكر الصّدّيق {لاَ تَحْزَنْ إنّ اللّهَ مَعَنَا} التوبة ٤٠؛

إنّنا لنحتار اليوم أيّ معاني الهجرة النبوية يجب أن نُبرز بصورة خاصّة، عندما نتأمّل هذه الواقعة وآثارها العظيمة، ونحن نتأمّل في أحداثها حادثةً حادثةً من هذه المسافات التاريخيّة، عندما تنصبّ نهاية القرن الهجري الرابع عشر في بداية القرن الخامس عشر؟ في أيّ واقعة من وقائع الهجرة تكمن أهمّيتها الكبرىَ؟ يمكننا الحديث، على سبيل المثال، عمّا كانت تعنيه الهجرة النبويّة في تقدّم الفكر الإسلاميّ باعتباره منهج الحياة. وفي كل مرّة سنتيقّن من جديد أنّ الهجرة كانت نقطةً فاصلةً في التاريخ الإسلاميّ، وأهمّ لحظة على مدىً ثلاث وعشرين سنة من نزول القرآن الكريم. إنّ الهجرة النبويّة تعني لتاريخ الإسلام ما يعنيه شروق الشمس للطبيعة، لأنّه - على الرغم من إسفار فجر الإسلام تلك الليلة في مكة عندما نزل الوحي الأول - لم تُشرق الشمس بكل ضيائها إلاّ في المدينة. فمع الهجرة تحولّ الإسلام من حركة روحيّة محضة -حتىّ تلك اللحظة - إلى جماعة

إسلاميـّـة، ليتحولَ منها إلىَ بدايات تكوين المجتمع والنظام والدولـة.

لذلك، إذا أردتم الوقـوفَ وجهـًا لوجـه مع أسرار الإيمان باللــه، وأنْ تغوصـوا على البـحـر اللجـّـيّ الإيمانــيّ، عليكم بقـراءة بعض الســور القـرآنيـّة المنزلـة في مـكـة المكرّمـة. ولكن، إنْ أردتم معـرفـة الإسلام باعتباره مجموعـة القوانين أو نظام الدولـة، فلا يمكنكم الوصول إلى مـَرامكم من غـيـر تأمـّل السور المدنيـّة. والهجرة النبويـّة رابط بين مكة والمدينـة، وهي معالم في هذه الطريق، وجبل مُشرف ترونْ منـه المرحلـة قبلـه والمرحلـة بعده، اللتـان مـعـًا فـقط تـكوّنان مـا نـُسـمـيـه بالإسلام. لذلك تظل الهـجرةُ المرحلـةَ الحقيقيـّةَ الأولى لعصر جديد، عصر الإسلام.

هذه هي التأمـلات الوحيدة الحقيقيـّة والواقعيـّة في الهجـرة النبويـّة. ولكن، يمكن أنْ نلاحظ هنا شيئـًا آخر على نفس درجة من الحقيقـة والواقعيـّة، لنتـّخذ منه العبرة: نعـم، لقد هاجر المسلمون من مكـة، ولكنهم عـادوا إليهـا! لم تمض ثماني سنوات حتـّىَ عـادوا إليـهـا فـاتحين منتـصـرين. إنـّهم حـوّلوا قـبلـةَ الشـرك والخرافـة إلى القـبلـة العالـميـّة لدين اللـه الحـقّ. وعند خروجهم من مـكـة تحت ضغوط المشركين كانو أقوياء روحيـًا، ولكن ضعـفـاء مـاديـّا. وعندمـا عـادوا إلى مكة كانوا أقوياءَ روحيـًا ومـاديـّـًا. إذن، رسـالـة الهجرة واضحة: إنهم يهاجرون، لا ليهـربوا مثل الوحوش من الصيـادين، ولكن ليستـعـدّوا للعودة. هذه هي الهـجرة الحقيقيـّـة!

ولكن، كلـّمـا أمـعـنـّا النظر في الهـجـرة النبويـّـة، استـأثر بمجامع عقـولنا الجانب الداخليّ، الجـانب الإنسانيّ للهجـرة، لا الجانب الخارجيّ. وذلك لأنّ المعـالم التاريخيـّة لهذا الجانب الإنسانيّ تبدأ تضـعـف وتتلاشىَ مع تقادم الزمن، وبدأنا نبذل جهوداً لنميـّز بين وجوه أولئك الصـحـب الذين شاركوا في هذه الرحلـة الشهيـرة.

إنّ أسمىَ وأعظم حقيقـة هذه الهجرة هم هؤلاء الرجال وإخلاصـهم للـه وتضـحـيـتهم من أجـل الإسلام!

ولا يسع الإنسـان إلاّ أن يتـحـسّر على كـونـه لا يملك حسّ شـاعـريـّةٍ مـرهـفـةٍ ليُـلبس هذا الوصف الجاف بقصـّة مثيـرة عن جيل الشجعان الذين عـاشوا للإسلام. ولكـن حتـّىَ من غـيـر هذه الملكـة تتـوارد الأسئلـة من تلقـاء نفسـهـا: من كـان هؤلاء الرجـال الذين

تركـوا ديارهم لمجرَّد أنْ دعـاهم النبيّ- صَلّـىَ اللـهُ عَـليْـهِ وسَلـّمَ- إلى ذلك، وراحوا يبحثون عن ديار جديدة للإسلام قبل أن يبحثوا عنهـا لأنفسهم؟ ما كانت حقيقـة أولئك الرجـال؟ لماذا يخـتلفـون عـنّـا كلّ هذا الاخـتـلاف؟ وخاصـّة: من نكـون نحـن عند مقارنتـنـا بهم؟

قد نجيب عن أكثر هذه الأسئلـة على مضض، وخاصـّة عن السؤال الأخيـر، لأنّ الأجوبـّـة ستكون هزيمة شخصيّـةً لنا. وإذا كانوا هم المسلمون الخلص، فهل نحن اليوم مسلمون حقّـا ؟ وهل لنا حقّ في القول بأنّـنا ننتمي إلى شجرة هذه الدوحـة الإسلاميّـة العظيمـة؟

إنّهم – مثلنا – نطقـوا بشهـادة الإسلام: أشهـد أنْ لا إلـه إلاّ اللـهُ، وأشـهـد أنّ محمّداً عبده ورسولـه! وبينما نحن نردّد الشهادة كانوا هم يعتقدون فيهـا. إنـّهم أكدوا انتمـاءهم إلى هذه الشهـادة في حيـاتهم بتضـحيتـهم وهجـرتهم وبكل مـا تلاَ تلك الهـجـرة. وعلى نقيض ذلك، إنّـنا نؤكد كل يوم بتـخاذلنـا وسلبيتنا وسعينا وراء النجاح والمنصب والمال والسمعـة بأنّـنا لا نصدّق إلاّ بما نراه بأمّ أعيننا. إنّهم ضحّوا بحياتهم من أجل الإسلام، بل وأكثر من ذلك إنّـهم عاشوا للإسلام، بينما نحن نموت من الخوف والسكتة القلبيّـة والحوادث المروريّة والسمنة والترهّـل والأزمات العصبيّـة، ونعيش من اليوم للغد! وبعبارة موجزة، كان الصحابـة لا تخشى إلاّ اللـهَ، وأمّا نحن فلا نخشىَ إلاّ النّـاسَ؟ الفرق، كما نرى، شاسع، والنتائج كذلك.

وعندما نتـأمل ابتلاء ومحن الجيل المسلم الأول، والهجرة واحدة من تلك المحن ، قد يتساءل كثير منّا: ما السرّ في ابتلاء اللـهِ رسولَـه- صَلّـىَ اللـهُ عَـليْـهِ وسَلـّمَ- وهذه العصبـة الصغيرة معـه؟ وقد تحمّلوا قبلهـا صنوفـًا من الإهانـة، ثم ثلاث سنوات من المقاطعـة والجوع، ثـمّ أجْبِروا أخيراً على ترك ديارهم ومدينتهم؟ إنّ اللـهَ، عزّ وجلّ، وهو العزيز القادر، يستطيع بكلمة واحدة أنْ يُهلك المشركين وقوّتَهم، أو يرسلَ عليهم المرض أو يقذف في قلوبهم الرعب والضعف؛ أو يزيل، بطريقة أو بأخرى، جميع العوائق على طريق هذه العصبـة المؤمنـة التي كانت تتلفّـظ باسمـه، جلّ شأنـه، بكل هذا الحبّ، ليكون طريق رسالتها سهلا ممهّداً؟

ولكنّ اللـهَ لم يرد لها ذلك، بل ابتلى هذه الجماعة الصغيرة بكل هذه المحن القاسية التي سمعنا عنها كثيراً. لماذا؟

يبدو أنّنا لا نملك إلاّ تفسيراً واحداً: إنّ الله، وهو رحيم قادر، أراد التمييز بين الصادقين وغيرهم، بين المخلصين والمنافقين، بين الثابتين والمتذبذبين. وذلك لأنّ الوضع العالميّ العامّ كان يتطلب تطهير العالم وتغييره وتنظيمه على أسس جديدة. إنّ الإنسانيّة وحضارتها وصلتا إلى أقصى نقطة الانحراف، وكان لا بدّ من مرور المحراث الحديديّ ليطهّر كلّ هذا التعفّن والمستنقع، لتُزرَع بذور حضارة جديدة في أرض صالحة!

من كان قادراً على حمل هذه الرسالة؟ لم يكن ذلك في مقدور أيّ جيل عاديّ، بل كان لا بدّ من جيل يستحقّ شرف هذه الرسالة. وقد اختار الله في مكة لذلك الشرف جيلَ الهجرة دون سواهم. إنّهم أكدوا استحقاق ذلك الشرف التاريخي الفريد بإخلاصهم لدينهم واستعدادهم للتضحية.

لا يسع المجال هنا لذكر كل التحولات العظيمة التي حدثت بعد ذلك على مسرح التاريخ في العالم وقتئذ. انهارت أكبر دولتين إلى الأبد، نشأت مدن جديدة، اجتاحت العالم نهضة أخلاقيّة هائلة، واكتشف الإنسان مجالات جديدة في عالم المعرفة؛ بإيجاز شديد نشأت حضارة جديدة.

ومن الضروريّ أنْ نبرز هنا بأنّ بذرة هذه الحضارة الجديدة كانت تلكم العصبة القليلة من المسلمين، التي هاجرت سنة ٦٢٢م إلى المدينة، وأنّه لم تكن في العالم كلّه آنذاك جماعة تتساوى معها وترتقي إلى مستواها. إنّها كانت تحمل في قلوبها الإيمان الخالص بالله، وكانت كلّ قوّتها في هذا الإيمان، في هذا الإيمان وحده!

وهل علينا أن نطرح من جديد ذلك السؤال العابر: ما العبر والدروس المستفادة من الهجرة النبويّة؟

وعلى الرغم من كلّ ما قلناه هنا سنجيب: يتردّد هذا الأمر بين الحقيقة والتساؤل. ذلك لأنّنا إذا أخذنا بلبّ هذه الواقعة، لا بدّ أنْ يتحوّل هذا السؤال إلى أمر واقعيّ

اليومَ مثلما كان بالأمس: هل سأجاهد من أجل الإسلام، أو سأكتفي بالتفكير في أموري الشخصيّة فقط؟

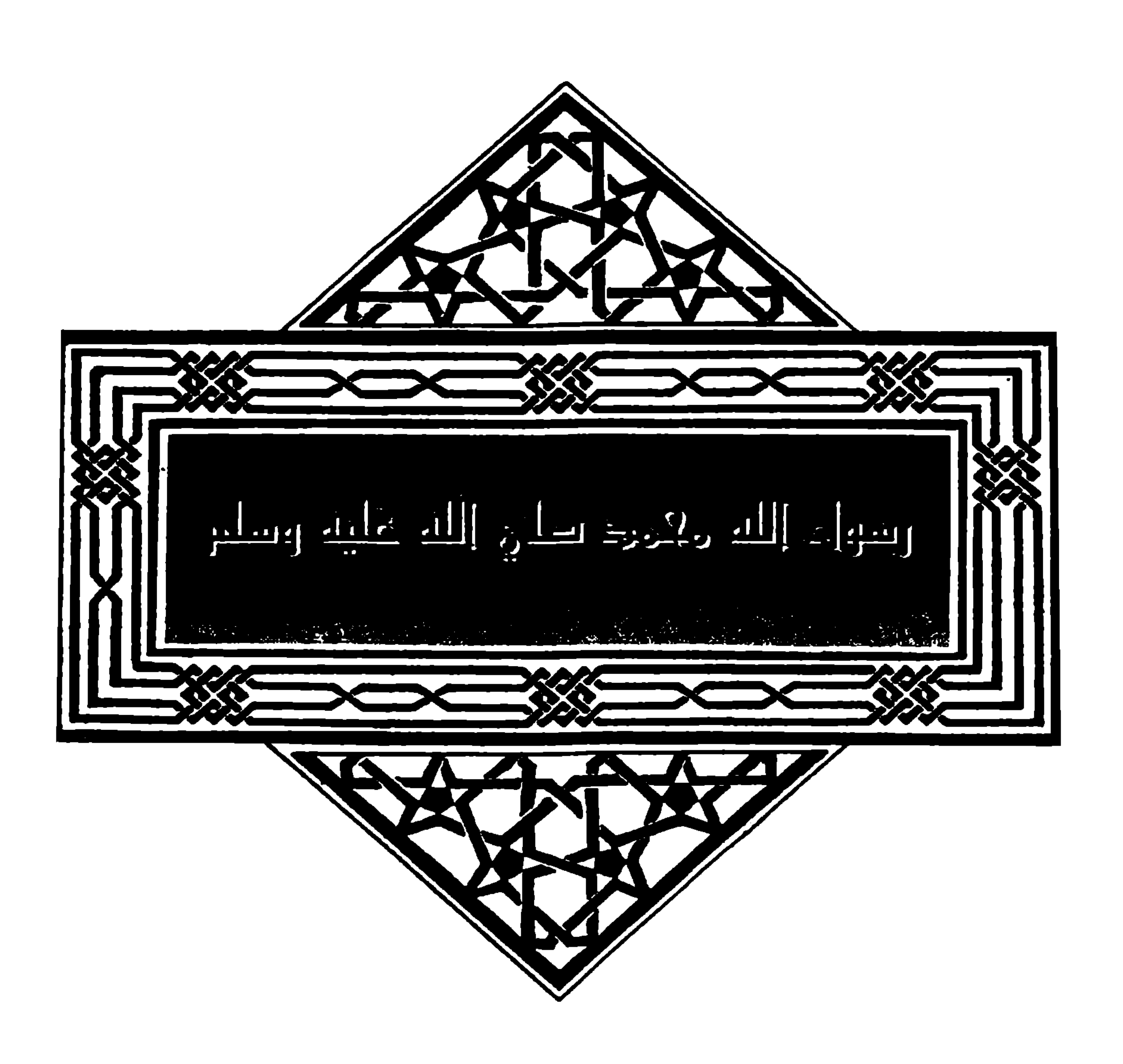
وما كان يعنيه سؤال الخروج إلى الهجرة أو البقاء بالنسبة لأحد الصحابة - ويذكر التاريخ أنّ بعضَهم اختار البقاء - فإنّه بالنسبة لي اليوم يعني: هل سأعمل لخير ومستقبل الإسلام، أو لمنفعتي الخاصة، لخير أولادي فقط أو لمستقبل أطفال العالم؟

إنّنا جميعًا نقف كل يوم أمام تساؤلات الهجرة. ويبقى السؤال كما هو، ولكن الأجوبة تختلف. على كل واحد منّا أن يجيب، أمام نفسه وأمام الله، عن السؤال : هل هو مسلم حقًا؟

إنّ أجوبة صحابة الهجرة عن هذا السؤال معروفة، إلاّ أنّهم لن يجيبوا بدلا منّا، بل يجب أن نجيب نحن بأنفسنا. ولكنّهم قدّموا لنا أروع مثال. هذا المثال هو الهجرة.

كتبت المقالة في شهر مارس سنة ١٩٧٨م.




رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم

رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم

في مثل هذا اليوم، قبل ألف وأربعمائة وعشر سنوات، وُلد نبيّ الإسلام، رسولنا محمّد- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ-.

لقد اجتمعنا هنا اليوم، مثل مئات الملايين من المسلمين على امتداد العالم، لنحيي هذه الذكرى العطرة. وهذا ما نفعله حبّاً فيه- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ- لا عبادةً له، لأننا نحن المسلمين لا نعبد إلاّ الله، عزّ وجلّ.

وهذه المناسبة فرصة سانحة لنستذكر بعضَ الوقائع من حياته الخصبة، لأنّنا نجد فيه خيرَ قدوة لحياتنا الشخصيّة، كما يقول القرآن الكريم : ﴿لقد كان لكم في رَسولِ اللهِ أسْوَةٌ حَسَنةٌ﴾ الأحزاب ٢١؛

وُلد رسولنَا محمّد- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّم- في عائلة عريقة النسب من بني هاشم من أبوين فقيرين في قبيلة قريش. ما من مسلم إلاّ وسمع بتلك القصص المؤثّرة عن وفاة أمه آمنة منذ نعومة أظفاره، تلك الأم الحنون الكريمة الناعمة، وعن حياة محمد، اليتيم الصغير، ثم عن حبّ جدّه عبد المطلب له، وعن عمّه أبي طالب الذي ترعرع في بيته ونشأ في كنفه. وكانت عيوننا تذرف دمعًا عند سماعنا في الصغر عن بعض هذه القصص من حياة نبينَا محمّد- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ- لذلك بقيت تلك القصص في خَلدنا أقوى وأجمل ذكرياتنا من طفولتنَا.

وتواصلت مع هذه الانطباعات من الصغر والشباب انطباعات جديدة، وجعلت كلا منّا يتصور في مخيّلته صورةَ رسول الله- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ- بحسب ما يراه ويتخيّله.

إنّنا نراه- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّم- في مناسبات مختلفة: نراه زوجًا مرحًا سعيداً مع خديجة، وزاهداً غارقًا في التأمّل في غار حراء، وتاجراً ناجحًا يرحل مع القافلة إلى الشام، وفارسًا مقدامًا في غزوة بدر، ثمّ دبلوماسيًا بارعًا في مفاوضات صلح الحديبية، ورجلا رؤوفًا يبكي على قبر صديقه، وفوق كل ذلك نراه مؤمنًا صلبًا

ومستبصراً، يبعث رسله في الجهات الأربع من العالم المعروف آنذاك، لأنه كان يؤمن إيمانًا لا يتزعزع في عالميّة رسالته.

اجتمعت كل هذه الخصائص والقدرات والقوى البشريّة - التي عادةً ما تلغي بعضها بعضًا - في إنسان واحد، وتكاملت واتّحدت في هذه الشخصيّة، شخصيّة رسول الله محمّد- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ-. وإذا كان الإسلام انسجامَ وتناغمَ القوى المتناقضة، قوى الجسد وقوى الروح، فإنّ محمّداً- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ- قد جسّد أكملَ صورة للعلم الذي جاء به والرسالة التي بَلّغها إلى العالمين! وعندما يتحدّث القرآن عن النبي- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ- مبرزاً أنّه رجل ومؤكداً الجانب البشريّ في شخصينه، فإنّه لا يحطّ من قدر الرسول، ولكنّه يرفع ويعلي فيه الإنسان.

ولم يكن هناك شيء في حياة النبي- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ- يحدث خارقًا للعادة باستثناء نزول القرآن، ولا كان الأمر يَستدعي ذلك، لأنّ ذلك النبيّ أرسِل إلى الناس على الأرض بكل ما هم عليه من الصفات، وكان يشعر بالخوف والرجاء والألم، مثلنا تمامًا. إنّ معركة أحد، التي شارف فيها الجيش الإسلامي على الهزيمة وجُرح فيها النبيّ- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ- كانت درسًا من الله - سبحانه وتعالى -أنّه لا تبديل لسنّته، وأنّ هذه السُنن لا تُحابي أحداً وتنطبق على المسلمين بقدر ما تنطبق على الآخرين، وأنّ أمام المسلمين طريقَ الجدّ والجهاد، والعمل المنظم والمثابرة إنْ أرادوا الوصول إلى النجاح. ليس لهم شيء يخصّهم قد أعدّه الله لهم دون سواهم يمكنهم بلوغه دون سلوك طريق العمل والجهاد. ليس هذا درسَ معركة أحد فقط، بل هذه رسالة الإسلام وحياة رسول الله- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ- لأن حياته كانت حياةَ رجل وإنسان في أروع معاني تلك الكلمة.

وفور بلوغه مبلغ الرجال شرع النبيّ- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ- في البحث عن عمل مفيد لأنّه كان بلا مال ولم يكن عمّه أبو طالب قادراً على إعانته. لذلك اتّجه إلى رعي الغنم والإبل، وأثار حميّةَ واعتراضَ بعض الأقارب الأغنياء لأنّ ذلك يخدش

في سمعة القبيلة، لكون رعي الغنم والإبل من أعمال العبيد وأبناء الفقراء في الغالب. ولكن محمداً- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ- لم يتردّد، وواصل عمله باستمتاع لأنّ رعيَ الغنم كان يذكّره بأيّام الطفولة ويقرّبه إلى الطبيعة، واستطاع إمعانَ النظر والتفكر في العالم حوله.

ونذكر هذه الصفحة من حياته- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ- لأنها تتحدّث بجلاء عن جانب من شخصيّته وطبيعته. لقد كان رجلاً حراً، بعيداً عن الكبرياء والافتخار الكاذب، محبّا للحقّ وجوهر الأمور، وبقي على حاله تلك حتىَ وفاته. وبعدما تقدّمت به السنّ وانتصر على أعدائه وأصبح زعيمًا أوحدَ لقومه وحاكمًا دون منازع على شبه الجزيرة العربية، ظلّ ذلك الراعي الفقير الذي كان يرعى غنمه في أطراف مكة، كما ظل بيته متواضعًا مثل بيوت عامّة الناس، وكان طعامه خبز شعير وحفنة تميرات. وكان يخيّط رداءه ونعله بيديه، وفي الوقت نفسه كان يبتّ في أهمّ أمور الدولة. فهل يمكن للإنسان أن يعرف كلَ هذه الخصائص ولا يحبّ هذا الرجل؟

وكان من عادته- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ- أن يستخلي في رمضان من كل سنة في غار حراء، ليقضيَ ذلك الشهر في هدوء الغار متعبّداً ومتأملاً في القضايا الكبرى التي كانت تستحوذ على تفكير عظماء الرجال: من أنا؟ ما حقيقة هذا الفضاء الواسع الذي يسميه الإنسان بالكون؟ ما حقيقة الحياة؟ لماذا نموت؟ بأيّ شيء نؤمن؟ ما الذي عليّ أن أعمله؟

"لم تجب صخور حراء الصلبة، ولا ظلام رمل الصحراء، ولا السماء الزرقاء الصافية المزدانة بالنجوم. لم يكن أحد يجيب، غير روح ذلك الرجل المتأمّل ووحي ربّ العالمين!" كما يقول أحد محبّي رسول الله- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ- واصفًا حالته النفسيّة قبل نزول الوحي الأول عليه.

وكما هو معلوم، جاءت الإجابة عن هذه الأسئلة ذات ليلة في شهر رمضان، عندما كان تفكيره وصل إلى ذروته. وبنزول الوحي الأول «اقرأ بسم ربّك الذي خلق ...» نزل عليه فيض من رحمة الله، وأنار هذا الضياء قلبه، وفي لحظة واحدة أدرك الأمورَ التي

طالما بحثت روحه في شغف عن الإجابة عنها. واستمرّ نزول الوحي على مدى ثلاث وعشرين سنةً من حياته، ولكنّ الشيء الأهمّ والأمر المصيريّ كان قد قُضيَ في اللحظة الأولى في غار حراء، وهو أنّ الإنسان ليس وحيداً، بل هناك ربّ خالق السماوات والأرض. وكل ما جاء بعد تلك اللحظة كان امتداداً لهذه الحقيقة الأساسيّة، لأنها كانت تتعلق مباشرة بعلاقة الإنسان بخالقه، ولكنها حقيقة وجب عليها أن تحدّد وتقيم تلك العلاقة على نمط جديد. وكان نبيّنا- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ- قد بلغ الأربعين من عمره.

ومن المعلوم أيضًا أن النبي- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ- ذهب بعد هذا اللقاء الأول مع ملك الوحي إلى زوجه خديجة في حالة من الذهول والارتجاف وكشف لها عن سرّه، وما كان منها إلاّ أن هدّأته وثبّتته وشجّعته، وكانت أول من آمن برسالته - أي أول مسلمة - وللمرأة المسلمة حقّ الفخر في استنتاج بعض الأمور المهمّة لحياتها من هذه الحقيقة، وكذلك هناك حادثة أخرى تضيء لنا جانبًا من شخصيّة رسول الله- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ-. فبعد مضيّ سنوات عن وفاة خديجة الأمينة، كانت عائشة - زوج النبيّ- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ- في مقتبل عمرها تغار من خديجة لمكانتها في نفس النبيّ- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ- حتّىَ قالت: «ما غِرْتُ للنبيّ- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ- على امرأة من نسائه ما غِرْتُ على خَديجَة، لكثرة ذكره إيّاها، وما رأيتها قطّ» رواه مسلم.

وقالت أيضًا: «فغِرْتُ فقلت: «ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر، فأبدلك الله خيراً منها!»

ولم تنسَ الأمة فضل خديجة، هذه المرأة التي ارتقت إلى مصافّ عظماء البشريّة، فوضعتها على رأس أمهات المؤمنين - كل المؤمنين إلى قيام الساعة.

وبعد اللقاء الأول برسول السماء والإثارة الأولى في تلك اللحظات، أدرك النبيّ- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ-، معنى رسالته العالميّة التي اختير لحملها وتبليغها، ولم تكن هناك قوّة تستطيع ثنيه عنها أو الحيلولة دون القيام بها. لم يكن هذا الدين

الجديد، بكل ما جاء به من التعاليم، يعني التغيير الكلي في المعتقدات والعبادات والعادات والأعراف فقط، بل كان يعني تغييراً جذريًا في العلاقات الأسريّة والاجتماعيّة. من هنا ندرك منشأ المعارضة القبليّة العنيفة التي انتهجها صناديد قريش، لأنهم كانوا يتحكمون في عقول وأجسام أبناء قبيلتهم، وتحوّل الأمر إلى عراك البقاء أو الفناء بين عبادة الأصنام الكاذبة والإيمان بالله الواحد الرحيم القادر.

يُروىَ أنّ أبا طالب - عمّ النبي، صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ- قد نصحه بعدم التحدي لأكابر قومه، لأنّ ذلك يُعرِّض حياته للمخاطر ويسبب المكاره لأقاربه، نظراً إلى أن العرف القبلي كان يلزمهم بحمايته والذود عنه. ولم يكن منه إلا أن قال: يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أنْ أترك هذا الأمر حتّىَ يُظهره الله أوأهلك فيه، ما تركته!»

هزت هذه الكلمات القاطعة الصارمة أبا طالب، ومع ذلك استمرّت حمايته لابن أخيه ولم يُسلمه لشيء أبداً، ولكن لم يقدر على تفسير عزمه وعدم تردّده في الإجابة. لم يقدر على فهمه لأنّه لم يكن مؤمناً بالرسالة الجديدة، ولو كان مؤمنًا لأدرك أنّ هناك أموراً وقيمًا لا تخضع للمقارنة مع أشياء أخر، لأنها خارجَ جميع الحسابات والأسباب والمصالح، وحتّى فوق الحياة والموت. هناك خالق العالم، ولسنا نحن البشر سوى مخلوقاته هو - هذه هي الحقيقة الأساسيّة، الحقيقة البسيطة، الحقيقة قبل وفوق أيّ حقيقة أخرى، وفي مقابلها تُبقي الأسباب والاعتبارات الأخرى عاجزةً ضعيفةً.

وفي هذا اللقاء بين النبيّ - صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ- تكمن أعمق رمزيّة، فأبو طالب رجل عاقل طيب النفس ، ورسولنا- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ- كذلك، لكنّه مؤمن قبل كل شيء. من هنا كان أبو طالب يمتثل للنظام القائم في المجتمع المكي، بينما ظلّ رسول الله- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ- صامداً يعمل لتغيير ذلك النظام القائم تدريجيًا.

وتحت تأثير هذا الدين سيتحمّل وسيتجاوز النبي- صَلّىَ اللهُ عَليْهِ وسَلّمَ-

وتلك العُصبة القليلة من أتباعه المؤمنين الخُلّص كلَّ المحن وكل الامتحانات التي اعترضت طريقَهم.

في بداية الأمر كانت الإهانة تقابلهم في طرقات مكة، ثمّ جاءت المقاطعة الاقتصاديّة وسنوات الجوع في الشعاب، فالطرد من ديارهم والهجرة إلى المدينة، تلت ذلك معركة بدر الفاصلة ومعركة أحد الدمويّة.

وبسبب الفكر السليم الصحيح الذي كان يقودها، كانت كلّ حركة هذه الجماعة الصغيرة تحدث في الوقت والمكان المناسبين، لذلك كانت كل الحركات تلك على انفرادها تسجّل صفحة من صحائف التاريخ.

ومن هنا يقول أحد المفكرين الأوربيّين: "كان بروز ذلك الرجل بالنسبة للعرب ميلاداً وخروجًا من الظلام إلى النور، وبه فقط أُحْيِيَتْ صحراء الجزيرة العربيّة. مع ذلك الرسول الشجاع نزل هدىً من السماء لقوم من الرعاة كانوا عَبر تاريخهم يتيهون مجهولين في الفيافي، وجاء برسالة آمنوا بها. وانظروا ما الذي حدث: لقد عَرف العالم كلّه ذلك القومَ المجهولين، وما كان صغيراً أصبح عالميَّ الحجم. وبعد قرن واحد فقط وصل سكان الجزيرة العربيّة إلى الأندلس غربًا وإلى الهند شرقًا. وتلألأت الجزيرة بضياء الشجاعة وفكر العباقرة، وأضاءت مناطقَ شاسعةً من العالم المأهول مدّةً طويلة من زمن التاريخ. فدينهم دين عظيم قادر على بعث الحياة. وتاريخ شعب ما يصبح خصبًا، ويسمو بروح الإنسان بمجرّد أن يصبح ذلك الشعب مؤمنًا. وأولئك العرب وذاك محمّد وذاك القرن من الزمن - ألم يكن كلّ ذلك مجرّدَ شرارة، شرارة واحدة أنارت ذلك الشعب في صحراء الرمال القاحلة..."

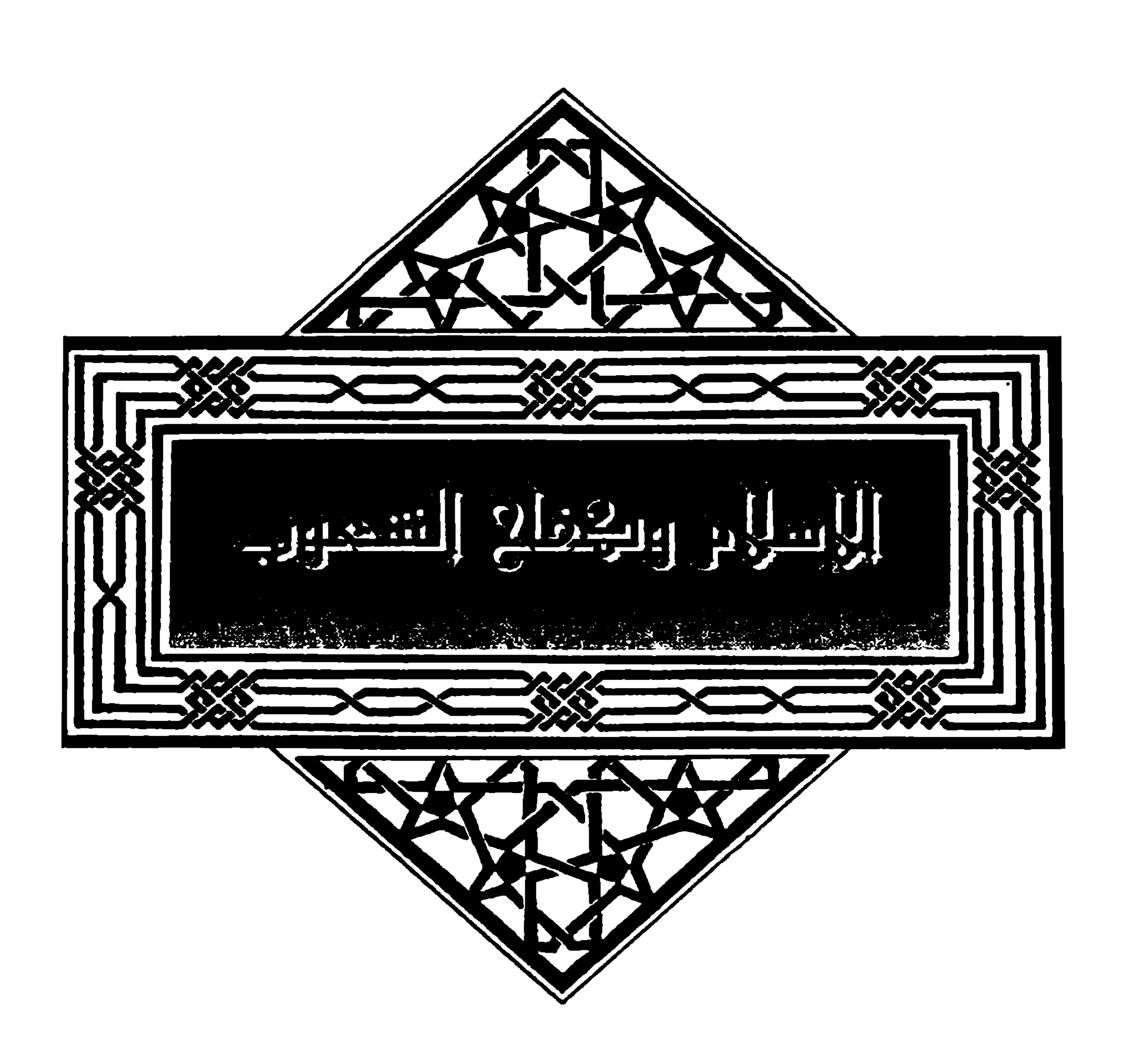
وقد أكّد هذا المفكّر بكل وضوح: إن الدخول في الإسلام كان يعني الولادة للعرب، والخروجَ من الظلام إلى النور، والدخول في التاريخ من أوسع أبوابه. ولكن هذا هو الشطر الأول من هذه السنّة الإلـهيّة، والشطر الثاني المسكوت عنه هو: إنّ الابتعاد عن الإسلام يعني العودة إلى الظلام، والنزول من على مسرح التاريخ! والتاريخ خير شاهد على أنّ هذه السنّة لم تكن تنطبق على العرب دون سواهم، بل بالقدر نفسه هي

جاريـةً في الأتراك والفرس والبربر وكافـّة الشعـوب الإسلاميـّة الأخرى. وهذه السنـّة جارية فينا اليوم أيضـًا.

وفي نهايـة هذه العرض السريع علينا أن نوكد أنـّنا، عندما نحتفل اليوم بالمولد، نحن في حقيقـة الأمـر لا نحتفل بميلاد رجل عظيم، بل نحتفل بميلاد شعب واحد وشعوب كثيرة أخرى، وفي النهاية نحتفل بميلاد حضارة إسلاميّة عظيمـة. وفي هذا الجانب تكمن عظمة وأهمـّيـّة هذا اليوم الشهير.

وأشكركم على طيب الاستماع، والسلام عليكم ورحمة اللـه وبركاتـه.

كتبت المقالة في شهر ينايـر سنة ١٩٨١م.


الإسلام ويقظة الشعوب

الإسلام وكفاح الشعوب الإسلاميّة

هناك تفكير وكتابات عن الإسلام تختلف كثيراً في مضمونها، ولكن شيئًا واحداً محلّ إجماع الجميع، وهو شموليّة الإسلام، أي هدف الإسلام الدائم ليكون فلسفةَ الإنسان الشخصيّة ومبدأ بناء المجتمع، أو بعبارة أخرى أن يكون دستورَ حياة شاملة. يتفق حول هذه النقطة المدافعون عنه المتحمّسون والمحللون المتعنّتون والنقاد اللاذعون على حدّ سواء. وبطبيعة الحال، يشاركهم الرأيَ كاتبُ هذه السطور، لأنّه- في حقيقة الأمر - يمكننا بناءً على تقرير هذا المبدأ فقط الحديث عن دور الإسلام في الحروب التحريرية لتحرّر الشعوب الإسلاميّة.

والحروب التحريرية لها ثلاثة جوانب: جانب سياسيّ (من أجل الاستقلال)، جانب ثقافيّ (لاستعادة الهُويّة)، وجانب اجتماعيّ. وغرضنا من هذه المقالة هو الحديث عن كل جانب من تلك الجوانب الثلاثة في كلمات موجزة، بمقدار مايسمح بذلك حجم المقال القصير.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية كانت هناك فقط أربع دول إسلامية مستقلّة على خارطة العالم، وهي تركيا وأفغانستان والمملكة العربية السعودية واليمن. واليوم (سنة ١٩٨١م) بلغ عدد الدول الإسلامية المستقلّة أكثر من أربعين دولة. إنّ هذا التحول التاريخي الكبير- وهو من أهمّ النتائج السياسيّة في هذا القرن لأنّها نتائجُ عالميّة الحجم- ليس أكثر من نتيجة ظاهريّة أو نتيجة نهائية لما يمكن تسميته بـ "الاحتلال الأوربّيّ للعالم الإسلامي". لقد سجل التاريخ في القرنين التاسع عشر والعشرين (ابتداءً بالاحتلال الهولندي للهند سنة ١٧٩٨م وانتهاءً بالاحتلال الروسيّ لأفغانستان ١٩٧٩م * قيامَ أكثر من ستين حربًا بين الدول الأوربية الاستعماريّة التي حاولت فرضَ سيطرتها الكاملة على الدول الإسلامية، وبين الشعوب الإسلاميّة التي دافعت عن حريّتها. لقد خسرنا معاركَ كثيرةً في المدة الزمنيّة المذكورة، ولكنّه يبدو أنّنا سننتصر أخيراً في

الجولة الفاصلة من الحرب المصيريّة هذة.

إنّ كل بحث تاريخيّ موضوعيّ يرشدنا إلى النتيجة التي لاتقبل جدلاً: كانت تلك القوى قوىً مسلمةً وكان ذلك الفكر هو الإسلام! لقد كان الإسلام - وكذلك حالنا اليوم - هو الفكر الوحيد القادر على تحريك الشعوب، وبه فقط يمكن القيام بأيّ إصلاح حقيقيّ في العالم الإسلاميّ.

وقد يكون استنتاجنا هذا مفاجئًا لأولئك الذين ليس لهم اطلاع واسع في هذا الجانب، ويعود سبب عدم فهم أولئك إلى كون الواقع العلمانيّ والمعادي للإسلام ، القائم في أغلب دول المسلمين يحجب حقيقةَ الشعوب الإسلامية عن الرؤية. وسنعود لاحقًا إلى الحديث عن هذا التناقض المهمّ لنلقيَ عليه ضوءاً أكثرَ.

إنّ جميع الحروب التي خاضها المسلمون لتحرير دولهم، ابتداءً من رأس القرن التاسع عشر وحتىَ الحرب الأفغانيّة اليوم، كانت تحت راية الجهاد ، أي قامت باسم الحرب الإسلاميّة الدفاعيّة المقدّسة.

وبمجرّد صيحة الأمير الإندنيسيّ "ديبونجارا" (المعروف في الغرب باسم الأمير الإندنيسي "هَامْلت") إلى مقاومة الاحتلال الهولنديّ في جزيرة جاوه (٢٥-١٨٣٠م) انضمّ إليه المتطوّعون، وكان أغلبهم من العلماء ومدرّسي الدين من القرى. وفي جزيرة سومطرا نشبت المقاومة سنة ١٨٢١م تحت اسم "حرب العلماء" (أو بادري حرب) واستمرّت ١٦ سنة، وقادها العلماء، كما قاد رؤساء إحدى الطرق الصوفيّة حربَ مقاومة الاحتلال في مقاطعة جيربون في جاوه. وحتىَ آخر مقاومة في سومطرا الغربية سنة ١٩٢٧م كانت تحت قيادة العلماء. وبعد مدة وجيزة لقيام جبهة التحرير الإندونيسيّة باسم "رابطة المسلمين" (أو شركة الإسلام Sarikat Islam) بلغ عدد أعضائها أكثر من مليوني شخص! وفي العام نفسه نشأ تنظيم باسم "حزب محمّديّة" الذي انطلق من الأسس الدينيّة بقدر ما انطلق من الأسس الوطنيّة المعادية للاستعمار. وترعرع أكثر قادة حرب التحرير الذين حقّقوا استقلال البلاد فيما بعد في صفوف رابطة الشبان المسلمين(Jong Islamieten Bong)، إلاّ أنّ انشقاق الرؤوس العلمانية القوميّة

عن الحركة سوف يحدث بعد ذلك بمدّة، ما بين سنة ١٩٣٠-١٩٤٠م.

وكانت حركة الأمير عبد القادر في الجزائر، التي قَضى عليها المستعمر الفرنسيّ بعد خمس عشرةَ سنة من الحرب الضروس (٣٢-١٩٤٧م)، حركةً إسلاميّةً أصيلةً، وكان والد الأمير عبد القادر رجلاً مرابطًا وأحدَ زعماء الطريقة القادريّة الصوفيّة في الجزائر. ومن جانبه كان يبرز الأمير عبد القادر دائمًا أنه لايقود حربًا جزائريّةً ولاعربيّةً، بل يقود حربًا إسلاميّةً على المحتلّ الأجنبيّ، وما زال العَلم الجزائريّ اليوم، الأخضر-الأبيض اللون، هو العلم نفسُه الذي رفعه هذا البطل التاريخيّ المسلم. واستمرار الجزائريين في تمسّكهم بعلم الأمير عبد القادر هو دليل واضح لاستمرار نمط الحرب الدينيّة التي خاضوها على مدى ١٤٠ سنة حتّى نيل الاستقلال.

إنّ الدوافع الدينيّة فيما يُعرَف بـ "الحرب الأفغانيّة الأولى" من سنة ٣٩-١٩٤٢م لا تقلّ وضوحًا عن الحرب الأفغانيّة القائمة. وأرى أنّ أحد التقارير الرسميّة جدير بذكره هنا، فقد جاء فيه: لقد قوبلنا بالعداوة البالغة من الشعب الأفغانيّ بأجمعه، الذي اتّحد في وجهنا اليوم في حرب هي حرب دينيّة ووطنيّة في آن واحد." (من كتاب A Savage War of Peace, Alastair Horne).

واليوم يمكننا قراءة مثل هذا التقرير حرفيًا ضمن تقارير الضباط الروس من معارك أفغانستان الحاليّة. وقد نقل مؤخراً أحد الصحافيين الذي تنقل بين مراكز اللاجئين الأفغانيين في باكستان (١٩٨١/١٢/٤م) بأنه كان يتلقى جوابًا واحداً عن سؤاله عن سبب مقاومتهم للروس، وهو أنّ الغزوَ الروسيَّ يهدّد الروحَ الإسلاميّة لدولة أفغانستان!

وبناءً على تأكيد أحد الكتاب المعاصرين كانت الانتفاضة المهديّة في السودان (التي أسفرت عن هزيمة اللواء غوردن وقيام الدولة المهديّة من سنة ٨١-١٨٩٨م): "من بدايتها إلى نهايتها انتفاضة إسلاميّة، لا شيئًا آخر."(١)

لقد استمرّ جهاد محمد عبد الله -العالم الإسلاميّ وعضو الطريقة الساحلية في الصومال- أكثر من عشرين عامًا، إلى أن تم القضاء عليه في سنة ١٩٢٠م، وكانت دولته في أساسها مبنيّةً على أحكام الشريعة الإسلاميّة.

وقاوم البطل الأسطوريّ الإمام شامل هجمات المحتلّ الروسيّ في قوقاز مدة خمس وعشرين سنةً، وقد هاجر إلى مكّة إثر هزيمته، حيث تُوفّيَ فيها. وقد استلهم الكاتبُ ليسلي بلانشي من شخصية هذا البطل المسلم شخصية بطل كتابه المشهور، ووصف وصفًا مبدعًا في (Lesley Blanche, The Sabus of Paradise).

إنّ القادة الروحيين في حرب مقاومة الاستعمار الإيطاليّ في ليبيا (من سنة ١٢-١٩٣٢م) كانوا من صفوف الطريقة السنوسيّة الصوفية. وأظنّ أنّ الدولة السنوسيّة في ليبيا، التي قامت بعد الحرب العامّة الثانيّة، كانت دولة وحيدة في تاريخ الإسلام التي أقامتها طريقة من الطرق الصوفيّة. إنّ مجيئ حكم القذافي قد غيّر شكلَ وروحَ هذه الدولة السنوسيّة.

إن المجاهدين المغربيين في حرب الاستقلال يَستلهمون روحَ مقاومتهم من شخصية إسلاميّة عظيمة، ذلكم هو البطل الأسطوريّ عبد الكريم، شيخ قبيلة رفاع. وكان من شأنه أن أعلن قيام جمهوريّة إسلاميّة (لامغربيّة أوعربيّة) في أعقاب انتفاضته سنة ١٩٢١م.

وحتىَ اليوم في الحرب العراقيّة - الإيرانيّة يحاول كل طرف إقناعَ شعبه بأنّه يدافع عن حياض الإسلام، ويعلن أن القتلى نالوا درجة الشهادة - تلك الدرجة الرفيعة، وتُشيَّع جثمانهم وفق المراسم العسكريّة المتميّزة. بطبيعة الحال، هناك طرف واحد صادق فقط فيما يقوله، ولكن ذلك لايغير شيئًا من النتيجة. وحتىَ كمال آتاتورك، الذي طفق فيما بعد بإزالة كلّ أثر للإسلام في تركيا بتطرّف نادر، كان في مرحلة معارك التحرير ينادي أمام المقاتلين من أناضول بأنّ الحرب التي يخوضها حربُ الذود عن بيضة الإسلام. من هنا كانت المراسم الدينيّة تسبق خوض المعارك بمشاركة شخصيّة لمصطفى كمال. ولاشكّ أنه لم يكن ليحقّق شيئًا لو كشف في بداية حرب تحرير تركيا (حرب الخلاص) عن أهدافه الحقيقيّة الخفيّة.

وقد قامت هناك أربع انتفاضات فقط في دول المسلمين لتحرير الوطن من الاحتلال من غير أن تنطلق من أسس إسلاميّة، وهي تونس ولبنان وسوريا وما يجري الآن في

فلسطين. وباستثناء تونس، دولة يسكنها المسلمون، كانت الدول الثلاث المتبقيّة مزيجًا من قوميات ومذاهب وأديان. يعيش في سوريًا أتباع مذاهب عديدة، ودولة لبنان مزيج من الأديان، وتشابهها في ذلك الحركة الفلسطينيّة لانتهاجها مبدأ الدولة المسلمة - النصرانيّة - اليهوديّة المشتركة.

إنّ تحفظ العلماء تجاه فكرة دولة باكستان، التي تَستدعي بعض التساؤلات و تتعارض في ظاهرها مع المبدأ الذي قرّرناه هنا، يتضح تمامًا إذا تذكرنا بأنّ التحفظ في أصله كان على رابطة المسلمين بسبب ارتباطها المفرط بالاستعمار البريطاني. وقد تبيّن بأنّ تحفظ العلماء كان في محله، لأنّ النزعة العلمانية الغربية المحركة للرابطة كانت عاجزة كليًا عن تطوير باكستان على أسس إسلاميّة، وكانت مدعاةً لعدم الاستقرار بصورة مزمنة. إنّ المعركة القائمة في باكستان من أجل تطبيق الدستور الإسلامي التي استمرّت نحوَ ثلاثين سنة من غير أن تُثمر عن نتيجة مقبولة، لتعطينا صورة واقعيّة عن الحالة التي آلت إليها جميع الدول الإسلاميّة تقريبًا بعد نيل الاستقلال السياسيّ. وهذه هي حالة الركود السياسيّ التي فيها تطالب الشعوب الإسلاميّة بإقامة الدولة الإسلاميّة بكلّ ما تعنيه هذه الكلمة، وليس بدولة تحكمها نخبة مغتربة العقول التي خرّجتها جامعات الغرب - أو الشرق، ووُضعت الشعوب الإسلاميّة في موقع لابدّ من إعلان الحرب من جديد، ولكنها في هذه المرّة حرب على المواطنين المغتربين الأجانب، دفاعًا عن هويّة الشعوب. ولكن بحث هذه المسألة يخرج عن مرامي هذه المقالة.

"إذا كان لابدّ من أن نتحولّ إلى فرنسيّين، كان يمكننا ذلك دون تقديم مليوني شهيد" - كانت هذه العبارة مكتوبةً على اللافتات التي حملها الطلبة الإسلاميّون المتظاهرون في الجزائر مؤخّراً. إنّ رسالةَ هذه اللافتة واضحة إلى درجة أنها ليست بحاجة إلى أيّ تعليق.

وكلما عجز شعب ما عن التعبير عمّا يشعر به في دواخل قلبه، وَجد الشبابُ كلمة صادقة للتعبير عن ذلك الشعور، لأنّ الشبابَ لم يكن أمامه "وقت كاف" للابتعاد عن أحاسيس الشعب، بل بقي في أحضانه، قريبًا من قلبه.

لقد انشرت عبارات ملئت بالسخرية عن شرائح واسعة من الشعوب الإسلاميّة، مثل تلك بـأنّـها "أرْضِعَت الإسلامَا" ومهـما يكن الأمر، فهذه هي الحقيقـة، لأنّ الإسلام- بمنتهى البساطة- طريقة تفكيرٍ وحياةٍ وشعورٍ تلك الشعوب. إنّ الإسلام أكثر من كونـه دينًا، إنّـه اعتقاد وفكر وطريقة شاملة للحياة، إنّـه جزء من الطبيعة. هذه هي الحقيقة التي لا يمكن تجاوزها، الحقيقة التي سوف تحدّد دائمًا من جديد نظامَ وسيرَ الأمور في العالم الإسلامي، بغضّ النظر عن الانحرافات المؤقّـتة عن الجادّة.

كما أن الحقيقة المذكورة تعرّفنا، قبل كلّ شيء، بوضع حقيقي لمايُسمّىَ بـ "النخبة" في هذا العـالم، ويُخضِعها لما يمكننا تسميته بـ"قانون المسافة المتساوية"، لأنّ تلك النخبة سوف تكون وطنيّـةً بقدر متساو لكونها إسلاميّـة.

إنّ الحركات العلمانيّـة، التي بطبيعتها تستند إلى الامتيازات والأفضليات المعطاة لها، قد نشأت - باستثناء نادر - بالانشقاق عن حركات كانت مـؤسّسـةً في أصلها على القيم الإسلاميّــة. ومن لحظة تحقيق الاستقلال الشكلي أصبح هذان الاتجاهان المتناقضان عاملين أساسين مكوّنين لحركات التحرير، ومن ثمّ نشأ بينهما الصراع الذي يعطينا صورةً معهودةً عن المجتمع الممزّق المنقسم. ولعلّ النموذج الأمثل لذلك ما يحدث في تركيا الكماليّـة: وقفت النخبة المثقّفة في جهـة، مقابل الشعب، دونما أيّ روابط أو اتصال صادق بينهما، إذ قسّمتهما هوة عميقة لاسبيل إلى اجتيازها. ومعلوم أنّ مصطفى كمال قد لجأ إلى تجربة انفرد بها في تاريخ البشريّـة بمحاولة تغيير الذاكرة في الجسد القوميّ. فقد أمر بتغيير حروف الكتابة باصدار قرار واحد (وهي سابقة أولى من نوعها في العالم المتحضّـر)، كما أجرى عدةَ "إصلاحات" موازية. وبذلك قد أحرق مصطفى كمال جميعَ كتب ومكتبات تركيا، وكلّ كلمة مكتوبة حتى تاريخ "قرار الإصلاح"، ودفن تاريخَ تركيا برمّته، وتردّت الدولة في نوع من محو الذاكرة القوميّـة. ومع إشراقة فجر ليوم صدور "قرار الإصلاح" كان الشعب التركيّ أكثر شعوب العالم أميّـةً! أمّا النتيجة، فهي أنّ دولة تركيا -على الرغم من مرور خمسين سنةً عن الإصلاحات الموجّهة ضدّ الإسلام- مضطرةٌ إلى البحث عن الحل في الخيار بين فوضى الحرب الأهليّـة وبين الديكتاتورية العسكريّة. لم يَعد يُسمَع صوت لقوّة عالميّة سابقة

في رسم السياسة الدوليّة، لأنّ تركيا تهتّم بأمور العالم بدلاً من اهتمامها بشؤونها الداخليّة. ولاشكّ أن وضعها الحالي يناسب سياسة أوربا وأمريكا، ولكنّه لايناسب شعبَ تركيا والعالمَ الإسلاميَ قطعًا. (٢)

بطبيعة الحال ليست جميعُ الأمثلة مأساويةً بدرجة المثال التركيّ، ولكنّ مصطفى كمال وحدَه كان يظهر عداوةً صريحة ومكشوفةً للإسلام من بين جميع الزعماء العلمانيين الذين داسوا بأقدامهم على التوجّه الإسلامي لشعوبهم، لذلك كانت النتائج متطابقةً مع قدر معاداتهم للإسلام.

إنّ النزاع بين الشعوب و"نخبتها" الحاكمة قائم في مجتمعات أخرى أيضًا، ولكن الذي حدث في هذا الجانب في مجتمعات المسلمين سابقة هي الأولى من نوعها في تاريخ البشريّة. وعلى الرغم من بروز هذه الظاهرة في أشكال مختلفة وبدرجات متفاوتة، فإنّ ظهورَها قد اكتسب أهمّيّةً عامّةً. (٣) "إنّ تناقضات كثيرةً كانت وراء تمزيق مجتمعنا، ولكنّ الدور الرئيسي في ذلك كان عائداً إلى فصل طبقته المثقفة عن طبقاته التقليديّة" - يقول أيوب خان، رئيس دولة باكستان السابق. (٤) ويقرّر أحد الأوربيين هذا الشيء نفسَه بقوله: "إنّ التناقض الكبير بين ما سعى إليه زعماء باكستان وما تطلعت إليه جماهير المسلمين في باكستان كان سببًا رئيسيًا لجميع القلاقل والأزمات التي مرت بها باكستان، وما زالت تعيشها للآن." (٥) وأثناء حديثه عن "النخبة المتغربّة" يقول أ. قرشي، وزير التعليم السابق في باكستان: "لقد كانت النخبة تفرض أنظمة التعليم والاقتصاد والمؤسّسات الاجتماعيّة والأخلاق التي تخنق كل مقوّمات حياة الشعب. وقد فُرض ذلك كلّه باسم التطوّر الذي جرى وفق تقليد أعمى لنمط الحياة الغربيّة. إنّ الشعوب الإسلامية لن تشقّ طريقها إلى هويّتها الأصيلة حتّىَ تُطيحَ بحكم تلك النخبة التي لم تصنع غيرَ الفقر المدقع لشعوبها، وغيرَ سَوْق دولها إلى حالة عقدة النقص النفسيّة، وبالقدر نفسه كانت تشلّ قدرات شعوبها على التفكير والحركة." (٦)

ولكن، لماذا أضحى ذلك واقعًا؟ وكيف نشأت تلك الظاهرة، ولماذا لاتتغلب الشعوب الإسلاميّة على حالة الخلافات المزمنة هذه؟

هناك سببان رئيسان. أولهما أنّ سلطات الاستعمار - بعدما أجْبِرَت على تسليم السلطة السياسيّة - سلّمتها إلى تلامذتها الروحيين الغرباء عن شعوبهم وأتباع المثقفين الغربيين. وآخرهما، وهو أهم وأخطر، لأنّه يكمن في الأنظمة التعليميّة الموروثة عن الأسياد المستعمرين، وهو أكبر وأخبث عمليّة تخريب ثقافيّ في التاريخ مورست على شعوب نالت حريّتها. لقد تبيّن جليًا أن الجامعات والمعاهد الأمريكيّة والفرنسيّة والإنجليزيّة المنتشرة في عواصم العالم الإسلاميّ "هدايا الفشل" العملاق!

ويتحرك العاملان المذكوران بتفاعل كبير؛ فالنخبة المتغرّبة الحاكمة تتكرّر وتتكاثر من خلال الأنظمة التعليميّة القائمة، وتتصرّف وفق ضرورةِ استمرار "مختبر التجارب لبقاء النوع". إضافة إلى ذلك يتمّ تكوين حلقة مفرغة: إذا أراد الشعب رؤية وتصوّر المشكلة فعليه بالتعلم. وإذا تعلّم لم يَعد يرى المشكلة، أو يراها في صورة منافية لحقيقتها. وكأن الأمور سوف تستمرّ هكذا إلى مالا نهاية.

ولعل هذا الوضع هو الدافعُ الرئيسيّ لجعل الحركاتِ الإسلاميّة ضرورةَ تغيير جذريّ للنظم القائمة على قائمة جدول أهدافه الإصلاحيّة، باعتبارها شرطًا أساسيًا لنجاح استعادة هويّة الشعوب الإسلاميّة المهدّدة.

قد تكون أحكامُنا التي ذهبنا إليها مبالغًا فيها، لذلك تذكر هنا رأيَ كاتبين غربيين معتمَدَيْن. يقول جيب: "إنّ ردود الفعل الداخلية تجاه قيم الثقافة الغربية تمثّل أهميّة حقيقيّة بالنسبة للإسلام، القيم التي تسعى لإيجاد مستقرّ لها تحت كنف العبارات المستعارة المختلفة. وكل هذا يتوقّف على احتمال استعداد المجتمع الإسلاميّ للدفاع عن قيمه وتراثه الثقافيّ في وجه الغزو الغربيّ. وإذا فشل في ذلك، فإنّه قد ضاع باعتباره مجتمعًا إسلاميًا، وفي حالته تلك سيصبح - أقلّ أو أكثر - صورةً طبق الأصل للمجتمع الغربيّ، مع اختلافات ثانويّة لمجتمع ما، خاصةٍ بدول ولغات مختلفة." (٧)

ويقول يانسن: "إن استراتيجيّة الغزو الغربيّ تكمن في هدم النظام التعليمي القائم، سواء بمسخه نهائيًا أو باستبداله كليًا، وإحلال النظام التعليميّ الغربيّ

محلّه، وحتىَ ببنائه على اللغات الأوربيّة؛ وذلك بهدف زرع التفرقة في روح المجتمع بتنشئة نخبة مثقّفة موغلة في أقصى درجات الابتعاد عن تراثها الثقافيّ." (٨)

وقد سبق أن أوضحنا الأسباب المؤدية إلى استمرار هذه الحالة بعد خروج المستعمر الأجنبيّ. لم تستعجل النظم الحاكمة بتغيير الأوضاع القائمة، وإن عمدت إلى شيء من هذا القبيل فعلت ذلك بسبب الضغوط الشعبيّة المستمرّة، وبقدر قوّة تلك الضغوط.

وعلى سبيل المثال، هناك نظامان متوازيان للتعليم في أندونيسيا منذ بداية هذا القرن، أحدهما إسلاميّ -شعبيّ أصيل- تدعمه الحركتان الجماهيريّتان الإسلاميّتان (وهما شركة إسلام وحزب محمّديّة)؛ ونظام غربيّ موروث عن المستعمر الهولنديّ، وتدعمه الحكومة. وفي سوريا كانت أغلب المدارس أهليّةً - وأكثرها في أيدي المنصّرين - وأدمِجَت مع النظام التعليميّ الرسميّ، ولكنّ المدارس الإسلاميّة ظلت خارج النظام، لأنّ المدارس من النوع الأوّل كانت أقرب إلى روح الحزب العلمانيّ الحاكم. وعلى الرغم من مرور خمس عشرةَ سنة عن الاستقلال في الجزائر، ظلّت فيها ثلاثة أنظمة تعليميّة منفصلة: أولها أجنبيّ تحت إشراف الكنيسة الكاثوليكيّة؛ والثاني حكوميّ على النمط الغربيّ؛ والثالث إسلاميّ تحت إشراف وزارة الشؤون الدينيّة. ولم يحصل دمج الأنظمة الثلاثة القائمة إلا سنةَ ١٩٧٦م، وهذا جانب ظاهريّ فقط لتوحيد الأنظمة التعليميّة. ولكنّ المسألة الجوهريّة لتوحيد الأنظمة - وهي تعريب التعليم - كانت تسير ببطء شديد، الأمر الذي دفع بالطلبة إلى القيام بالمظاهرات والقلاقل (ووُصفت هذه المظاهرات رسميًا بأنّها مظاهرات أصوليّة!).

إنّ المسلمين وحدَهم يؤيّدون بإخلاص وقناعة حركةَ التعريب في المدارس الرسميّة والدوائر الحكوميّة في دول شمال أفريقيا (وهي المغرب والجزائر وتونس)؛ بينما كانت هذه القضية مجرّد شعار انتخابي لدى العلمانيّين - نظراً إلى شعبيّتها

الكبيرة - يُرفَع أثناء الحملة الانتخابيّة، ثمّ تطويها صفحة النسيان بعد ذلك. ومن هنا تنشأ تلك التناقضات التي ليس لبقيّة العالم سبيل إلى فهمها، حيث تظل لغة الدوائر الحكوميّة أجنبيّة، ورئيس الدولة يخاطب شعبَه بلغة المستعمر السابق؟

وليست الحركات اليسارية استثناءً في هذه النقطة. لقد كان الزعيم المغربيّ اليساريّ المعروف/ مهدي بن بركة (كان معاديًا للنظام الملكي وقُتل في فرنسا في ظروف غامضة) يطالب ببقاء اللغة الفرنسيّة لغةً أساسيّة في نظام التعليم، بحجة "ضرورة إبقاء النوافذ مفتوحةً نحوَ الحضارة الغربيّة." ولم يكن يرى- بطبيعة الحال - وجودَ الحضارة الإسلاميّة القائمة، وأنّ اللغة العربيّة بالذات تمثّل "نافذةً مفتوحةً" نحوها. (٩)

ولكن، ما الفرص القائمة أمام هذه النخبة المغتربة لاستمرارها في الإمساك في أزمّة أمور الشعوب التي تتحكّم في مصيرها؟ وما حجم قوّتها الحقيقيّة؟

إنّ الحركات الإسلاميّة تعتمد على الشعوب، بينما تعتمد النخبة العلمانيّة (الحاكمة غالبًا) على الجيش. إذاً، فقوّتها تساوي قوةَ الجيش. صحيح أنّ قوّة الجيش كبيرة، ولكنّها مؤقتة كذلك.

وإذا سلّمنا بصحّة المقولة القائلة "إنّ الانتصار النهائي من نصيب الشعب"، يمكننا القول: إنّ الإسلامَ سوف ينتصر في العالم الإسلاميّ.

ليس هناك نظام خاص مسبق موضوع للأبد للكسب وتوزيع الثروة، بحيث يمكن تسميته بالنظام الاقتصاديّ الإسلاميّ، وإن كثر الحديث عن ذلك في الآونة الأخيرة وألفت فيه الكتب. نعم، هناك قواعد ذات صبغة النظام الاجتماعيّ والاقتصاديّ المستنبطة من القرآن الكريم، لذلك تكتسب بين المسلمين والمجتمعات الإسلاميّة أهمّيّةً مطلقةً. ولاشكّ أنّ المكانة الرئيسة بين تلك القواعد مخصّصة للواجب المقرّر على طبقة المجتمع الغنيّة بالاهتمام وتقديم المساعدة لطبقة المجتمع

الفقيرة. وقد نُظمت هذه القاعدة بنظام الزكاة، العبادة المعروفة باسم "الركن الثالث للإسلام". وأما بالنسبة للمُلكيّة، فهناك جانبان خارجان عن هذا النظام، وهما: الملكيّة الفرديّة المطلقة بمفهومها المعروف في القانون الرومانيّ؛ والملكيّة المشتركة المطلقة. وقد خرجت الأولى بالنص القرآنيّ الصريح، بينما خرجت الثانية بإشارة ضمنيّة واضحة جداً. وإن أضفنا إلى ذلك التحريم القاطع للربا، سيتّضح أمامنا رسم من القواعد الثابتة المتباعدة في مساحة شاسعة، ليس من شأنها "تجميد" تعامل الناس، لكونها تفتح - في إطار حدودها - مجالاً رحبًا لتشكيل ألوان كثيرة من النظم الاقتصادية والاجتماعية تحتفظ كلها - على كثرتها وتنوّعها - بكامل المعايير الإسلاميّة.

ونرى من الضرورة بمكان أن نُبرز - في سياق هذه المقالة - أنّ الإسلام لم يكن أبداً عاملَ تجميد وتحجير الوضع القائم. إنّ كلّ من بحث عن طريق الإصلاح والتغيير كان يعتمد على الإسلام، لأنّه كان كذلك منذ بدايته الأولى. لقد رأى الذين يروق لهم تبسيط الأمور في ظهور الإسلام حركةً طبقيّة قامت بها طبقة فقراء وعبيد ضدّ أغنياء ونبلاء مكّة. وهذا رأي خاطئ، طبعًا، ولكنّه مميّز. إنّ المذهب الأول الذي نشأ في أحضان الإسلام كان مذهب الخوارج (نشأ سنة ٦٥٧ م)، وقد استند إلى نص القرآن الكريم في مطالبته بأمرين اثنين: إلغاء النظام الإقطاعيّ، وقيام النظام الجمهوريّ؛ وهذا هو ما نجده في التاريخ المعاصر أيضًا. لقد تطرّقنا إلى ذكر الدولة الإسلاميّة التي أقامها مهدي السودان (وقُضيَ عليها في أواخر القرن المنصرم)، الذي وضع في برنامج حكومته "تحقيق المساواة بين الأغنياء والفقراء. (١٠) ومن هنا كان البرنامج الاجتماعي الاقتصادي الذي وضعته "حركة الإخوان المسلمين" برنامجًا ثوريًا بتمام معنى الكلمة. لقد فصّلوا نظامَ الإصلاح الزراعيّ وتنظيم النقابات وتأميمَ المصادر الطبيعيّة (لذلك تسمّى النخبة الحاكمة التي تعيش حياةَ ترف ورفاهية هذه الجماعة بـ "الحركة الرجعيّة"!).

ولايمكننا في هذا المقام - ونحن بصدد التعرض لهذه القضيّة المهمّة - أن ننسي ذكر دولة إيران، لكونها أحدث وأبرز مثال فيما نتحدّث عنه. لقد تمّ في هذه الدولة التي تُعرَض كافّة أحكامها وقوانينها على مجلس الفقهاء المتشدّد، تأميم البنوك، وتأمين المناجم ومصانع الصلب والسيارات والأغذية والأدوية؛ والمجلس الآن منهمك في مداولة قوانين الإصلاح الزراعيّ. هذه التغييرات الكبيرة (كما نسميها نحن في أوربا بـ "تغييرات أساسيّة") لم تجر باسم "ماركس"، بل طُبّقت باسم القرآن الكريم، ويمكن القول بأنّها نُفّذت دون أيّ معارضة (لايمكن ربط النزاع مع "مجاهدي خلق" بهذه الإصلاحات، لأنّه لايبعد كثيراً عن الطبيعة الطبقيّة). وكانت عامّة الشعب ركيزة ضامنة لنجاح الثورة، من غير أن يتعلّق الأمر بـ "أسباب طبقيّة"، لأنّ جوهر المسألة يتعلق بدرجة الانتماء إلى الإسلام. وهذه هي حقيقةُ عامّة الشعب إلى حدّ كبير، بينما ظلت "الطبقات العليا" بعيدة عن الإسلام، حتّى بعد قيام الثورة.

إنّ عرضَنا هذا يستدعي طرحَ ما يُعرَف بـ "الاشتراكيّة الإسلاميّة". هل الظواهر التي سُقناها في هذا المقال تبرّر مجرّدَ إطلاق مصطلح "الاشتراكيّة الإسلاميّة" باعتبارها ممكنةً، فضلاً عن كونها واقعًا معاشًا؟ نرى أنّ ماوصل إليه علمنا في هذا الجانب يلزمنا بالإجابة بالنفي. إنّ الإسلام والاشتراكيّة نظامان شاملان متشابكان إلى درجة لاتسمح بأيّ نوع من المعادلة بينهما استناداً إلى بعض الجوانب الظاهريّة، مهما كانت مهمّةً. ولابدّ لنا أن نضع نصبَ أعيننا كون هذين النظامين مبنيّين على أساس فلسفتين متناقضتين.

إنّ الإسلام دين، ومن شأنه أن يتحرك في كل شيء بناءً على الاعتراف بوجود الله، أي بناءً على الضمير الحي. إنّ كل لون من الاشتراكيّة قد انطلق-ولابدّ له أن يكون كذلك- من مبدأ مناقض للأوّل. ولايمكن لأيّ دين أن يقبل بسيطرة المجتمع على الفرد، وهذا هو مبدأ الاشتراكيّة عينُه. إنّ لكل دين نوعًا من الارتباط بالسماء، أي تفسيراً لخلق الإنسان، بينما لاتقبل الاشتراكيّة بغير

"داروين" ونظريّة التطوّر والارتقاء. ويرى الدين فلسفة الحياة في صراع بين الخير والشرّ، بينما تراها الاشتراكية ميدانًا لإشباع الحاجات. ويضع الدين معايير أخلاقيّة للأمور، وتضع الاشتراكيّة معايير طبقيّة. يسعى الدين لضمان الحريّة وروح الإنسانيّة وحقوق الإنسان، بينما تتطلع الاشتراكيّة إلى العمل والازدهار والحقوق الاجتماعيّة. إنّ القيمة المثلى في مفهوم الدين هي كرامة الإنسان، وهي في مفهوم الاشتراكيّة تحقيق الأمن الاجتماعيّ. ويقف الدين إلى جانب الأمّ والأسرة، وتقف الاشتراكيّة إلى جانب رياض الأطفال والتربية الاجتماعيّة. ولاشكّ أنّ بناءَ الإنسان السويّ غيرُ تنظيم المجتمع. وهلم جراً. إذاً، فالفروق أساسيّة إلى درجة لايبقى معها مجال للمقارنة بين التظامين.

وهذه هي النظرة إلى الجوانب النظريّة فقط، ولكن الحياة تتميّز بتلك القدرة الخارقة على الجمع بين المتناقضات. أليس إيجادُ الإنسان نفسه أمراً ممكنًا نظريًا؟ لاندري هل ستقدر الأيام المقبلة على إيجاد ملتقى بين الدين والاشتراكية، لقيام نوع من اشتراكيّة متديّنة، أو اشتراكيّة إسلاميّة! ويصبح التاريخ علمًا منطقيًا وتصحّ توقّعاتنا فقط إذا ما التفتنا إلى الوراء، لأنّ التاريخ - في الحقيقة - حديث عن تحقيق متواصل لما يبدو مستحيلاً.

ليس لنا أن نتخيّل، لأنّ أمامَنا انتظارَ حدوث "المستقبل" لكي "نفسّره" بعد ذلك. ولعلّ بعضَ مستحيلات اليوم تغدو في المستقبل ممكنةً جداً.

كتبت المقالة في شهر ديسمبر سنة ١٩٨١م.



هوامش

* هذا التاريخ هو بداية الاحتلال لمصر ثم المنطقة العربية منذ الحملة الفرنسية على الشرق العربي الإسلامي أيضا.
إذاً، ماالقوى التي صمدت في وجه هذا الحصار الذي لامثيلَ له، وماالأفكارُ التي استقت منها الهمم والمثلَ؟
والإجابة عن هذا السؤال مقصد رئيسي من هذه المقالة .

(١) غودفري يانسن، الإسلام المسلح، ص ١٠١ (Godfrey Jansen, Militant Islam, London 1979, p. 101)

(٢)- وهناك إصلاح قام به مصطفى كمال، ولكنه لايُعرَف إلاّ في نطاق ضيّق لكونه لم يدم طويلاً. لقد أصدر أمره بمنع إذاعة الموسيقى التركية الشعبية في محطات الإذاعة الحكومية، وأمر بإذاعة أعمال باخ وموتزارت بدلها، وعلل ذلك بأنّ الأغاني التركية الشعبية تذكره بعواء الكلاب وتسبب له آلامًا في البطن!

(٣)- وقد لوحظت هذه الظاهرة عندنا، وقال د. قاسم سوليفيتش سنة ١٩٧٠م :"ليس هناك شعب أوربي خانته نخبته المثقفة بهذه السهولة، مثلما حدث عندنا نحن المسلمين!"

(٤)- أيوب خان، أصدقاء، لاسادة: نيويورك ١٩٦٧م، ص ٩٨ Ayub Kan, Friends not Masters, New York 1967;

(٥)- غودفري يانسن، المرجع السابق، ص ١٣٥؛

(٦)- أ. قرشي، الإسلام والغرب، لندن ١٩٧٨، ص ٢١٣ I.A.Qureshi, Islam and the West, London 1978, p. 213;

(٧)- هـ. جيب، ردّ الفعل في الشرق الأوسط ضدّ الثقافة الغربية، ص ٣٢٤
H.A.R.Gibb, The Reaction in the Middle East Against Western Culture, pp. 324 - 8;

(٨)- غودفري يانسن، المرجع السابق، ص ١٠٨؛

(٩)- من المعلوم أن الحزب الشيوعي الجزائري (الفرنسي) كان يعارض حرب التحرير في الجزائر (١٩٥٤-٦٢م)؛

(١٠)- و. ترمينغام، نفوذ الإسلام في إفريقيا، لندن ١٩٧٣، ص ١٥٥ W.S.Trimingham, The Influence of Islam upon Africa, London 1973, p. 155;

upon Africa, London, p. 155;

الفهـــــرس

المقـــــدمة ٣

ماسبب تخلف المسلمين ٥

المرأة المسلمة زوجـــة وأم ٢٩

تأملات بمناسبة الذكرى الألف والأربعمائة لنزول القرآن الكريم ٤٩

المســـلمون وإســرائيل ٧١

الإســـلام والمعاصـــرة ٨٥

هل نربي المســـلمين أم الجبـــــناء ٩٩

نحـو الثـورة الإســـلامية ١٠٥

كيف نقــــرأ القـرآن ١١٩

تأملات في الهجـــرة النـــبوية ١٢٧

رسول الله محمد صلي الله عليه وسلم ١٣٥

الإســـلام وكفـاح الشعـــوب ١٤٥